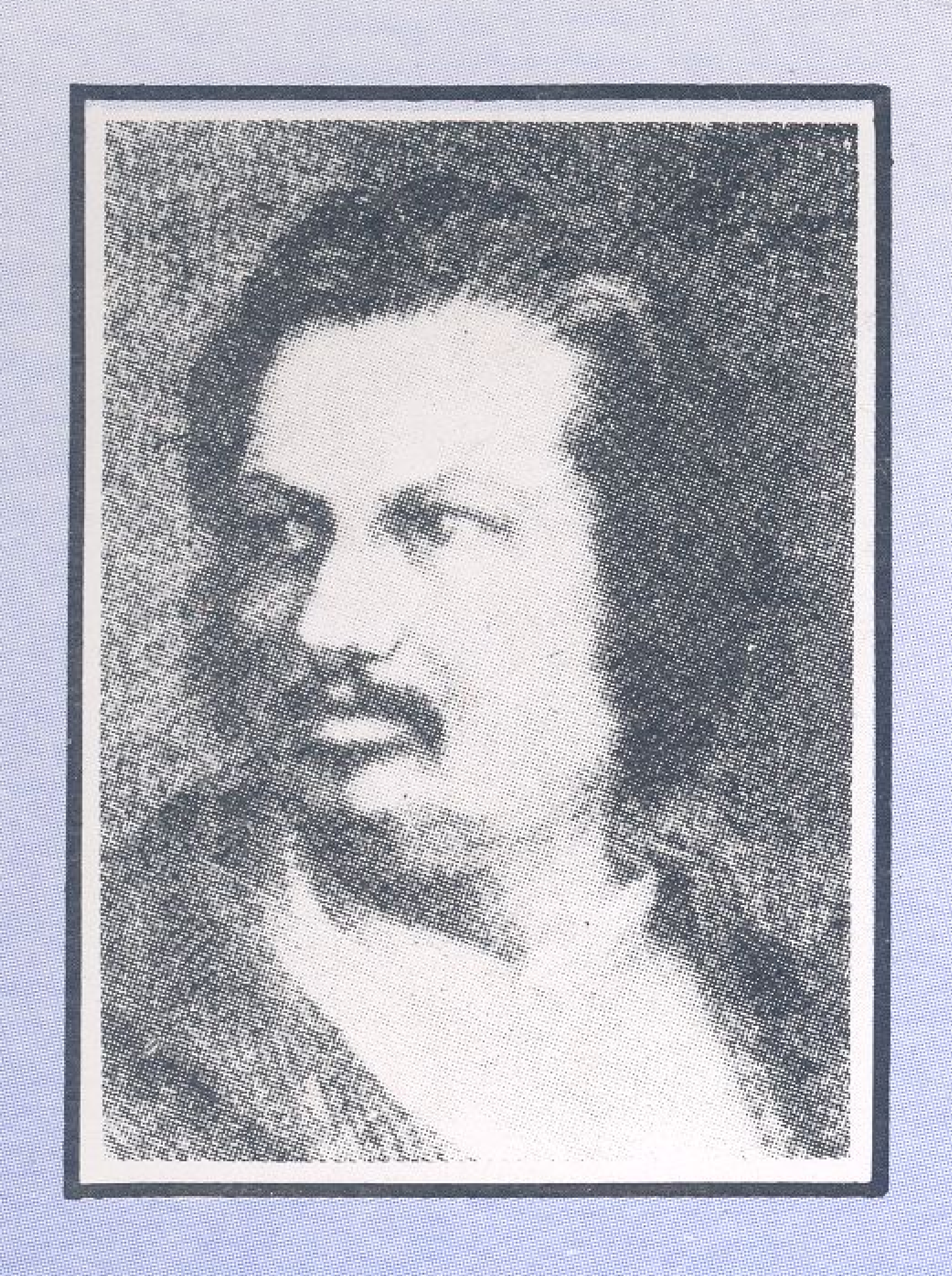


بلزاك

الملهاة الانسانية

بداية في الحياة

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الخاصة

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٣١

إهـــــــداء ٢٠٠٧
رية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

بلزاك

الملهاة الإنسانية

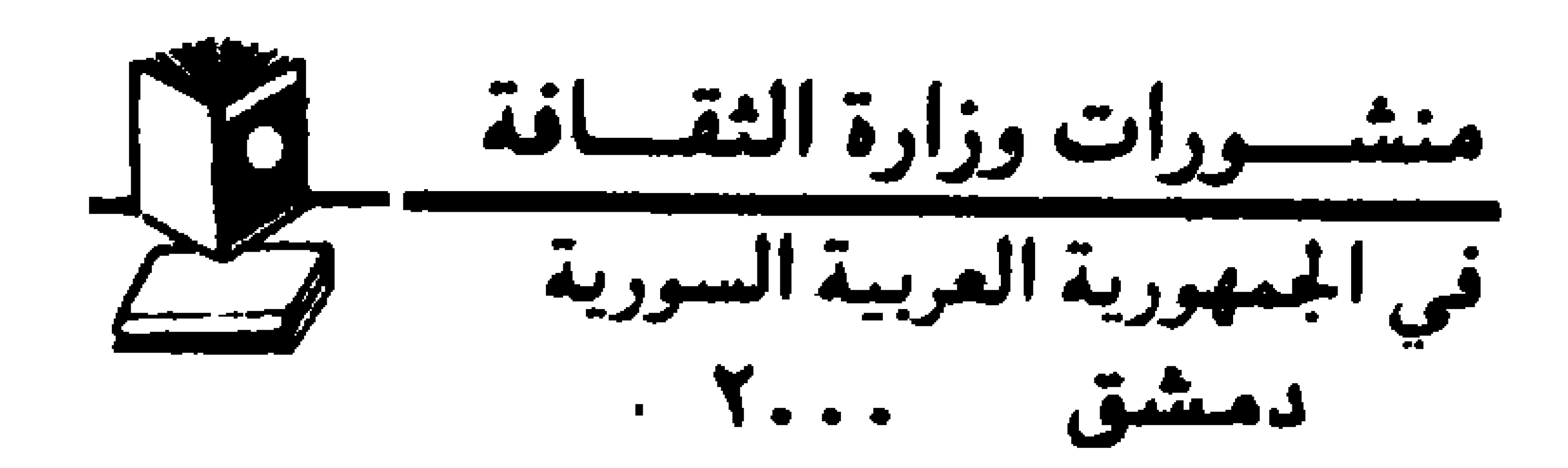
بداية في الحياة

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الخاصة

ترجمة

ميشيل خوري



العنوان الأصلي للكتاب

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

UN DÉBUT DANS LA VIE

ÉTUDES DE MOEURS
SCÈNES DE LA VIE PRIVÉE

بداية في الحياة: دراسة طبائع مشاهد من الحياة الخاصة =
Un Debut Dans La Vie / بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري. -
دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢٥٥ص؛ ٢٤ سم. (روايات بلزاك؛ ٣١).

١- ٨٤٣ ف ب ل ز ب ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- بلزاك ٥- خوري ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٢٩٨/ ٧/ ٢٠٠٠

روايات بلزاك
« ٣١ »

بداية في الحياة

الإهداء إلى لور

تقديراً لفكرها المشرق المتواضع الذي منحني موضوع هذه الرواية أخوها[1]

.

سيكون من نتائج الخطوط الحديدية، في المستقبل القريب، أن تلغي بعض الصناعات وتعدل بعضها الآخر، وخاصة مايتعلق منها بمختلف أنواع المواصلات الى المناطق المجاورة لباريس. وهكذا فالأشخاص والأشياء الذين يشكلون عناصر هذه الرواية، سرعان ما سيمنحونها استحقاق العمل الأثري. ألن يبتهج أبناؤنا في معرفة المعدات الاجتماعية لعصر سيسمونه الزمن السالف؟ وهكذا فالكوكوات[2] الساحرة التي تقف في الكونكورد، فتزحم كور- لا- رين، الكوكوات الرائجة خلال قرن، والعديدة أيضاً حتى العام ١٨٣٠، لم تعد توجد أبداً، وحتى في أكثر المناطق الريفية جاذبية، لانرى إحداها إلا بصعوبة خلال العام ١٨٤٢.

في العام ١٨٢٠، كانت الأماكن الشهيرة بمواقعها والمسماة ضواحي باريس لاتمتلك جميعها خدمات سفريات منتظمة، غير أن توشار وأبناءه حصلوا على احتكار النقل الى البلدات الأكثر ازدحاماً ضمن دائرة نصف قطرها خمسة

---

(١) يبادر بلزاك الى شكر أخته على منحها هذا الموضوع، إنما الواقع أنها قدمت له أكثر من موضوع غيره.

(٢) الكوكو: هي عربة عامة ذات أربعة أو ستة مقاعد كانت تعمل في المناطق المجاورة لباريس.

عشر فرسخاً، وشكلوا مؤسسة رائعة للنقل تقع في ضاحية سان دنيس[1]، لكنها رغم قدمها، ورغم جهود أصحابها، ورؤوس أموالهم وجميع مزايا التركيز الاقتصادي؛ فإن نقليات توشار وجدت من كوكوات ضاحية سان دنيس منافسة رهيبة في المناطق الواقعة على سبعة أو ثمانية فراسخ من باريس ووصل هوى الباريسي للريف المجاور الى درجة، دفعت منشآت محلية لتنافس أيضاً نجاح مؤسسة النقليات الصغيرة وهو الاسم المطلق على مكتب سفريات توشار مقابل اسم النقليات الكبرى الواقعة في شارع مونمارتر، وفي تلك الحقبة نشط نجاح آل توشار المنافسين، وقامت في أصغر النواحي منشآت تقتني عربات سريعة ومريحة وجميلة، تنطلق من باريس وتعود اليها في أوقات محدّدة، أحدثت في جميع المناطق ضمن دائرة نصف قطرها عشرة فراسخ تزاحماً حاداً.

وهكذا دحرت الكوكوات من أجل المسافات المتوسطة، فارتدت الى المسافات القصيرة مما ساعدها على العيش لعدة سنوات أخرى. وأخيراً سقطت منهارة منذ أن بينت عربات الأومنيبوس قدرتها على احتواء ثمانية عشر راكباً في عربة يجرها حصانان. وفي الوقت الحاضر ستكون الكوكو، إن صدف وجود أحد هذه العصافير ذات الطيران الضعيف في أحد مخازن مفكك العربات، ستكون ببنيتها، وترتيباتها، موضوع دراسات علمية مماثلة لتلك التي يقوم بها كوفيه على المستحاثات الحيوانية التي يعثر عليها في طبقات مونمارتر الجصية.

كانت المنشآت الصغيرة المهدّدة بالمضاربين الذين يزاحمون منذ العام ١٨٢٢ آل توشار تجد عادة نقطة استناد لها في تعاطف سكان المحلّة التي تؤمن لها مواصلاتها، وهكذا فالمنشيء، وهو في ذات الوقت سائق ومالك العربة، كان بمثابة صاحب النُزُل في المنطقة حيث الأشخاص والأشياء والمصالح مألوفة لديه، وهو يقوم بما يكلّف به من مهمات بذكاء، ولايطالب بأي أجر لقاء خدماته

---

(١) كانت هذه المؤسسة، وفقاً لتقويم التجارة، العام ١٨٢٢، موجودة فعلاً، باسم نقليات توشار، وعنوانها ٥٠، شارع فوبور سان دنيس.

الصغيرة؛ لكنه يحصل لقاء ذلك على أكثر مما تتقاضاه نقليات توشار، فهو يعرف كيف يتملّص من ضرورة الحصول على رخصة العبور عن بضائع منقولة، ويحمّلها على تصريحات المسافرين. أخيراً فهو يمتلك ودّ أبناء الشعب.

وهكذا فعند قيام مزاحمة تقتضي أن يتقاسم الناقل القديم أيام الأسبوع مع ناقل آخر فإن بعض الأشخاص يؤخّرون سفرهم لليوم المحدّد لناقلهم القديم بالرغم من أن معداته وخيوله قد تكون أقل ملائمة.

كان أحد الخطوط التي جرّب آل توشار أن يستأثروا بها، والذي نوزعوا بشدة عليه، كما نُوزع خلفاؤهم آل تولوز، هو خط باريس- بومون سور-واز المزدحم والمربح بشكل أكيد، إذ أن ثلاث مؤسسات تتنافس على استثماره منذ العام ١٨٢٢. وخفّضت النقليات الصغيرة عبثاً أجورها، وضاعفت عبثاً من ساعات وعدد رحلاتها، وتبنت عبثاً عربات فخمة، لكن المزاحمة استمرت لكبر مردود خط تقع عليه هذه المدن الصغيرة مثل سان دنيس وسان بريس، والقرى مثل بييرفيت، وغروسلاي، وإكوان، وبونسيل، ومواسيل، وبابيه، ومونسولت، ومافليه، وفرانكونفيل، وبريسل، ونوانتيل ونرفيل الخ.. وانتهت نقليات توشار بأن مدّت خطها حتى شامبلي، فامتدت المنافسة بدورها حتى شامبلي. أما الآن فإن آل تولوز قد أوصلوا الخطّ الى بوڤيه.

على هذا الطريق وهو طريق انكلترا، يوجد فرع ينشأ من مكان يسمى الكهف نظراً لطبوغرافيته، وهو يقود عبر أحد أعذب وديان حوض الواز الى مدينة إيل- آدم الصغيرة، المضاعفة الشهرة كمهد لعائلة إيل آدم المنقرضة، وكمقرّ قديم لآل بوربون- كونتي[1].

وليل آدم مدينة صغيرة جذابة تدعمها قريتان كبيرتان هما نوجان وبارمن

---

(١) يبدو أن أحد أفراد عائلة إيل آدم قد هاجر الى مقاطعة بريتانية وأنشأ فرعاً في القرن الثامن عشر للعائلة هناك. ومن هذا الفرع الكاتب فيليه دي ليل آدم. أما المدينة فقد غدت في العام ١٦٥١ موطناً لأرمان دي كونتي الابن الأصغر لأميرة كوندة وهي من آل موغورونسي.

وتتميزان كلاهما بمقالع رائعة، استمدت منها أجمل أبنية باريس الحديثة موادها، كما صُدِّر بعضها الى الخارج اذ أن قاعدة وزخرفات أعمدة مسرح بروكسل هي من حجر نوجان. وبالرغم من تميزها بمواقع باهرة، وبقصور شهيرة بناها أمراء أو رهبان أو رسّامون شهيرون مثل كاسان، وستورس ولڤال، ونوانْتل وبرسان الخ.. فإن هذه البلاد نجت من المزاحمة وتأمّنت مواصلاتها من قبل صاحبي عربات اتفقا على الاستثمار، وكان من السهل معرفة أسباب هذا الاستثناء؛ فمن الكهف النقطة التي يبدأ منها على طريق انكلترة الدرب المبلّط الذي يعود الفضل في انشائه الى كرم أمراء كونتي حتى ليل آدم، تبلغ المسافة فرسخين، ومامن منشأة تستطيع اجراء عطفة بهذا الاتساع، اضافة الى أن ليل- آدم تشكل نهاية خط غير نافذ ينتهي عندها هذا الدرب. ومنذ عدة سنوات قام طريق كبير يصل وادي موغمورنسي بوادي ليل آدم، وهو ينطلق من سان دنيس ويمر من سان- لو- تافرني، ومرو، وليل آدم، ويصل حتى بومون، على طول الواز. ولكن في ١٨٢٢، كان الطريق الوحيد المؤدي الى ليل آدم هو طريق أمراء كونتي. وساد بييروتن وزميله على الانتقال من باريس الى ليل آدم، وكانا محبوبين من أهل البلاد جميعاً، فعربة بييروتن وعربة رفيقه كانتا تخدمان ستورس، لڤال، وبارمن، وشمباني، ومورس، وبريرول، ونوجن، ونرڤيل، ومافليه، وكان بييروتن معروفاً لدرجة أن سكان مونسولت، ومواسل، وبابيه، وسان- بريس رغم وقوعها على الطريق العام يستخدمون عربته حيث يتوفر خط أكبر في ايجاد مكان قد لايتأمّن في عربات بومون الملأى دائماً. وكان بييروتن على وفاق مع منافسه، فعندما ينطلق من ليل- آدم كان رفيقه يعود من باريس والعكس بالعكس. وبالتالي فمن العبث التحدث عن منافس، وبييروتن يحظى بودّ المنطقة، وهو الوحيد بين الاثنين المشتغلين على هذا الخط البارز في هذا المشهد المطابق للواقع، ويكفي أن نشير لكم بأن هذين الاثنين كانا يعيشان في تفاهم وهما يقومان بمنافستهما الشريفة، محاولين اكتساب الزبائن بالطرق الطيبة، وهما يستفيدان في باريس. رغبة في الاقتصاد، من ذات الباحة، والفندق،

والاسطبل، والمستودع، والمكتب، والمستخدم. هذا التفصيل يكفي للدلالة على أن بييروتن ومنافسه كانا وفقاً لتعبير الشعب من جبِلّة الرجال الطيبين. ومايزال هذا الفندق الواقع على زاوية شارع آنجن تماماً موجوداً حتى الآن ويسمى فندق الأسد- الفضي[1]؛ وكان مالك هذا الفندق المخصص منذ زمن عريق في القدم لايواء العاملين في السفريات يستثمر هو بالذات منشأة عربات تعمل على خطّ دامارتن، وهو متمكن من خطه بحيث أن جيرانه آل توشار لم يفكروا باطلاق أيّة عربة على هذا الخط.

بالرغم من أن للانطلاق الى ليل آدم موعداً محدداً، فإن بييروتن وزميله يبديان بهذا الخصوص بعض التسامح؛ وهو إن أكسبهم مودّة أبناء المنطقة فإنه يعرّضهم لعتاب الغرباء المعتادين على دقة المؤسسات العامة الكبرى. لكن سائقي هذه العربة، وهي متوسطة بين الديليجنس والكوكو يجدان دائماً مدافعين عنهما بين المعتادين على هذا الأسلوب، وهكذا فالانطلاق مساءً المحدّد في الرابعة ينسحب حتى الرابعة والنصف، وموعد الثامنة صباحاً لايتمّ قبل التاسعة. لكن هذا النظام المرن الى أبعد حدّ، يتقيد بالمواعيد صيفاً- وهو الموسم الذهبي لمكاتب السفر- وتطبّق التعليمات بدقة بالنسبة للغرباء، ولاتنثني إلا أمام أبناء المنطقة. وهذه الطريقة تسمح لبييروتن بقبض أجرة المحل مضاعفاً، عندما يحضر أحد أبناء المنطقة مبكراً وينتظر علّ أحد الغرباء العابرين يتأخر عن الموعد. هذه المرونة لن تلقى بالتأكيد نظرة رضا من الطهريين المتمسكين بالأخلاق القويمة، لكن بييروتن وزميله يبررانها بقسوة الزمن، وخسارتهما في فصل الشتاء، وضرورة الحصول قريباً على عربات أفضل، وأخيراً بالتقيد الصحيح بالقانون المسجل على بطاقات

---

(١) فندق الأسد الفضي- ٥١ شارع فوبور سان دنيس، مقر عربات كربي- كليرمون- نانتوي- ليل آدم الخ. كل الأيام من السابعة الى الثامنة صباحاً، وعند العودة من الثالثة الى الرابعة بعد الظهر (تقويم التجارة، ١٨٢٢).

السفر وهي نادرة جداً ولاتُعطى إلا للمسافرين الذين يُصرُّون على الحصول عليها.

كان بيروتن رجلاً في الأربعين من العمر، وهو ربّ عائلة، ترك سلاح الخيالة في فترة التسريح التي جرت العام ١٨١٥، وقد خلف هذا الفتى الطيب والده الذي كان يقود من ليل آدم الى باريس عربة كوكو ذات مظهر نزوي؛ وبعد أن تزوج ابنة صاحب نُزُل صغير وسّع عمله في ليل آدم ونظمه وتميز بذكائه ودقته العسكرية[١].

كان بيروتن حاذقاً وحازماً (ويبدو أن هذا الاسم كان لقباً له)، وهو يشيع بحركية قسماته، ووجهه المحمّر الملوّح بتقلبات المناخ تعبيراً خداعاً يشبه مظهر السخرية. والواقع أن هذه السهولة في الكلام التي تكتسب بكثرة الاختلاط بالناس ورؤية البلدان المختلفة لاتنقصه، وكان صوته لاعتياده التوجّه الى الخيول والهتاف بالتحذير قد اكتسب خشونة لكنه كان يستعيد نبرته العذبةمع البورجوازيين. أما بزته فهي مما اعتاد حوذيو الدرجة الثانية[٢] ارتداءه. فهو ينتعل جزمة ضخمة مثقلة بالمسامير أعدت في ليل آدم، وسروالا من المخمل الخشن الأخضر الغامق، وسترة من القماش نفسه، إنما يرتدي فوقها معطفاً أزرق، خلال أوقات عمله، وهو مزيّن على ياقته، وكتفيه، وطرفي كميّه بمطرّزات متعددة اللون، كما يعتمر قبعة ذات واقية تغطي رأسه وقد ترك ماضيه العسكري في طبعه احتراماً عميقاً لأصحاب المقامات الاجتماعية العليا، واظهار الطاعة لأبناء الطبقة النبيلة، لكن إن كان يألف بسهولة معاشرة صغار البورجوازيين، فإنّه يبدي دائماً احتراماً عميقاً للنساء، أياً كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمين اليها. غير أنه لكثرة تنقيله للناس، وفقاً لتعبيره، فقد انتهى الى النظر للمسافرين وكأنهم رزُم تمشي، وهم كهدف رئيس للنقل يتطلبون عناية أقل من الآخرين.

---

(١) لكن يبدو أنه تخلى فيما بعد عنها كما ذكر في الفقرة السابقة.

(٢) حوذيو الدرجة الأولى هم العاملون على خطوط السفر الطويلة بين المدن الكبرى.

وقد أنذر بالحركة العامة التي بدأت منذ حلول السلام[1] تحدث انقلاباً في حركة النقل ولم يرد أن يفوته التقدّم المادي في هذا المجال. وهكذا فمنذ بدء الفصل الجميل أخذ يتحدث كثيراً عن عربة كبيرة أوصى عليها لدى فاري، بريلمن وشركائهم[2] أفضل صانعي صناديق العربات، وقد غدت ضرورية للعدد المتزايد من المسافرين. وبذلك فإن تجهيزات بيبروتن غدت مؤلفة من عربتين. احداهما تستخدم في فصل الشتاء وهي الوحيدة التي يُعلن عنها لموظفي الضرائب، وقد ورثها عن أبيه، وهي من صنف الكوكو، وكان جانبا هذه العربة المنتفخة يسمحان بوضع ستة ركاب فيها على مقعدين بقساوة معدنية رغم أنهما مكسوان بمخمل أو ترخت الأصفر؛ ويفصل بين هذين المقعدين لوح من خشب، ينزع ويوضع حسب الحاجة على حزَّين داخلين مُجرَين في حاجزي الطرفين على علو ظهر المسافر، وهذا اللوح المغطى تمويهاً بالمخمل، والمسمى من قبل بيبروتن بالمسند كان يثير حنق الركاب لما يعانونه من صعوبة في رفعه، وفي وضعه. واذا كان هذا المسند يسبب صعوبة في تحريكه فإنه كان أيضاً يتعب الكتفين عند وضعه في مكانه، كما يعيق الحركة عند رفعه ووجوده في عرض العربة، مما يجعل الصعود والنزول من العربة صعباً وخاصة على النساء. وبالرغم من أن كل مقعد في هذه العربة ذات الجانبين المحنيين كامرأة حامل مخصّص لثلاثة مسافرين، فغالباً مايحشر فيها ثمانية يغدون فيها كسمك الرنة المرتص في علبة؛ ويزعم بيبروتن أنهم يكونون هكذا في وضع أفضل اذ أنهم يشكّلون عندئذ كتلة متراصّة ثابتة، بينما يتصادم الركاب الثلاثة فيما بينهم باستمرار ويُخشى غالباً أن تتلف قبعاتهم من ارتطامها بسقف العربة من جراء الارتجاجات العنيفة في الطريق.

في مقدمة تلك العربة يوجد مقعد خشبي مستعرض، هو مكان جلوس

---

(١) أي بعد سقوط نابوليون في العام ١٨١٥ ونفيه الى جزيرة القديسة هيلانه وعودة الملكية الثانية.

(٢) أشير في أوجيني غرانده الى هذه المؤسسة الصانعة للعربات. لكن لم نعثر على أثر لها في السجل التجاري لذلك الزمن.

بييروتن حيث يمكنه أن يأخذ ثلاثة ركاب، يُطلق عليهم كما هو معروف اسم «الأرانب»؛ ويمكن لبييروتن في بعض الرحلات أن يأخذ أربعة أرانب، ويجلس عندئذ جانباً على نوع مما يشبه العلبة مجراة في أسفل الصندوق ليشكل نقطة استناد لأقدام هؤلاء الأرانب وهي ممتلئة دائماً بالقش أو برزم متينة ليس فيها مايخشى العطب. كان صندوق هذه الكوكو مدهوناً بلون أصفر ومجملاً في قسمه الأعلى بلون أزرق مخضر حيث تقرأ على الجانبين بأحرف بيضاء فضية: ليل آدم- باريس ومن الخلف: عربة نقل ليل آدم.

إن أبناءنا سيرتكبون خطأ إن اعتقدوا أن هذه العربة لايمكن أن تقل إلا ثلاثة عشر راكباً بمن فيهم بييروتن: ففي المناسبات الكبرى يمكن أن تستقبل ثلاثة ركاب آخرين في ركن مربع من الخلف ذي غطاء واق وهو مخصص لوضع الأمتعة والرزم والصناديق؛ لكن بييروتن الحريص لايأخذ فيه إلا زبائنه القدامى وعلى بعد ثلاثمئة أو أربعمئة خطوة من الحاجز؛ هؤلاء الشاغلون لهذا «القنُ» وهو الاسم الذي يطلقه الحوذيون على هذا القسم من العربة ملزمون على النزول قبل كل قرية في الطريق يوجد فيها مركز شرطة، اذ أن هذه الحمولة الاضافية ممنوعة بتعليمات صريحة تتعلق بسلامة المسافرين، وهي تشكل مخالفة مفضوحة لايستطيع الدركي، وهو صديق في الأساس لبييروتن أن يمتنع عن تنظيم ضبط تترتب عليه غرامة. وهكذا فإن عربة بييروتن تنقل في بعض أمسيات أيام السبت، أو صبيحات أيام الاثنين، خمسة عشر راكباً، ويضطر عندئذ من أجل جرّها أن يقرن مع حصانه الضخم العجوز المسمى روُجو رديفاً له لاتزيد قامته عن جدمة وهو فرس اسمها بيشيت، تأكل قليلاً، لكنها كالنار في حركتها، فهي لاتعرف التعب وتساوي ثقلها ذهباً.

كان بييروتن يهتف عندما يسخر أحد المسافرين أو يضحك من منظر هذه الفرس الصغيرة: «إن زوجتي لاتبادلها بهذا الخامل الضخم روجو».

كان الفرق بين العربة الأخرى الجديدة وهذه العربة يقوم على أن الجديدة

ذات أربع عجلات وهي ذات بنية غريبة وتتسع لسبعة عشر راكباً لكنها محدّدة لأربعة عشر، وتحدث ضجة كبيرة بحيث يقال في ليل آدم: «هو ذا بييروتن» عندما يخرج من الغابة الممتدة على سفح الوادي؛ والعربة تنقسم الى قسمين، يتسع الأول منها المسمى «الداخلي» الى ستة مسافرين على مقعدين، والثاني وهو قسم مقفل بحاجز زجاجي مزعج وغريب بحيث لايتسع المجال لوصفه. ويعلو العربة ذات الأربعة دواليب طبقة يدخل فيها بييروتن ستة ركاب، وتنغلق بستائر من جلد. أما مقعد بييروتن فهو غير منظور تقريباً وموجود تحت حاجز زجاج الكابريوله. وكان مؤمن سفريات ليسل آدم لايدفع الضريبة المفروضة على العربات العامة إلا بالنسبة لعربته الكوكو المسجلة بأنها ذات ستة ركاب، ويأخذ رخصة موقتة في كل مرّة يسيّر فيها عربته ذات العجلات الأربعة. قد يبدو هذا غريباً في الوقت الحاضر؛ لكن الضريبة على العربات، الموضوعة في بداياتها ببعض الخجل، كانت تسمح لأصحاب وسائل النقل بالقيام بهذه الخدع، ويسرُّهم انطلاؤها على مستخدمي مصلحة الضرائب؛ لكن هذه المصلحة غدت شيئاً فشيئاً أكثر قسوة، وألزمت العربات بعدم السير دون أن تحمل الطابع المضاعف الذي يشير الآن الى أنها قد سدّدت التزاماتها بعد أن حدّد وسعها. ويبدو أن لكل شيء زمن براءته حتى مصلحة الضرائب، وقد كانت حتى نهاية العام ١٨٢٢ ماتزال في مثل هذا الزمن.

كانت العربة ذات الأربع عجلات وعربة الكوكو تسيران في الغالب معاً خلال الصيف على الطريق تقلان ركابهما الاثنين والثلاثين، ولايدفع بييروتن ضريبة إلا على ستة ركاب. في تلك الأيام المحظوظة، كانت القافلة تنطلق في الرابعة والنصف مساء من ربَض سان دنيس، وتصل بكل عزيمة في الساعة العاشرة الى ليل آدم، وبييرتون المعتز بمصلحته التي تتطلب استئجار خيول اضافية يقول: «لقد مشينا بشكل جيد!» اذ عمدمن أجل قطع تسعة فراسخ في خمس ساعات بهذا العتاد، الى الغاء. التوقف في المحطات سان بريس،

ومواسيل، ولاكاف الواقعة على الطريق والتي اعتاد الحوذيون سابقاً الاستراحة فيها.

كان فندق الأسد الفضي يشغل مساحة من الأرض ذات عمق كبير. واذا كانت واجهته لاتحتوي على ضاحية سان- دنيس إلا على ثلاث أو أربع نوافذ، فإن تلك الأرض كانت تشمل في باحتها الطويلة التي تنتهي في طرفها بالاسطبلات، بيتاً كاملاً ملاصقاً لجدار ملكية مجاورة. وكان المدخل يشكل مايشبه الممر ويمكن أن تقف تحت سطحه عربتان أو ثلاث عربات.

وفي العام ١٨٢٢ كان مكتب جميع مؤسسات النقل المقيمة في الأسد الفضي مُداراً من قبل زوجة صاحب النزل التي كانت تمسك بقدر من الدفاتر بعدد تلك المؤسسات، فتستلم الأجور، وتسجّل أسماء المسافرين، وتضع بكل طيبة الحوائج في مطبخ النزل الواسع. وكان المسافرون يغتبطون بهذه العفوية الأبوية؛ فإن وصلوا مبكرين جلسوا تحت برقع المدخنة أو وقفوا تحت المدخل، أو انتظروا في مقهى الاشيكيه المشكل لزاوية شارع بهذا الاسم يوازي شارع أنجان الذي لاينفصل عنه إلا بعدة بيوت.

في أوائل أيام الخريف من تلك السنة، وفي صباح يوم سبت كان بييروتن ويداه تمرّان من خلال فتحة معطفه الى جيبيه يقف تحت بوابة العربات في الفندق، حيث يرى على التوالي مطبخ النزل ومن بعده الباحة الطويلة التي ترتسم الاسطبلات في نهايتها بشكل قاتم، وكانت عربة دمَارتن في طريقها الى الخروج منطلقة بتثاقل في إثر عربات توشار.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً وتحت سقيفة مدخل الفندق التي يقرأ فوقها على لوحة طويلة «فندق الأسد الفضي»، كان خدم الاسطبل وسعاة مكاتب السفر ينظرون الى العربات تتمم انطلاقتها التي تخدع دائماً المسافر بدفعه الى الاعتقاد أن الخيل تندفع دائماً هكذا.

قال فتى الاسطبل لبييروتن عندما لم يعُد يرى أيٍّ وافد: «هل يجب قرنُ

الخيل يامعلم؟ أجاب بييرتون: «هاهي الساعة الثامنة والربع، ولاألمح أبداً مسافرين! أين يختبئون اذاً؟ اقرن الخيل على كل حال. كما لايوجد أي رزم! كأن الله غاضب علينا! هو[1] لايعرف أين يضع مسافريه هذا المساء، رغم أن الطقس جميل وليس لدي إلا أربعة مسجلين! هوّذا جهد دون جدوى في يوم سبت! إن الأمر هكذا عند الحاجة الى دراهم! أية مهنة لاترضاها الكلاب! إنّها مهنة خطيرة!

قال ساعي الاسطبل محاولاً تهدئة بييروتن: واذا حصلت على الدراهم فأين تضعها؟ اذ ليس لديك إلا عربتك؟

قال بييروتن: والعربة الجديدة اذاً!

سأل الأوفرني البدين وقد افتر ثغره عن ابتسامة أظهرت أسناناً بيضاء عريضة كحبات لوز:

هذا يعني أنها موجودة فعلاً؟

- أيّها العديم الكفاءة! إنها ستسير غداً الأحد، ويلزمنا ثمانية عشر راكباً!

قال الأوفرني: آه! عجباً! إنها عربة جميلة، هذا سيسخن الطريق.

- عربة كتلك التي تذهب الى بومون، جديدة كلياً! وهي مدهونة بالأحمر والذهبي بحيث تدفع آل توشار الى أن ينشقوا غيظاً! ويلزمني ثلاثة أحصنة، اذ أنني وجدت مثيل روجو، وستنطلق بيشيت بزهو كقذافة. هيّا جهز العربة.

كان بييروتن يحشو غليونه بالتبغ[2] وهو ينظر الى جهة باب سان دنيس، فتابع الكلام بعد لحظة: «عجباً! إنني أرى هناك سيدة ومعها فتى صغير وهما يحملان رزمتين تحت ذراعيهما، إنّهما آتيان الى الأسد- الفضي، غير مباليين

(١) المقصود صاحب العربة الأخرى العامل على ذات الخط والمنطلق من ليل آدم عندما ينطلق بييرتون من باريس والعكس بالعكس.

(٢) انتقل استخدام التبغ من العسكريين الى المدنيين، وهو هنا بواسطة أحد العسكريين القدامى.

بدعوات أصحاب الكوكوات. عجبا! يبدو لي أن هذه السيدة هي واحدة من زبائننا!.

قال الساعي: كم مرة وصلت عربتك مليئة بعد انطلاقها فارغة.

أجاب بييروتن: إنّما دون رزَم، ياالله! أي حظ!».

ثم جلس على أحد هذين النُصبين الكبيرين اللذين يقيان الجدار من صدمات العربات؛ إنّما بمظهر قلق وحالم على غير عادته.

هذه المحادثة اللامبالية في الظاهر حركت مايُشغل بال بيروتن في صميمه، لكن أيّ قلق يستحوذ على قلب بييروتن، إن لم يكن التفكير بعربة جميلة؟ تلتمع على الطرقات، وتنافس عربات آل توشار، وتوسّع مصلحته، وتقلّ المسافرين الذين يهنؤونه على تلاؤمه مع التطوّر الطارىء على مستلزمات الراحة في العربات بدلاً من اللوم المتواصل على «حوافر» خيله. هذا هو طموح بييروتن الخليق بالثناء.

والحال أن مؤمن النقل والسفر الى ليل آدم، المندفع برغبته في التفوق على زميله، والمؤمل في أن يدفعه يوماً ليتخلى له عن خطّ مواصلات ليل آدم، قد تجاوز طاقته. فقد أوصى فعلاً على عربة لدى فَرّي وبرلمن وشركائهم، صانعي العربات الذين أحلوا النوابض الانكليزية المربّعة محلّ نوابض أعناق اليمّ وغيرها من المبتكرات الفرنسية القديمة؛ لكن هؤلاء المصنّعين القساة الحذرين لايريدون تسليم هذه العربة إلا بعد تسديد كامل قيمتها، فهؤلاء التجار الذين لايستهويهم صنع عربة يصعب تصريفها إن بقيت لديهم، لم يبدؤوا العمل إلا بعد أن دفع بييروتن مبلغ ألفي فرنك، استنفد الناقل الطموح جميع مدّخراته ومدخرات زوجته وحميّه وأصدقائه من أجل تأمينها؟ وقد ذهب لرؤية هذه العربة الرائعة لدى الدّهانين في المساء وهي جاهزة لتجري على الطرقات، ولاينقصها إلا تسديد باقي ثمنها. لكن ألف فرنك ماتزال تنقصه. وهو واقع تحت دين أجرة الفندق فلايجرؤ أن يطلب من صاحبه أن يقرضه هذا المبلغ، وهو معرّض إن لم يستطع

تأمينه الى خسارة سلفة الألفي فرنك، عدا عن خمسمئة فرنك تلزمه ثمن حصان جديد، وثلاثمئة أخرى ثمن معدات القرن والجرّ التي استلفها منذ ثلاثة أشهر. ودفعه غيظ القنوط وجنون حبّ الذات الى التأكيد بأن عربته الجديدة ستدخل في الخدمة صباح غد الأحد؛ فقد أمّل باضافته ألفاً وخمسمئة فرنك الى الألفين وخمسمئة المدفوعة أن يتحنّن المصنعون ويسلموه العربة، لكنه صرخ عالياً بعد ثلاث دقائق من التأمُّل: «كلا، إنهم كلاب خلّص! إنّهم أغلال خانقة حقيقية».

ثم خطرت في ذهنه فكرة جديدة فقال في نفسه:

«لكن لو أتوجه الى السيد مورو، وكيل الأعمال في بريسل؟ فهذا الرجل الطيب قد يقرضني المبلغ لقاء كمبيالة لمدة ستة أشهر».

في تلك اللحظة جاء خادم دون كسوة رسمية وهو يحمل حقيبة من جلد، وافداً من مكتب سفريات توشار، حيث لم يجد مكاناً لسيده من أجل الذهاب الى شامبلي في الساعة الواحدة بعد الظهر، وسأل صاحب العربة: «أنت السيد بييروتن؟

- ماذا تريد؟

- إن استطعت الانتظار ربع ساعة لأخذ سيدي، وإلا فما عليّ إلا اعادة هذه الحقيبة والسعي لتأمين عربة خاصة من الساحة.

قال بييروتن وهو يرمق الحقيبة الصغيرة الجميلة من الجلد المغلقة بقفل من نحاس ذي شعار: بل سأنتظر نصف وحتى ثلاثة أرباع الساعة، وزيادة ياولدي.

قال الخادم وهو يزيح الحقيبة عن كتفه: حَسَن- هو ذا متاع سيدي.

تناول بييروتن الحقيبة فرفعها، ورازها، ونظر اليها، ثم ناولها الى ساعيه قائلاً:

خذ، غلّفها جيداً بالقش الناعم وضعها في الصندوق الخلفي- ثم أضاف:

خذ، غلّفها جيداً بالقش الناعم وضعها في الصندوق الخلفي - ثم أضاف:
ولكن، لاأجد أي اسم عليها؟
أجاب الخادم: لكن عليها شعار نبالة سيدي.
قال بييروتن وهو يغمز ويشير الى مقهى الإشيكيه: أليس لدى سيدك من الذهب غير هذا؟ تعال اذاً وتناول كأساً معي» وقاد الخادم الى المقهى.
قال بييروتن بعد أن طلب كأسي أبسنت ورفع كأسه نخباً للخادم: «ولكن من يكون سيّدك، والى أين سيذهب، فأنا لم أرك قبل اليوم؟
قال الخادم: توجد أسباب وجيهة لذلك، فسيدي لايتوجّه إلا مرّة في السنة الى منطقتكم، وهو يذهب دائماً في عربته الخاصة. إنّما يفضل وادي أورج، حيث لديه أجمل متنزه في جوار باريس، واقطاعة عائلته التي تحمل اسمه: فرساي حقيقية.
هل تعرف السيد مورو؟
قال بييروتن: وكيل الأعمال في برسل؟
- هو بالذات، فسيدي ذاهب لقضاء يومين لديه في برسل.
هتف صاحب العربة: إذن فإنني أقل الكونت دي سريزي.
- هو بالذات. لكن، حذار، فهناك تعليمات يجب التقيد بها.
اذا كان في عربتك أشخاص من أبناء المنطقة فلا تلفظ اسم السيد الكونت، فهو يريد السفر متخفياً، وطلب مني تنبيهك الى ذلك لقاء مكافأة جيدة.
- آه! أيكون لهذه الرحلة في الخفاء علاقة من قبيل الصدفة بالمشروع الذي جاء الأب ليجه المزارع في مولينو لإنجازه؟
ردّ الخادم: لاأعلم، لكن الشعلة تلتهب، فقد ذهبت البارحة مساء لإعطاء الأمر لقيّم الاسطبل لتجهيز العربة في السابعة صباحاً مع حوذي مساعد للذهاب الى بريسل لكن سيادة الكونت ألغى الأمر في الساعة السابعة، ويرجح أوغوستن وصيف سيدي هذا التغيير لزيارة سيّدة يبدو من مظهرها أنها من أهل المنطقة.

- هل قيل شيء يتعلّق بالسيد مورو أطيب رجال المنطقة وأشرفهم، ملك الرجال، ماذا! كان بامكانه أن يربح أضعاف مالديه لو أراد، هيا! . .

قال الخادم بلهجة الحكيم: اذاً فهو على خطأ!

سأل بييروتن بعد توقف لحظة: هل ينوي السيد دي سريزي السكن في بريسل أخيراً؟ اذ أصلح القصر، وأثث وهل صحيح أنه أنفق على ذلك؛ مئتي ألف فرنك؟

- «لو كنا نعلم أنا وأنت، ماأنفقنا زيادة، لغدونا بورجوازيين. ولو ذهبت الكونتة الى القصر، آه! عجباً! لما حصل آل مورو على رفاهيتهم» أضاف الخادم بلهجة غامضة.

ردّ بييروتن الذي كان يرجو دائماً أن يطلب الألف فرنك اللازمة له من الوكيل: كم هو نشيط السيد مورو، وكم يسيِّر الأعمال دون أن يساوم كثيراً، ويستغل الأرض من أجل سيّده أيضاً! ياللرجل الطيّب! إنّه يأتي غالباً الى باريس، وهو يستقلّ دائماً عربتي، ويمنحني دائماً مكافأة جيّدة. ويرسل العديد من هداياه لكم الى باريس. ثلاث أو أربع رزُم ترسل يومياً سواء للسيد أو للسيدة. أخيراً فإن أجور ارسالياته فقط تبلغ خمسين فرنكاً في الشهر، واذا كانت السيدة مورو تتعالى قليلاً فإنها تحبُّ جيداً أولادها. فأنا من يذهب بهم الى المدرسة ويعود بهم الى البيت، وهي تعطيني في كل مرّة مئة فلس، وما من سيّدة كبيرة تسخو بأكثر من ذلك. أوه! في كلّ مرة يسافر أحد من قبلهم أو يأتيهم أحد فإنني أندفع بعربتي حتى بوّابة القصر. . . اذ يجب ذلك، أليس صحيحاً؟

قال الخادم: يقال إن السيد مورو لم يكن يملك أكثر من ألف إكو عندما سلمه السيد الكونت وكالة أعماله في بريسل.

- عقَّب بييروتن: ولكن منذ العام ١٨٠٦ وخلال سبعة عشر عاماً يمكن لهذا الرجل أن ينتج شيئاً.

- قال الخادم وهو يهزّ رأسه: هذا صحيح، وبعد، فالمعلمون غريبون جداً، وآمل أن يكون مورو قد حصل على زبدة من عمله.

- قال بييروتن: ذهبت غالباً الى قصركم في شارع شوسه دانتن لكنني لم أتشرف أبداً برؤية السيّد الكونت أو السيدة.

قال الخادم مسارّة: إنّ السيد الكونت رجل طيب وهو إن طلب كتمانك لتأمين سفره متخفياً، فيجب أن تكون هناك مشكلة ما. على الأقل، هذا مانفكر به في القصر، إذ لماذا يلغي تهيئة عربته؟ ولماذا يسافر في عربة كوكو؟ أليس لعين من أعيان فرنسة القدرة على استئجار عربة مع حوذي خاص.

قال بييروتن: مثل هذه العربة ستطلب أجرة الذهاب والاياب أربعين فرنكاً، اذ يجب أن تعلم أن هذه الطريق إن كنت لاتعرفها قد أعدت للسناجب. أوه! صعود ونزول باستمرار. والبورجوازي أو العين الفرنسي؛ كل انسان حريص على نقوده! وإن كانت هذه الرحلة تتعلق بالسيد مورو... ياالهي، سأستاء كثيراً، إن أصابه مكروه! ألا يمكن ايجاد وسيلة لتحذيره؟ إذ أنه رجل طيب، رجل طيب كامل، ملك الرجال، ماذا!...

- قال الخادم: باه! إن السيد الكونت يحب كثيراً السيد مورو. لكن، إن أردت أن أقدم لك نصيحة طيبة: فليهتم كل انسان بنفسه. وهذا عمل كاف لكل واحد منا. فاعمل كما طلب منك، وبالأحرى بشكل لايستخفّ بسيادته. وخلاصة القول: إن الكونت سخي جداً. فإن خدمته بهذا- وأشار الخادم الى ظفر أحد أصابعه- فإنه سيقابل خدمتك هكذا- ومدّ الخادم ذراعه بكاملها.

كان من نتيجة هذه الملاحظة الحصيفة، وبصورة خاصة الصورة، وهما واردتان من رجل في موقع الرجل الثاني بعد وصيف الكونت دي سريزي، أن خففت من حماس بييروتن لوكيل أرض بريسل.

قال الخادم: «هيّا، وداعاً ياسيد بييروتن».

من الضروري أن نلقي نظرة سريعة على حياة الكونت دي سريزي، وحياة وكيل أعماله، لفهم المأساة الصغيرة التي ستحدث في عربة السيد بييروتن.

كان السيد هوغره دي سريزي سليل عائلة تنتمي مباشرة للرئيس الشهير هوغره الممنوح لقب نبالة من قبل فرانسوا الأول.

كان لمجنّ العائلة عرقية تمتد بين قسميه المذّهب والمرمل، ومعينان بين الواحد والآخر مع العبارة اللاتينية المتخذة كشعار: «ستسير دائماً نحو الأحسن»(١) وهو كالمردنين الحاملين له يبرهن عن تواضع العائلات البورجوازية في زمن كان النظام فيه يأخذ مكانه اللائق في الدولة، وعن سذاجة عاداتنا القديمة في جناس بين كلمات الشعار يمكن من ايجاد اسم عائلة «سريزي»(٢) والأرض التي حولّت الى اقطاعة كونتية.

كان والد الكونت رئيساً أولاً للمحكمة العليا قبل الثورة، أما الكونت فغدا مستشاراً للدولة في المجلس الاستشاري الأعلى في العام ١٧٨٧، وهو في الثانية والعشرين من العمر، وتميز بما أعطاه من تقارير جيّدة حول قضايا حسّاسة، ولم يهاجر خلال الثورة(٣)، بل اعتزل في أرض سريزي قرب أرباجون حيث حمته سمعة والده الطيبة من كل أذى، وبعد أن قضى عدة سنوات يعني بوالده

---

(١) I. SEMPER MELIUS ERIS

(٢) تم هذا الجناس بأخذ حرف S من نهاية MELIUS واضافة الى ERIS ووضع I الأولى في النهاية مما يشكل SERISI

(٣) كان سريزي ينتمي الى نبالة «الثوب أو الوظيفة» أي النبلاء من كبار موظفي القضاء والادارة في الدولة الذين منحوا اللقب لاخلاصهم للدولة والملك بخلاف نبلاء الاقطاع والدم وهم «الأصلاء» المتطرفون الذين طالتهم الثورة، ولوحقوا وهاجروا بينما بقي معظم نبلاء الثوب وأبدوا استعدادهم لخدمة النظام الجديد.

الشيخ رئيس المحكمة السابق، الذي توفي في العام ١٧٩٤ ، انتخب الكونت عقب ذلك عضواً في مجلس الخمسمئة الاستشاري ومارس أعماله الاستشارية بإخلاص تخفيفاً لألمه، وفي الثامن عشر من برومير (٩ تشرين الثاني ١٧٩٩) غدا السيد دي سريزي كجميع أبناء العائلات البرلمانية القديمة مقرباً من نابوليون القنصل الأول الذي عينه في مجلس الدولة، وسلّمه احدى الادارات الأكثر تشوّشاً لإعادة تنظيمها، وهكذا غدا سليل تلك العائلة التاريخية أحد العناصر الأكثر نشاطاً في التنظيم الاداري الكبير الرائع الذي وضعه نابوليون وسرعان ما انتقل مستشار الدولة من ادارته الى وزارة، وسمي كونتا وسناتوراً من قبل الامبراطور، وشغل على التعاقب منصب الحاكم في عهدين مختلفين. وفي العام ١٨٠٦ . وكان قد بلغ الأربعين من العمر، تزوّج السناتور أخت المركيز السابق دي رونكرول، وهي أرملة شابة في العشرين من العمر ووريثة زوجها السابق غوبير أحد أشهر القادة الجمهوريين السابقين[1] ، هذا الزواج الملائم من ناحية النبالة ضاعف ثروة الكونت دي سريزي على ضخامتها، وبه غدا أيضاً نسيباً للمركيز السابق دي روفر المسمى كونتاً وحاجباً للامبراطور.

وفي العام ١٨١٤ ، تعب دي سريزي من الأعمال المتواصلة، وتطلبت صحته المنهارة استراحة فاستقال من جميع مسؤولياته، وترك الحكومة التي كان الامبراطور قد وضعه على رأسها وحضر الى باريس، وأمام بداهة حالته، وافق له الامبراطور على استقالته، وكان هذا المعلم، الذي لايعرف التعب، يعتقد أن الآخرين يجب ألا يصابوا به، فخيل اليه أولاً أن تصرف الكونت ناتج عن تخل عن الواجب. وبالرغم من أن السناتور لم يفقد حظوته أبداً، فقد اعتبر ممن تذمّروا من نابوليون، وهكذا فعندما عاد آل بوربون حظي السناتور بثقة كبيرة من لويس

---

(١) مثال جيد عن صهر الامبراطورية لمختلف الطبقات وقد تعرّض بلزاك لأول مرة لهذا الموضوع في العام ١٨٢٢ في قصة المعمر المئوي. وغوبير شخصية خيالية رغم الصفة التي أعطاه اياها بلزاك المحبّ للغمة العالم الحقيقي بعالمه الخيالي.

الثامن عشر بعد أن اعترف به السيد دي سريزي ملكاً شرعياً، وكلّفه الملك ببعض الأعمال الخاصة، وسماه وزير دولة. وفي ٢٠ آذار[1] لم يذهب السيد سريزي مع الذاهبين الى غان، وأخطر نابوليون أنه سيبقى أميناً لآل بوربون، ولم يرض أبداً بمنصب العين خلال حكم المئة يوم، وقضى طيلة تلك الفترة القصيرة في مزرعته في سريزي، وبعد السقوط الثاني للامبراطور غدا بشكل طبيعي عضو المجلس الاستشاري الخاص وسمي نائباً لرئيس مجلس الدولة، ومصفياً من طرف فرنسة في تنظيم التعويضات المطلوبة من قبل القوى الأجنبية. ودون أي زهو شخصي، حتى ودون طموح، كان يمتلك تأثيراً كبيراً في القضايا العامة، فلايُبتُّ بأية قضية هامة في السياسة دون أن يستشار، لكنه لم يكن يذهب أبداً الى البلاط، بل ولايظهر إلا قليلاً في صالوناته الخاصة. فهذا الشخص النبيل المنصرف أولاً الى العمل انتهى بأن غدا عملاً متواصلاً. فالكونت ينهض في الساعة الرابعة صباحاً في جميع الفصول، ويعمل حتى الظهر متفرغاً لمهامه كعضو في مجلس الأعيان أو كنائب رئيس لمجلس الدولة. وقد سمّاه الملك، اعترافاً بتقديره لجميع هذه الأعمال فارساً من خاصته. وكان السيد دي سريزي يحمل منذ مدة طويلة وسام جوقة الشرف من الدرجة الأولى، ووسام الجزّة الذهبية، ووسام سان آندره من روسية، ووسام النسر من بروسية، أخيراً جميع أوسمة البلاطات الأوروبية تقريباً. مامن شخص أقل ظهوراً منه وأكثر فائدة في عالم السياسة؛ وهذا مايوضح أن الأمجاد، ولغط الشهرة، وتحقيق النجاحات في المجتمع لم تكن لتثير اهتمام رجل هذه طبيعته، إنّما مامن شخص، باستثناء الكهنة، يصل الى مثل هذه الحياة دون أسباب هامة، ولهذا السلوك الغريب سببه، وسببه القاسي.

---

(١) ٢٠ آذار ١٨١٥ يوم دخول نابوليون الى باريس عائداً من جزيرة إلبا وبدء حكم المئة يوم، وقد رحل لويس الثامن عشر مع حكومته وأنصاره الى غان في بلجيكة قبل وصول نابوليون.

كان الكونت مغرماً بامرأته قبل أن يتزوجها، وقد صمد هذا الهوى لديه أمام جميع مساوىء اقترانه الكبيرة بأرملة احتفظت باستقلالها قبل زواجها الثاني وبعده، وزاد تمسكها بحريتها بقدر ماأبدى لها السيد دي سريزي من تسامح الأم حيال ابنها المدلّل؛ وكانت مشاغله الكثيرة مجنًا يصدُّ هموم القلب الدفينة بتلك العناية التي يعرف رجال السياسة احاطة أسرارهم بها، فهو يدرك كم تبدو الغيرة مثيرة للسخرية في أعين الناس الذين لايؤمنون بهيام اداري عتيق بزوجته.

كيف أمكن لزوجته منذ الأيام الأولى لقرانه أن تسلب لبّه؟. كيف تمكن منذ البدء أن يتألم دون أن ينتقم؟ كيف لم يجرؤ أبداً على الانتقام؟ كيف ترك الأيام تمرُّ مسرفاً في الاعتماد على الأمل؟ بأيّ الوسائل تمكنت امرأة شابة، جميلة، فكهة أن تستعبده؟ إن الاجابة على جميع هذه الأسئلة تتطلب سرداً طويلاً يسيء الى موضوع هذا المشهد، ويمكن على الأقل للنساء أن تستشفه إن غفل عنه الرجال.

لنلاحظ مع ذلك أن أعمال الكونت الكثيرة وهمومه قد ساهمت لسوء الحظّ في حرمانه من المزايا الضرورية لرجلٍ لمجابهة مقارنات خطرة[1]؛ كما أن أسوأ مصائب الكونت الخفية كانت في قبوله اشمئزاز امرأته من مرض[2] ألمّ به وهو يعود فقط الى الإفراط في العمل. كان طيباً بل فائق الطيبة تجاه الكونتة فمنحها حرية التصرف، فكانت تستقبل كل باريس، وتذهب الى الريف، وتعود متى شاءت كأنّها ماتزال أرملة، وكان يحرص على ثروتها ويؤمّن لها كل لوازم ترفها، وكأنه مدير أعمالها. وكانت الكونتة تكنُّ أكبر تقدير لزوجها، وتستهويها لفتاته الذهنية البارعة، وتعرف كيف تجعله سعيداً بابداء استحسانها: وهكذا فهي تفعل كل ماتريد بهذا الرجل المسكين بانصرافها ساعة في الحديث اليه. وكان

---

(١) كأن بلزاك هنا يلمح الى أن سريزي (بالرغم من أن له ابن سفاح) قد غدا عاجزاً جنسياً.

(٢) هو علّة جلدية سيرد وصف لها لاحقاً سببت نفور زوجته من ملامسته رغم السبب النبيل الذي نتجت عنه.

الكونت ككبار نبلاء العهود السابقة يحمي جيداً امرأته بحيث أن أي تهاون في ابداء الاحترام لها يعتبره إهانة شخصية له لاتغتفر. وكان هذا الطبع فيه يلقى اعجاب الناس ،ويبين مدى ماتدين به السيدة دي سريزي لزوجها، فأية امرأة أخرى وإن كانت من عائلة نبيلة متميزة كعائلة رونكرول يمكن أن تحسّ في نفسها بالضياع، ومع ذلك كانت الكونتة جاحدة، إنما هذا الجحود المحبّب، فقد كانت بين وقت وآخر تمسح بالبلسم جراح الكونت.

لنعد الآن الى موضوع الرحلة المفاجئة لوزير الدولة وسبب سفره متخفياً.

كان أحد المزارعين الأغنياء، المسمى ليجه من بومون- سور- واز يستثمر مزرعة تنحصر جميع أقسامها بين أراضي الكونت وتشوّه جمال ملكيته في برسل. وكانت هذه المزرعة تعود الى ملكية بورجوازي من بومون اسمه مارغرون، وقد أجّرها لليجه في العام ١٧٩٩ في فترة لم يكن يتوقّع فيها للزراعة مثل ذلك الازدهار، وقد أوشكت الآن مدة الايجار على الانتهاء، ورفض المالك عروض ليجه من أجل عقد ايجار جديد، وكان السيد دي سريزي يتمنى أن يتخلص من محاذير تداخل الملكية ومنازعاتها، وتولّد لديه الأمل بشراء هذه المزرعة عندما علم أن كل طموح السيد دي مارغرون ينحصر في نقل ابنه الوحيد، الجابي البسيط آنئذ، الى وظيفة محصّل خاص للمالية في سنليس.

وقد بيّن مورو لسيّده وجود منافس خطير له متمثل في شخص الأب ليجه، فهذا المزارع يعرف مدى السعر الغالي الذي يمكن أن يأخذه ببيع أراضي المزرعة قطعة قطعة للكونت، وهو قادر على بذل بعض المال في سبيل تجاوز ميزة وظيفة التحصيل الخاص المقدّمة لابن مارغرون؛ وكان الكونت في رغبته العاجلة بالانتهاء من هذه القضية قد استدعى موثّقه الكسندر كروتا ومحاميه المفوّض درڤيل[1] لدراسة ملابساتها، وبالرغم من أن درفيل وكروتا قد ارتابا في حميّة

---

(١) يعتبر درفيل منذ قصة «الكولونيل شابير» (١٨٣٢) المحامي المفوض للشخصيات الكبرى في الملهاة الانسانية.

الوكيل، اذ أن رسالة مقلقة حرّضت تلك الريبة، لكن الكونت دافع عن مورو مشيراً الى اخلاصه في خدمته منذ سبعة عشر عاماً.

ورد درفيل: «اذاً، فأنا أنصح سيادتكم بالذهاب شخصياً الى برسل، ودعوة هذا السيد مارغرون الى العشاء، وسيرسل كروتا كاتبه الأول مزوّداً بعقد بيع جاهز، على أن تترك الصفحات أو الأسطر الضرورية لتحديد الأرض، أو أسناد الملكية بيضاء؛ أخيراً يجب أن تتزوّد بقسم من المبلغ المقدّر لشراء الأرض جاهزاً بشكل سند على المصرف، ولاتنس تسمية الابن كمحصّل في بومون؟ واذا لم تنه الموضوع في تلك الأمسية فإن المزرعة ستفلت من يدك! اذ أنك تجهل، ياسيدي الكونت، مكر الفلاحين ففي منافسة بين فلاح ودبلوماسي، فإن الخاسر هو الدبلوماسي»[1]. أيدّ كروتا هذا الرأي، واعتمده الكونت عضو مجلس الأعيان الفرنسي؛ كما تبين من مسارّة الخادم مع بييروتن، وأرسل مع عربة بومون رسالة لمورو يطلب فيها منه أن يدعو مارغرون الى العشاء لإنهاء قضية مولينو؛ وكان الكونت قبل ذلكِ قد أمر بترميم الأجنحةالسكنية في برسل وكلّف المهندس المعماري السيّد غرندو[2]، منذ نحو سنة، بالتوجه أسبوعياً الى المنطقة للاشراف على الزخرفة. والحال أن السيد دي سريزي أراد الى جانب ابرام عقد تملك المزرعة أن يطلع على الأعمال التي تمت في الأجنحة ووضعها، فهو راغب في اعداد مفاجأة سارّة لزوجته باصطحابها الى برسل بعد ترميم القصر العزيز على نفسه، لكن أي حدث جعل الكونت، المزمع في العشية على السفر الى برسل علانية، يعدل عن ذلك ويسافر في عربة بييروتن متنكراً.

هنا يغدو من الضروري التعرّض ببعض الكلمات لحياة الوكيل.

---

(١) هذا الرأي سيفصله بلزاك بعد ذلك في رواية طويلة هي «الفلاحون» التي ظهرت بعد هذه القصة في العام ١٨٤٤.

(٢) اعتبر غرندو منذ رواية «سيزار بيروتو» في العام ١٨٣٧ المهندس المعماري المزخرف في الملهاة الانسانية.

كان مورو وكيل الأرض في برسل ابن معتمد اقليمي غدا بعد الثورة معتمداً نقابياً في فرساي، وبهذه الصفة تمكّن مورو الأب الى حدّ ما، من انقاذ أملاك النبيل دي سريزي وحياته وحياة ابنه. وكان المواطن مورو هذا ينتمي الى حزب دانتون، فلاحقه روبسبيير الشرس في أحقاده، وانتهى الى الكشف عن مكانه، واعدامه في فرساي، وشارك مورو الابن، وريث مبادىء أبيه وصداقاته، في احدى هذه المؤامرات التي جرت ضد القنصل الأول عند توليه السلطة؛ وحرص السيّد دي سريزي على أن يردّ الجميل آنذاك لتلك العائلة، فعمد الى مساعدة مورو، المحكوم عليه بالموت، وأنقذه في الوقت المناسب، ثم طلب له العفو في العام ١٨٠٤، وحصل عليه، وألحقه بإحدى الوظائف في مكتبه، وفي النهاية اعتمده سكرتيراً له وكلّفه بادارة شؤونه الخاصة؛ وبعد فترة من زواج الكونت، وقع مورو في غرام وصيفة الكونتة وتزوّجها. ولتفادي محاذير الوضع الحرج الناتج عن هذا القران- رغم وجود العديد من أمثاله في البلاط الامبراطوري- طلب أن يكلّفه الكونت بادارة أملاكه في برسل حيث يمكن لزوجته أن تكون سيّدة دون أن تحسّ أو يحسّ بالمذلة من وضعها السابق كوصيفة. وكان الكونت بحاجة الى رجل مخلص يكلُ اليه برسل، لأن زوجته فضّلت الاقامة في سريزي التي تقع على بعد خمسة فراسخ فقط من باريس؛ وكان مورو يمسك منذ ثلاث أو أربع سنوات بمفتاح ادارة أملاكه بذكاء اذ أنه خبر المماحكة قبل الثورة في مكتب أبيه، وقال له دي سريزي عند ذاك: «لقد قطعت على نفسك طريق الوصول الى الثروة، لكنك ستحيا بسعادة، اذ أنني سأتكفل بتأمين رفاهيتك» والواقع أن الكونت منحه تعويضاً سنوياً ثابتاً مقداره ألف إكو، وأسكنه في جناح جميل من ملحقات القصر ومنحه حق اقتطاع الحطب اللازم لتدفئته من غاباته والاحتفاظ بالعلف اللازم من شوفان وتبن لحصانين يقتنيهما، وخصّه بنسبة معينة من كل نوع من الغلال تنتجه أراضيه؛ وهكذا فما من مدير منطقة كان يتمتع بمثل هذه الميزات؛ وخلال السنوات الثمانية الأولى من تكليفه، أدار مورو برسل بنزاهة، بعد أن أثارت فيه كل الاهتمام، واقتصرت زيارات

الكونت على معاينة المنطقة وتقرير الملكيات أو الموافقة على الأعمال، ولفتت انتباهه أمانة مورو، فأجزل له الاكراميات معبراً عن رضاه عنه. لكن عندما رأى مورو نفسه والداً لطفلة هي ثالثة أولاده، توطّد بكامل رفاهيته في برسل وتصرَّف دون العودة الى السيد دي سريزي منتهزاً بعض الفرص الخارجة عن المألوف. وهكذا ففي العام ١٨١٦ وبعد فترة من الزمن اقتصر فيها الوكيل على رواتبه ومستلزمات عيشه اللائق، ارتضى بكل طيبة خاطر أن يقبض من تاجر أخشاب مبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك لانجاز عقد استثمار حراج تعود الى أراضي برسل لمدة اثني عشر عاماً وتعلّل مورو وجدانياً بعدم تحديد راتب تقاعدي له، وبأنه غدا رب عائلة، وقد مضت عليه عشر سنوات في ادارة أملاك الكونت فهو يستحق هذا المبلغ كتعويض عنها؛ ومن ثم فهو يملك شرعاً ستين ألف فرنك من مدّخراته. وقد أمكنه بعد أن ضمَّ اليها المبلغ المذكور أن يشتري مزرعة بقيمة مئة وعشرين ألف فرنك في منطقة شامباني؛ وهي ناحية تقع قرب ليل آدم على الضفة اليمنى لنهر الواز، وقد حالت الأحداث السياسية دون أن يعرف الكونت وأبناء المنطقة هذه الصفقة التي تمت باسم السيدة مورو التي ادعت بأنها ورثت مبلغاً من المال عن عمّة لأبيها في موطنها الأول في سان لو، وبقيت سمعة الوكيل دائماً الأكثر نقاء في العالم ظاهرياً، لكن ما أن ذاق ثمرة الملكية العذبة حتى راح ينتهز كل فرصة تسنح له لزيادة ثروته الخفية؛ واستخدم مصلحة أولاده الثلاثة كمُهدّىء يُخمد جذوات استقامته، ومع ذلك يجب الاعتراف له بأنه إن ارتضى الرشوة، وفتش عن مصلحته في إتمام الصفقات، وغالى في حقوقه حتى التعسف، فإنه بقي وفقاً لمصطلحات القانون رجلاً شريفاً، ومامن بيّنة تبرّر أية تهمة توجه اليه؛ فهو وفقاً لفتوى أقلّ طاهيات باريس اختلاساً يتقاسم مع الكونت المنافع الناتجة عن مهارته، وهذه الطريقة في زيادة ثروته ماهي إلا نوع من الوسواس؛ هذا كلّ شيء. ومورو المكدّ النشيط يعي جيداً مصالح الكونت، ويترصد بعناية تامة الفرص للحصول على مكتسبات جيدة ينال من خلالها دائماً هبات عريضة. وبرسل تدر اثنين وسبعين ألف فرنك نقداً، وهكذا فالتعبير

الشائع في المنطقة وضمن دائرة تمتد الى مسافة عشر فراسخ هو: «إن السيّد دي سريزي وجد في مورو بديلاً مطابقاً له تماماً!». وكان مورو، وهو الرجل الحريص، يضع أرباحه ورواتبه في السجل الكبير لديون الدولة، وهو يزيد من أمواله بمنتهى السرية. وقد رفض صفقات خاصة مدعياً أن لا مال لديه، وادعى الفقر أمام الكونت بحيث حصل له على منحتين دراسيتين لولديه في كلية هنري الرابع[1]. وكان مورو يمتلك في تلك الفترة مئة وعشرين ألف فرنك وضعت في الثلث المدعم الذي غدا سعر فائدته خمسة بالمئة، وقيمة سنده في ذلك الوقت ثمانين فرنكاً[2]. فهذه المئة وعشرين ألف فرنك الخفية، ومزرعته في شامباني التي زيدت بامتلاكات أخرى، ترفع ثروته الى مئتين وثمانين ألف فرنك تدرّ عليه دخلاً سنوياً مقداره ستة عشر ألف فرنك. هذا هو وضع الوكيل في الفترة التي أراد فيها الكونت أن يشتري مزرعة مولينو التي يعتبر امتلاكها ضرورياً لطمأنينته. فتلك المزرعة تقوم على ست وتسعين قطعة أرض تحيط بأراضي برسل وتجاورها وتمتد على طولها وهي تتداخل معها كأنها مربعات لعبة ضامة، عدا عن السياجات المتوسطة، والحفر الفاصلة، التي تتولد عنها منازعات مملّة بخصوص شجرة تقتضي الضرورة قطعها ولا يُعرف الى أية ملكية تعود، ولو أن مالكاً آخر غير وزير الدولة يجاور مولينو لتعرّض لعشرين دعوى تنتج عن ذلك الجوار. ولم يكن الأب ليجه يريد شراءها إلا ليعيد بيعها للكونت، وليتوصّل بشكل أكيد الى ربح الثلاثين أو الأربعين ألف فرنك، المؤمَّلة من تلك الصفقة، جرّب المزارع منذ زمن أن يتفاهم مع مورو، ودفعته الظروف قبل ثلاثة أيام من ذلك السبت الحرج الى التصريح للوكيل بشكل واضح أن بإمكانه أن يهيء لدراهم الكونت دي سريزي عروض أراض ملائمة بربح صاف مقداره اثنان ونصف بالمئة، أي أن يظهر دائماً حريصاً على مصلحة معلمه، مؤمّناً لنفسه ربحاً

(١) هي كلية المجتمع الراقي، وقد كان فيها ابن لويس فيليب زميل دراسة لألفرد دي موسيه.

(٢) هو الثلث الذي منح ثلث القيمة التي كانت له في العام ١٧٩٧، وقيمة سنده وفائدته صحيحان وفقاً لما ذكره بلزاك في العام ١٨٢٢.

خفياً مقداره نحو أربعين ألف فرنك. وهذا مادفع الوكيل للقول مساء لزوجته قبل خلوده الى النوم:

«يقيناً، إن تمكنت أن أسحب من صفقة مولينو خمسين ألف فرنك لأن السيد الكونت سيمنحني بانهائها اكرامية عشرة آلاف فرنك، فإننا سننتقل الى دارة نوجَن في ليل- آدم». كانت تلك الدارة ملكية جذابة بناها أمير كونتي لاحدى السيدات وأسرف في اتقانها. أجابت الزوجة: «كم يعجبني ذلك فالهولندي الذي يسكنها رمّمها جيداً، وهو مستعد ليتخلّى لنا عنها مقابل ثلاثين ألف فرنك لأنه مضطر للعودة الى الهند».

ردّ مورو: «سنكون على بعد خطوتين من شامباني، وآمل أن أشتري بمئة ألف فرنك المزرعة وطاحون مور. وسنحصل بذلك على دخل سنوي يقدّر بعشرة آلاف فرنك من الأرض، وعلى أحد أجمل منازل الوادي على مقربة من أملاكنا، ويبقى لنا دخل ستة آلاف فرنك من سندات السجل الكبير.

- لكن لماذا لاتطلب أن تعيّن قاضي صلح في ليل آدم؟ فهذا يوطد نفوذنا فيها، ويزيد دخلنا ألفا وخمسمئة فرنك.

- أوه! فكرت جيداً بذلك».

ضمن هذه الأوضاع، وبإعلامه عن رغبة سيّده بالمجيء الى برسل وطلبه منه دعوة مارغرون الى العشاء مساء السبت؛ عجَّل مورو بتوجيه رسالة عاجلة للكونت سلّمت لوصيفه في ساعة متأخرة من المساء بحيث لم يتح للكونت الاطلاع عليها، وقد وضعها أوغوستن وفق عادته في مثل تلك الأحوال على مكتب سيده. وفي هذه الرسالة يرجو مورو الكونت عدم تكبد مشقة السفر والاعتماد على اندفاعه واهتمامه بهذه الصفقة، وفي رأيه أن مارغرون، لايريد البيع دفعة واحدة، وهو يتحدّث عن تقسيم مولينو الى ست وتسعين قطعة، ويجب إقناعه بالتخلي عن هذه الفكرة، وربما، والقول دائماً للوكيل، يجب اللجوء الى طرف وسيط مسخّر.

مامن انسان إلا وله أعداء، والحال أن الوكيل وزوجته قد أغضبا في برسل ضابطاً متقاعداً اسمه السيّد ريبر وزوجته؛ ومن النميمة الى المعاكسة الى شجار كاد أن يُلجأ فيه الى الخناجر، مما جعل السيد دي ريبر يتطلّع الى الانتقام والعمل على ازاحة مورو عن وكالة الكونت والحلول محله فيها. وغدت هاتان الفكرتان متلازمتين في ذهن الضابط كتوأمين، وراح يتحرّى سلوك الوكيل بحيث تمكن أن يعرف مع زوجته خلال سنتين جميع أسراره؛ وفي ذات الوقت الذي وجّه فيه مورو رسالته العاجلة الى الكونت دي سريزي أرسل دي ريبر زوجته الى باريس، وأمام الحاحها على رؤية الكونت عند وصولها في الساعة التاسعة مساء، وهي ساعة توجّه الكونت الى غرفة نومه، طلب منها المجيء في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، وتوجّهت آنئذ الى وزير الدولة بالقول:

«ياصاحب السعادة، إنني وزوجي عاجزان عن كتابة رسائل مغفله، فأنا السيّدة دي ريبر ابنة دي كوروا؛ وليس لزوجي إلا تقاعده الذي لايتعدّى ستمئة فرنك، ونحن نعيش في برسل حيث يوجه لنا وكيلك الاهانة تلو الأخرى، رغم أننا أناس شرفاء، فالسيد دي ريبر ليس دسّاساً، وهيهات أن يلجأ الى ذلك! فقد تقاعد نقيباً في المدفعية، العام ١٨١٦، بعد أن خدم في الجيش عشرين سنة، وهو بعيد دائماً عن الامبراطور، ياسيدي الكونت! وأنت تعلم مدى الصعوبة التي يعانيها العسكريون البعيدون عن أعين المعلم في الترقي، عدا عن أن استقامة السيد دي ريبر وصراحته لم ترق لرؤسائه. ومافتىء زوجي منذ ثلاث سنوات يتابع تصرفات وكيلك بهدف ازاحته عن مكانه. فنحن كما ترى، صريحون؛ فمورو قد جعل منا أعداء له فقمنا بمراقبته؛ وقد جئت لأنبئك بأنك خدعت في صفقة مولينو، اذ يراد اختلاس مئة ألف فرنك يتمّ تقاسمها بين الموثِق وليجه ومورو. لقد طلبت دعوة مارغرون، وعزمت على السفر غداً الى برسل، لكن مارغرون سيّدعي المرض، وليجه مصمم على امتلاك المزرعة وقد حضر الى باريس ليؤمن ثمنها. وإن كنا قد عمدنا الى مكاشفتك بهذا الأمر، فرغبة منا في أن تعتمد على زوجي كوكيل نزيه لك، فهو رغم لقبه النبيل سيخدمك كما خدم

الدولة؛ ووكيلك يمتلك مئتين وخمسين ألف فرنك الآن، فليس له مايشكو منه».

شكر الكونت السيّدة دي ريبر ببرود، وقد كاد يزمع أن يصرفها ساخراً لأنه يزدري النميمة، لكنه تذكر جميع شكوك درفيل فداخلته الريبة، ولاحظ فجأة رسالة وكيله وقرأها؛ ومن خلال تأكيده على التفاني، ومن خلال المآخذ الرصينة التي تلقاها وولدت لديه الارتياب الذي نشأ عن تلك الرغبة التي أبداها الوكيل بمعالجة هذه الصفقة شخصياً من قبله، خمّن حقيقة مورو، وقال في نفسه: «إن الفساد يأتي مع الثروة، كما هو الأمر دائماً!». طرح الكونت عند ذلك على السيّدة دي ريبر بعض الأسئلة، الهدف منها أن يعطي لنفسه الوقت لملاحظتها، لاأن يحصل على تفاصيل لايرغب بها؛ ثم كتب لموثّقه كلمة يطلب منه فيها ألا يرسل كاتبه الأول الى برسل، بل أن يحضر هو بنفسه الى حفل العشاء. أنهت السيدة دي ريبر تصريحها بالقول: «إن كان سيدي الكونت قد حكم سلباً على المسعى الذي سمحت لنفسي بالقيام به دون علم السيد دي ريبر، فإنني أعتقد أنه مقتنع الآن بأننا حصلنا على هذه المعلومات عن وكيله بطريقة طبيعية تماماً: والضمير الأكثر ورعاً لن يجد فيها أي مطعن». كانت السيدة دي ريبر، ابنة دي كوروا منتصبة كالوتد تبدي لتقصيّات الكونت السريعة وجهاً ثقّبته الجدري كالمصفاة، وقامة مسطحة معروقة، وعينين متوقدتين صافيتين، وخصلات شعر شقراء تلتف حلقات فوق جبين قلق، وقبعة من التفتة الخضراء الحائلة اللون المبطنة بقماش وردي، وثوباً أبيض منقطاً بدوائر صغيرة بنفسجية، وحذاء من جلد. وعرف فيها الكونت زوجة نقيب فقير، امرأة متحمسه مشتركة في «صحيفة الأخبار الفرنسية»[1] تتوقّد بالفضيلة، لكنها تتوق الى رفاهية مركز مرموق تتمناه وتسعى اليه.

(١) Courrier Franeais صحيفة فرنسية تحرّرية معتدلة- تأسست في العام ١٨١٩، وكان ينشطها بنجامن كونستان.

أجاب الكونت وكأنه يتحدّث مع نفسه، بدلاً من أن يردّ على ماأدلت به السيدة دي ريبر:

«تقولين تقاعد ستمئة فرنك؟

- نعم ياسيدي الكونت.

- وأنتِ من عائلة دي كورروا؟

- نعم ياسيدي، عائلة نبيلة من منطقة الموزيل، وهي منطقة زوجي أيضاً.

- في أي فوج خدم السيد دي ريبر؟

- في فوج المدفعية السابع.

- أجاب الكونت وهو يسجل رقم الفوج: حسنٌ»

كان يفكر بتسليم ادارة أملاكه الى ضابط قديم[1]، يمكنه أن يستقي من وزارة الحرب أدق المعلومات عنه.

تابع وهو يقرع الجرس لوصيفه: «عودي أيتها السيّدة، الى برسل بصحبة موثق عقودي، وهوذا عنوانه، وسيجد وسيلة للحضور الى العشاء، وقد كتبت له أوصيه بك، وسأذهب بدوري خفية الى برسل، وسأرسل في طلب السيّد دي ريبر لمقابلتي..»، وهكذا فإنّ خبر سفر الكونت دي سريزي في العربة العامة، والتوصية بالتكتم على اسمه، لم يقلقا عبثاً السيد بييروتن، اذ أحسَّ بالكارثة توشك أن تحلّ بأحد أفضل زبائنه.

لاحظ بييروتن عند خروجه من مقهى «الإشيكيه» على باب فندق الأسد الفضي، المرأة والفتى، وتعرف فيهما بحسّه النافذ، على زبونين له، فقد كانت المرأة بوجهها القلق وعنقها الممدود تبحث عنه بداهة. كانت تلك المرأة ترتدي

---

(١) تميز الضباط القدماء بدقة التنظيم وحسن الادارة لذلك كان يُرغب باستخدامهم بعد انهيار الامبراطورية.

ثوباً من حرير أسود أعيد صباغه، وقبعة رمادية غامقة، ووشاح كشمير فرنسي، قديم، وجوارب من مشاقة الحرير، وتنتعل حذاء من جلد الماعز، وتحمل في يدها سلة من قش، ومظلة زرقاء اللون. وهي تبدو محافظة على جمالها السابق رغم أنها تقارب سن الأربعين؛ لكن عينيها الزرقاوين المجرّدتين من الاشعاع المعبّر عن السعادة تعلنان أنها زهدت منذ زمن بالدنيا. وهكذا فهي في وضعها كما في شكلها تنبىء عن أم انصرفت كلياً الى شؤون بيتها وولدها، واذا كانت أشرطة القبعة تبدو ذاوية. فإنها في قالبها تعود الى أكثر من ثلاث سنوات. أمّا الشال فمنعقد بإبرة مكسورة حولّت الى دبوس بواسطة كريّة من شمع الأختام. وكانت المجهولة تنتظر بنفاد صبر بيبروتن لتعهد اليه بهذا الولد الذي يسافر دون شك لأول مرة منفرداً وهي ترافقه حتى العربة بدافع من الاحتراس والحبّ الأمومي، فهذه الأم متممّة بطريقة ما بولدها، كما أن الولد لايُدرك وضعه تماماً دون أمه، فقفازاها المرتوقان يماثلان في القِدم معطفه الزيتوني بكميّه القصيرين المنبئين بأنه مايزال ينمو كمن هم في سن الثامنة عشر أو التاسعة عشر، وبنطاله الأزرق يبدي للأنظار أساساً جديداً بعد أن رتقته الأم، بينما بلغ من سوء المعطف انشقاقه من الخلف.

كانت تقول لابنها عندما بدا بيبروتن: «لاتدعك قفّازيك هكذا فأنت تزيد بذلك من اهترائهما ثم التفتت قائلة: أأنت سائق العربة؟ . . . آه! أهذا أنت يا بيبروتن؟ وتركت ابنها للحظة، وتقدّمت خطوتين لتنتحي ببيبروتن جانباً.

سألها صاحب العربة وقد بدت على محياه مسحة تشير في آن واحد الى الاحترام والألفة: «هل أنت على مايرام ياسيدة كلابار؟

– نعم يابيبروتن اعتن جيداً بولدي أوسكار، فهو يسافر لأول مرة وحيداً.

هتف صاحب العربة وكأنه يعرف فعلاً وجهة سفر الشاب: أوه! أيكون ذاهباً بمفرده لدى السيد مورو؟

– أجابت الأم: نعم، هو كذلك.

تابع بييروتن بمظهر فيه بعض المكر: اذاً فالسيدة مورو ارتضت به.

أجابت الأم: للأسف! لن يكون في هذا أحلام وردية لهذا الفتى المسكين، لكن مستقبله يستلزم حتماً هذه الرحلة».

تأثر بييروتن من هذا الجواب، وتردّد في التعبير عن قلقه على وضع الوكيل للسيّدة كلابار، كما أنّها لم تجرؤ على تسبيب الضرر لابنها بمزيد من التوصيات لبييروتن وكأنّها تعتبر سائق العربة مرشداً له. خلال تلك المداولة المتبادلة التي انتهت ببعض عبارات تتعلّق بالطقس، وحال الطريق، ومحطات السفر، نجد من المفيد أن نبين الروابط القائمة بين بييروتن والسيدة كلابار، والتي سمحت بتبادل هاتين الكلمتين الحميمتين.

ثلاث أو أربع مرآت في الشهر، كان بييروتن يصادف في الكاف، خلال مروره متوجهاً الى باريس، الوكيل مشيراً الى بستاني عند قدوم العربة، فيقوم البستاني بمساعدة بييروتن بتحميل سلّة أو سلتين مملوءة بالثمار والبقول الناتجة في ذلك الفصل عدا عن الفراريج والبيض والزبدة والطرائد. وكان الوكيل يسدّد دائماً أجرة الحمولة لبييروتن مع مبلغ اضافي لتسديد رسم الحاجز إن كانت الإرسالية تقتضي دفع هذا الرسم، ولم تكن هذه السلال، وهذه الرزم. وهذه الطرائد تحمل أي عنوان، وإنّما في المرة الأولى التي بدأت بها تلك الإرساليات، أشار الوكيل مشافهة الى عنوان منزل السيدة كلابار للسائق الكتوم طالباً منه ألا يعهد لأحد غيره بتسليم هذه الإرسالية الخاصة؛ وارتاب بييروتن بمغامرة غرامية بين فتاة جذّابة والوكيل وهو يذهب الى شارع سريزه في حي الأرسنال ويطرق باب المنزل رقم ٧، حيث شاهد لأول مرة السيدة كلابار التي سبق وصفها بدلاً من الشابة الجميلة التي توقع أن تكون الإرسالية موجهة اليها. ومع ذلك، وبعد عدة أشهر، لم يتمكن بييروتن أن يعرف طبيعة العلاقة بين السيدة كلابار والسيد مورو، بناء على مالاحظه في هذا المسكن من شارع سريزه بالرغم

من أن الإيجارات لم تكن غالية في تلك الفترة في حي الأرسنال[1]؛ فالسيدة كلابار تسكن في الطابق الثالث في نهاية فناء منزل كان في السابق قصراً لأحد كبار النبلاء، في الزمن الذي كان فيه نبلاء المملكة يسكنون في الموقع القديم لقصر دي تورنل وقصر سان بول. فنحو نهاية القرن السادس عشر كانت كبار العائلات تتقاسم تلك المساحات الواسعة التي احتلتها سابقاً حدائق قصر ملوكنا؛ كما تشير الى ذلك أسماء شوارع سريزيه، وبوتريي، ودي ليون الخ..

كانت تلك الشقة التي تكتسي جميع غرفها ببطانة خشبية قديمة تتألف من ثلاث غرف متتالية؛ قاعة طعام، وصالة استقبال، وغرفة نوم، وفوقها يوجد مطبخ وغرفة أوسكار، وفي مقابل باب المدخل، وعلى مايسمى في باريس المربّع يُرى باب غرفة مرتدة أعدت في كلّ طابق في نوع من بناء يحوي أيضاً قفص سلّم خشبي، وهو يشكل برجاً مربعاً بُني من حجارة ضخمة. كانت هذه الغرفة هي غرفة مورو عندما ينام في باريس. وقد رأى بيروتن في الغرفة الأولى حيث كان يضع سلة الإرسالية ست كراسي من خشب الجوز ومقعداً من ألياف القش، ومنضدة، وخزانة، وعلى النوافذ ستائر صغيرة بلون أصهب؛ وفيما بعد، عندما دخل الى الصالة، لاحظ فيها أثاثاً قديماً من زمن الامبراطورية لكنه حائل اللون؛ ومع ذلك فلايوجد في تلك الصالة إلا الأثاث الذي فرضه المالك ليستجيب للتأجير؛ واعتبر بيروتن أن أثاث غرفة النوم لن يختلف عن مثيله في الصالة وغرفة الطعام. وبطانة الجدران الخشبية البارزة النقوش بدهان ثخين مصمّغ بلون أبيض محمّر يملأ النتوءات، والرسوم، والتماثيل الصغيرة، هي أبعد ماتكون عن الزينة، وتكدّر النظر؛ والأرضية الخشبية، التي لم تصقل أبداً بالشمع، كانت بلون مسمّر كأرضيّات المدارس الداخلية؛ وعندما فاجأ صاحب العربة مرة السيّد والسيّدة كلابار على المائدة، لاحظ أنّ صحافهما وأقداحهما،

---

(١) يستمد بلزاك هذه المعلومات من ذكرياته عند سكنه في العام ١٨١٩ في شارع لديغير الواقع في ذلك الحي.

وأصغر الأشياء تشير الى قِدَم مريع ومع استخدامهما لملاعق وشوك فضية كانت الصحون، ووعاء الحساء مثلّمة ومرمّمة كما آنية أفقر الأشخاص وهي تستدعي الشفقة. وكان السيد كلابار يرتدي سترة صغيرة رديئة، وينتعل خفّاً كريه المنظر، وتغطي عينيه نظّارات خضراء، وعندما رفع قبعته المريعة التي يزيد عمرها عن خمس سنوات بدا قحف رأسه المدبّب وقد تناثرت حوله خيوط واهية وسخة يرفض أي شاعر تسميتها أشعاراً؛ وبدا هذا الرجل ذو اللون الشاحب وجلاً رغم مظهره الاستبدادي. في هذه الشقة الكئيبة الواقعة في الجهة الشمالية. دون أي منظر إلا عريشة كرمة تمتد على الجدار المقابل، وبئر في ركن الفناء، كانت السيّدة كلابار تتعاظم كملكة، وتسير كامرأة لاتعرف كيف تستخدم قدميها للمشي، وكانت تلقي غالباً على السيد بييروتن عندما توجه اليه الشكر، نظرات تثير عطف من يلحظها؛ ومن وقت الى آخر تزلق في يده قطعاً من اثني عشر فلساً، وكان صوتها ظريفاً. ولم يتعرف بييروتن على هذا الابن اوسكار بسبب أن الفتى كان في سنته النهائية في الكلية، ولم يصادفه أبداً في المنزل.

هاهي القصة الحزينة التي لم يتمكن بييروتن من معرفتها رغم طلبه منذ مدة من الوقت معلومات من بوآبة المنزل لم تستطع أن تمدّه بها، فهذه المرأة لاتعرف إلا أن آل كلابار يدفعون مئتين وخمسين فرنكاً ايجار شقتهم، وأن لديهم خادمة تأتي لبضع ساعات فقط صباحاً، وأن السيّدة تقوم بنفسها أحياناً بتنظيف المنزل، وتسدّد يومياً أجور الرسائل التي تصلها اذ أنها تبدو في وضع لاتريد فيه أن تدع هذه الأجور تتراكم[1].

نادراً مايوجد مجرم بالمعنى الكلي للإجرام. فمن الصعب مصادفة انعدام الشرف كلياً. يمكن لامرىء الانتفاع على حساب سيده، أو تحويل كسب ممكن

(١) قبل ابتكار الطابع البريدي الذي استخدم في باريس في العام ١٨٤٩، كانت أجرة الرسائل مرتفعة وتحسب وفق المسافة وتقع على عاتق المرسل اليه.

للمنفعة الشخصية؛ ولكن حتى مع تكوين رأس مال بطرق أكثر أو أقل شرعية؛ فقليل من الرجال من لايسمحون لأنفسهم باجراء بعض المكرمات، سواء عن فضول أو عن حبّ الذات؛ وكتباين أو بالصدفة فإن لكل انسان لحظة برّه، وهو يسميها خطأه، ولايعيدها، لكنه يضحّي للخير كما يتأنّق الأكثر فظاظة في حركاته وكلامه لمرّة أو اثنتين في حياته. اذا أمكن لأخطاء مورو أن تُغتفر، فمردّ ذلك الى مثابرته على مساعدة امرأة مسكينة، جعلتها نِعَمها السابقة شديدة الاعتزاز بنفسها؛ وقد خبّأته في منزلها عند تعرّضه للأخطار! هذه المرأة الشهيرة في عهد حكومة المديرين بعلاقاتها مع أحد سلاطين تلك الفترة الخمسة، تزوّجت برعاية تلك الحماية الجليلة القدرة من أحد المموّنين الذي يربح الملايين، لكن نابوليون دمّره في العام ١٨٠٢[1]. وأصيب هذا الرجل، المسمّى هوسون، بالجنون بانتقاله المفاجىء من الرخاء الى الشقاء، فألقى بنفسه في نهر السين تاركاً وراءه السيّدة هوسون حاملاً؛ وكان مورو المرتبط بمودة حميمة مع السيدة هوسون محكوماً عليه آنئذ بالاعدام، وبالتالي فهو لايتمكن من الزواج بالسيدة هوسون بل إنه اضطر لمغادرة فرنسة لبعض الوقت. وكانت السيدة هوسون في الثانية والعشرين من العمر، فتزوّجت في قنوطها مستخدماً اسمه كلابار، وهو شاب في السابعة والعشرين قيل إن مستقبلاً واعداً ينتظره. فليحفظ الله النساء من وسيمي الرجال الموعودين بمستقبل زاهر. في تلك الحقبة كان المستخدمون يغدون بسرعة شخصيات مرموقة، لأن الامبراطور كان يفتش عن إمكانات يُعتمد عليها؛ لكن كلابار الذي وهب وسامة مبتذلة لم يوهب أي ذكاء، وأبدى نحو السيّدة هوسون هوى جامحاً معتقداً أنّها شديدة الثراء.

وعاش عالة عليها دون أن يُرضي لافي حاضره ولافي مستقبله متطلبات الرفاهية التي ألفتها في أيام الثراء. وكان كلابار يشغل بعناء وظيفة في مكتب

(١) ترد هذه المقولة أكثر من مرة لدى بلزاك وهي مستمدة من علاقات أبيه ومن مثال «أوفرار».

المالية لاتدر عليه أكثر من دخل ألف وثمانمئة فرنك سنوياً؛ وعندما التحق مورو بالكونت دي سريزي وعرف الوضع العسير الذي تعاني منه السيدة هوسون، تمكّن قبل زواجه أن يلحقها كوصيفة أولى بالسيّدة والدة الامبراطور، ورغم هذه الحماية القادرة لم يستطع كلابار التقدم؛ فعدم كفاءته كانت تظهر بسرعة، وعادت الزوجة في العام ١٨١٥ بانهيار الامبراطورية الى أيام الشتاء، ولم يبق لأسبازي[١] عهد الادارة إلا راتب ألف ومئتي فرنك يتلقاها كلابار بناءً على توصية الكونت دي سريزي من مكاتب بلدية باريس. وبقي مورو الراعي الوحيد لتلك المرأة التي عرفها صاحبة ملايين سابقاً، وتمكن أن يحصل لولدها أوسكار هوسون على نصف منحة دراسية من بلدية باريس في كلية هنري الرابع، بينما أخذ يرسل بواسطة بييروتن الى شارع سريزه كل مايمكن أن يقدّمه بشكل لائق لمساعدة تلك العائلة التي تعاني الفاقة. وكان أوسكار كل مستقبل أمّه، وكل حياتها، ولايمكن أن تُلام تلك المرأة المسكينة على المغالاة في حنانها على هذا الولد، الذي ينظر اليه زوجها كوحش أسود، فقد بدا أوسكار لسوء الحظ مصاباً ببعض حمق لم تلحظه أمه رغم سخريات كلابار، وهذا الحمق، أو بمعنى أدق هذا الصَلَف كان يقلق الوكيل بحيث طلب من السيدة كلابار أن ترسل اليه هذا الشاب ليختبره لمدة شهر ويرى الى أي مستقبل يمكن توجيهه؛ وفي نية مورو أن يقدّم أوسكار للكونت ويرشّحه خليفة له. لكن من أجل الانصاف واعطاء ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، قد يكون من المفيد أن نذكر أسباب غرور أوسكار الأحمق، بالملاحظة الى أنه وُلد في قصر السيّدة والدة الامبراطور، وتكحلت عيناه في طفولته الأولى بالأبّهات الامبراطورية[٢] واحتفظ خياله المرن ببصمات

---

(١) أسبازي: صديقة بريكلس الجميلة الذكية، وقد كانت مستشارة رجل الدولة الأثيني في القرن الخامس ق.م.

(٢) عرف بلزاك هذه الأبهات المدنية الامبراطورية وهو فتى في تور، وهي تختلف عن الأبهات العسكرية التي تذكّرها أدباء وشعراء من عهد طفولتهم في الحقبة الامبراطورية (فييني، وسانت بوف، وفيكتور هوغو، وموسه).

هذه اللوحات المذهلة، واستقرّت في ذهنه صورة ذلك العصر الذهبي وحفلاته مع الأمل في أن يتجدّد مرآها. فالمباهاة الطبيعية لطلاب الكليات وكلّهم يمتلكون تلك الرغبة في أن يتألّق كل منهم أمام أعين رفاقه الآخرين، التي تتبدّى فيها الغيرة وهو يقصّ ذكريات الطفولة، قد نمت بشكل مفرط لدى أوسكار وربّما استعادت أمّه أيضاً في المنزل ذكرياتها مع بعض الافراط في الرضى عن الذات، أيام كانت احدى ملكات باريس في عهد حكومة الادارة. أخيراً فربّما كان أوسكار، الذي ختم أخيراً دراسته الثانوية، يدفع عنه الاهانات التي يوجهها في الكلية الطلاب دافعو الأقساط، في كلّ مناسبة، الى رفاقهم أصحاب المنح، ولايتمكن هؤلاء من فرض احترامهم بالقوة الجسمية.

هذا المزيج من الأبهة الماضية المنطفئة، والجمال السابق، والحنان الذي ارتضى الشقاء، والأمل المنعقد على هذا الابن، والزيّغ الأمومي، والآلام المتحملة بشهامة، جعلت من هذه الأم أحد هذه الوجوه السامية التي تتوجّه اليها أنظار الملاحظ في باريس.

كان بييروتن غير قادر على أن يخمن مودّة مورو العميقة لتلك المرأة، ولاماتكنّه تلك المرأة لمن حَمَتْهُ في العام ١٧٩٧، وغدا صديقها الوحيد، ولم يرد أن ينقل اليها الظنون التي راودته، والمتعلقة بما يحوم حول مورو من مخاطر؛ فعبارة وصيف الكونت الرهيبة: «إن لدينا من الهموم مايكفي للاهتمام بما يتعلق بنا فقط» عادت الى خاطر صاحب العربة، ومعها الشعور باطاعة من يسميهم المقدّمين، زد على أن في رأسه من اللذعات مايعادل عدد قطع المئة فلس في الألف فرنك. كما أن رحلة من سبعة فراسخ كانت ترتسم دون شك في ذهن تلك الأم المسكينة، وهي التي لم تجتز إلا نادراً حواجز باريس، خلال حياتها الأنيقة السابقة، بدت لها وكأنها عبور المحيط؛ عدا عن أنّ كلمات بييروتن المقتضبة: «حسن، ياسيدتي!، نعم يا سيدتي!» تشير الى أن صاحب العربة يرغب في الانتهاء من توصيات يعتبرها هذراً لافائدة منه.

- ضع الأمتعة بطريقة لايصل اليها البلل، إن حدث وتغيّر الطقس.

ردّ بييروتن: إن لديّ غطاءً واقياً، وانظري ياسيدتي بأية عناية وضعتها!

تابعت السيدة كلابار متوجهة الى ابنها: أوسكار، لاتبق أكثر من خمسة عشر يوماً، أيًّا كان الإلحاح الموجّه اليك، اذ أن هذا لن يروق للسيدة مورو مهما كان تصرّفك؛ عدا عن أن من الواجب العودة قبل نهاية شهر أيلول للذهاب لزيارة خالك كاردو في بلفيل.

- نعم ياأمي.

وتابعت هامسة: وخاصة لاتتحدّث أبداً عن أعمال الخدم.. ولايغب عن ذهنك أن السيّدة مورو كانت وصيفة..

- نعم ياأمي..

بدا أوسكار كجميع الفتيان المفرطي الحساسية مغتاظاً لتعدّد انذارات أمّه على عتبة نُزُل الأسد الفضي فبادرها: «وبعد وداعاً ياأمي؛ فالعربة موشكة على الانطلاق، وهوّذا الحصان مقرون بها». نسيت الأم أنها في قلب ضاحية سان دنيس، وعانقت ولدها بحرارة قائلة وهي تخرج رغيف خبز طازج من سلّتها: «خذ، كدت تنسى الخبز والشوكولا ياولدي، وأكرر وصيتي لاتتناول شيئاً من نُزُل الطريق، حيث تدفع في أقلّ الأشياء عشرة أضعاف ثمنها.

كان أوسكار يودُّ لو يرى أمه تبتعد كليّاً بعد أن حشت جيبه بالخبز والشوكولا على مرأى من شابين يزيدان خريج الكلية ببضع سنوات، وقد حضرا دون أمهما، وأظهرا في وقفتهما، وتصرفهما، وهندامهما، استقلالاً كاملاً يرغب فيه كل فتى مايزال تحت نير أمه.

اعتبر أوسكار هذين الشابين يمثّلان العالم كله؛ وهتف أحد الشابين ساخراً:

«إنه مايزال يقول ماما!».

رنّت هذه الكلمة في أذن أوسكار فصرخ بلهجة نزقة وقد نفد صبره: «وداعاً ياأمي!» لنعترف: إن السيدة كلابار تتكلّم بصوت مرتفع قليلاً كأنها تُشهد جميع المارّة على مدى حنانها الى ولدها.

ردت الأم وقد بدا عليها التأثّر: «مالك ياأوسكار؟»

وتصورّت- وهذا خطأ جميع الأمهات اللواتي يدللن أولادهن- أنها قادرة على فرض احترامها، فتابعت بشيء من القسوة: «ما اعتدت سماع هذا الصوت منك»

ثم أردفت بحنان: اصغ إلي ياولدي، إنّ بك نزوعاً للكلام، ولقول ماتعرف ومالاتعرف، وهذا نوع من التبجح، واعتداد أحمق بذاتك كشاب، وأكرر توصيتي لك بضرورة لجم لسانك، إنك ياكنزي العزيز، لم تتقدّم بعد في مضمار الحياة لتحكم على الأشخاص الذين تصادفهم، ومامن شيء أخطر من الثرثرة في العربات العامة وفي عربة الركاب يحافظ الأشخاص المقدّرون على الصمت.

اسمع الشابان اللذان ذهبا دون شك الى نهاية الممر ضجة أعقاب جزمتيهما وهما يعودان ويمران تحت البوابة العامة، وكان بامكانهما أن يسمعا من جديد هذا الانذار، لذلك لجأ أوسكار للتخلّص من أمه الى طريقة بطولية تبرهن عن مدى تحريض الاعتداد بالنفس للذكاء فقال: «أمي إنك هنا بين تيارين هوائيين، ويمكن أن تصابي بنزلة صدرية، عدا عن إنني سأصعد الى العربة».

لامس الابن نقطة حسّاسة لدى الأم التي أحاطته بذراعيها وعانقته كأنه مسافر في رحلة طويلة، وقادته حتى باب العربة وقد ترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول:

«لاتنسَ منح الخدم خمسة فرنكات، واكتب لي على الأقل ثلاث مرات خلال هذه الخمسة عشر يوماً! تصرّف بلباقة، وفكّر بجميع توصياتي. لديك من

الثياب الداخلية مايكفي بحيث لاتحتاج الى اعطاء غياراتك للغسيل. أخيراً تذكر طيبة السيد مورو، واستمع له كأب، وتقيّد بجميع نصائحه. . ».

بصعوده الى العربة ارتفع طرفا بنطال أوسكار عن جوربيه الأزرقين كما انفرج معطفه عن رتق جديد، مما دفع الشابين اللذين لم يفتهما هذا المظهر من الفاقة الى الابتسام مجدداً مما زاد في ألم أوسكار بينما تابعت الأم وهي تبتسم له بحنان: «خذ مكانك في صدر العربة» وتوجهت الى بييروتن بالقول: «لقد حجز ولدي المكان الأول في العربة» أوه! كم أسف أوسكار لأن المصائب والهموم لم تنل من جمال أمه، ولأن الشقاء والتضحية لم يحولا دون لفت الأنظار اليها! ولكز أحد الشابين، ذلك ذو الجزمة والمهمازين، رفيقه بمرفقه ليوجه انتباهه الى والدة أوسكار، وفتل الآخر شاربه بحركة تعني: ياللشكل الجميل!

فكر أوسكار في نفسه وقد بدا عليه القلق: «كيف يمكن أن أتخلص من أمي؟»

سألته السيدة كلابار: مالك؟

تظاهر أوسكار بأنه لم يسمع، وبدا سيء الخلق، فربما في مثل هذا الظرف تبدو السيّدة كلابار أقل حساسية، لكن للعواطف المطلقة أنانيتها.

سأل الشاب صديقه: «جورج، أتحب مرافقة الأولاد في السفر؟

- نعم ياعزيزي آموري، إنما إن كانوا مفطومين، واسم أحدهم أوسكار، وقد تزوّد بالشوكولا.

قيلت هاتان العبارتان بصوت منخفض لاتاحة الحريّة لأوسكار بالسماع أو التظاهر بعدم السماع؛ وكان في محتواهما مايشي الى مدى محاولتهما اثارة الفتى للتسلية في الطريق.

وأبدى أوسكار عدم السماع، ونظر حوله ليرى إن كانت أمه، التي تثقل عليه، ككابوس، ماتزال موجودة؛ اذ أنه يعرف أنها تكنّ له من الحب مايمنعها من

الانصراف بسرعة، . لم يكن فقط يقارن بشكل لاارادي وضع رفيقي سفره مع وضعه، وإنّما كان يشعر أيضاً أن هندام أمه كان سبباًلمزيد من ابتسام سخرية الشابين.

قال في نفسه: «لو أمكن لهذين الشابين أن ينصرفا؟».

للأسف فإن آمورى التفت الى جورج وهو يقرع بعصاه على عجلة العربة: «هل تربط مصيرك بهذا المركب الواهي؟

رد جورج بلهجة مشؤومة: يجب ذلك!».

أطلق أوسكار تنهدّة وهو يلاحظ طريقة الاختيال التي دفع بها هذا الشاب قبعته مائلة على أذنه كأنه يريد أن يظهر جُمّة شعره الأشقر المسرّح باتقان، أما أوسكار، فشعره الأسود قدجُزّ، بناءً على توجيهات زوج أمه، قصيراً كما يُجزُّ شعر الجنود؛ وكان وجه هذا الشاب المتباهي مستديراً ممتلئاً، يشعُ لون الصحة والعافية، بينما كان وجه رفيق سفره متطاولاً، دقيق التقاطيع، شاحباً، وكان جبينه متسعاً، وصدره ينشدُّ في سترة بحياكة الكشمير؛ وبدا لأوسكار وهو ينظر باعجاب الى البنطال الملتصق بلون سمرة الحديد، والمعطف ذي التطريزات البرندبورغية[1]، والأزرار الزيتونية، الذي يشدّ القامة، أن هذا المجهول الرومنسي الذي وهب كلّ هذه الخطوات يفرط في اظهار تساميه عليه، وتملّكه مثل الغيظ الذي ينتاب امرأة دميمة لمجرد ظهور امرأة جميلة أمامها. وكانت ضجة الكعب الحديد لجزمة الشاب تهزُّ أعصاب أوسكار، عدا عن تضايقه من ثيابه التي أعدّت على مايدو في المنزل وفصّلت من ثياب قديمة لزوج أمه؛ بينما يبدو هذا الفتى المحسود في راحة تامة في أثوابه؛ «ولاشك أن في كيسه بضع عشرات من الفرنكات».

---

(١) برندبورغ BRANDBOURG: منطقة ألمانية تنسب اليها تطريزات وأشرطة تزين الأثواب.

فكّر أوسكار. والتفت الشاب ليلحظ أوسكار بدهشة سلسلة ذهبية تتدلى من عنقه، ولاشك أنّ في نهايتها ساعة ذهبية أيضاً، وأخذ هذا الشاب المجهول عند ذاك في ناظريه مناسيب شخصية كبيرة.

نشأ أوسكار في شارع سريزه منذ العام ١٨١٥، وكان يؤخذ ويعاد في أيام العطل الى الكلية من قبل زوج أمه، ولم يكن أمامه أي نقاط مقارنة، منذ بلوغه سن الرشد إلا زواج أمّه التعس، وربي بقسوة وفقاً لتوجيه مورو، فلم يتردّد إلا نادراً على المسارح ولم ير منها إلا مسرح الآمبيغو - كوميك[1]، حيث لم تلحظ عيناه كثيراً من الأناقة، إن سمح انتباه الفتى المنصرف الى الميلودواما بالتوجّه الى تأمّل القاعة. وكان زوج أمه مايزال يحمل، وفقاً للزي السائد في العهد الامبراطوري ساعته في جيب بنطاله، وترك سلسلة ثخينة من ذهب تتدلّى من عنقه، وهي تنتهي بمجموعة من الحلي الغريبة: أختام، ومفتاح مستدير الرأس مسطّح رُسم عليه منظر فسيفسائي. فأوسكار الذي رأى هذا الترف القديم في الأوج، دُهش بتجلي هذه الأناقة السامية اللامبالية. فهذا الشاب يغالي في اظهار قفازيه الأنيقين، كما أنه يريد أن يبهر أوسكار بالتلويح بلطف بعصا أنيقة ذات قبضة ذهبية. وصل أوسكار الى المرحلة الأخيرة من اليفاع حيث الأشياء الصغيرة تسبب أفراحاً أو أتراحاً كبيرة؛ وحيث تفضّل المصيبة على هندام يثير السخرية؛ وحيث الاعتداد بالنفس، بعدم تعلّقه بمصالح الحياة الكبرى، ينصرف الى الترّهات، وحب الظهور، والرغبة في ابداء الرجولة؛ ويبدأ الكبَر آنئذ، ويكون التبجح أكثر مبالغة بتوجهه الى أشياء تافهة. لكن إن حسد اليافع أحداً على تأنّقه في اللباس، فإنه يتحمس أيضاً للموهبة، ويعجب بالرجل العبقري؛ وهذه العيوب إن لم تكن متجذرة في القلب تبرز زيادة في الحيوية وجموحاً في الخيال، فإن ذُهلَ هذا الابن الوحيد، وهو في التاسعة عشر من عمره، المنعزل بقسوة في البيت الأبوي بسبب فاقة معيله المستخدم براتب لايتجاوز ألفاً ومئتي فرنك،

---

(١) مسرح شعبي كان يقع حتى العام ١٨٢٧ في شارع الكامبل، حيث كانت تمثل فيه مسرحيات هزلية قصيرة - فودفيل - والميلودراما.

المعبود من أمه التي تعرّض نفسها للحرمان القاسي من أجله، إن ذهل من مرأى شاب في الثامنة والعشرين، وغار من سترته البرندبورغية المبطنة بالحرير، ومن صداره الكشميوي المزّيف، ورباط عنقه المنعقد بحلقة لاتنمُّ عن ذوق رفيع؛ أليَس ذلك من الهفوات التي تُرتكب في جميع طبقات المجتمع، وتدفع الأدنى الى الغيرة ممن هو أعلى منه؟ ورجل العبقرية نفسه يتعرّض لهذا الهوى الأول؛ ألم يُبد روسو جنيف اعجابه بڤنتور وباَكُل[1]؟ لكن أوسكار انتقل من الهفوة الى الخطأ، فقد أحسّ بالمهانة، وحقد على رفيق سفره، وتأجّجت في قلبه رغبة خفيّة في أن يبرهن له على أنّه ليس أقل قدراً منه.

استمر الشابان المتأنّقان في التجول من الباب الى الاسطبلات، ومن الاسطبلات الى الباب، بل وكانا يذهبان حتى الشارع، وعند عودتهما ينظران دائماً الى أوسكار القابع في زاويته؛ وأظهر الفتى، المقتنع بأن سخرية الشابين تتناولانه، لامبالاة تامة، وأخذ يدندن بلازمة أغنية أطلقها الليبراليون حديثاً وهي تقول:

هذا خطأ فولتير، وهذا خطأ روسو[2].

وقد دفع بتصرفه هذا المشاهدين، دون شك، للاعتقاد بأنه كاتب ناشىء لدى محام مرخّص.

قال أموري: «عجباً، لكأنه من فرقة منشدي الأوبرا!

قفز أوسكار المسكين ساخطاً، ورفع المسند، وسأل بييروتن: «متى سننطلق؟

(١) مغامران تافهان تعرّض لهما روسو في الكتاب الثالث من الاعترافات.

(٢) أغنية سادت في العام ١٨١٧ عقب «التخفيف من التقيد بالصيام» والأغنية تشير بالاتهام لكتابات فولتير وروسو «لأنها أفسدت» السلوك والتقاليد العامة» وقد ذكرتها لور- أخت بلزاك في قصتها ومعنى اللازمة بينٌ: فرجال السلطة يعتبرون الكتاب والفلاسفة مسؤولين عن المصائب التاريخية التي يتجاهلون أسبابها الحقيقية.

أجاب صاحب العربة وسوطه في يده وهو ينظر باتجاه شارع آنجن: حالاً».

في تلك اللحظة نشط المشهد بوصول شاب يرافقه حَدَث، وظهرا يتبعهما حمّال يجرّ عربة بواسطة قدّة، واقترب الشاب يسرُّ ببضع كلمات لبييروتن الذي هزّ رأسه، وراح ينادي معاونه، وهرع المعاون لنقل حمولة العربة الصغيرة التي احتوت، عدا عن صندوقين، دلاءً وفراشي، وعلباً ذات أشكال غريبة، وعدداً لامتناهياً من الرزم والأدوات، راح الأحدث عمراً من المسافرين الجديدين، بعد أن صعد الى ظهر العربة، يرتبها ويركّزها هناك بخفة كبيرة، حتى أن أوسكار المسكين، الذي كان يبسم لأمّه وهي ترقبه من الجهة الأخرى من الشارع، لم يلحظ تلك الأدوات التي كان من الممكن أن تكشف له عن مهنة رفيقي الطريق الجديدين. كان الحدث البالغ من العمر ستة عشر عاماً تقريباً يرتدي قميصاً رمادياً مشدوداً بزنار من جلد مبرنق، وقبعته المقلوبة بجرأة الى الخلف تنبىء عن طبع مرح تؤكّده الفوضى اللطيفة التي أطلق بها خصلات شعره الكستنائية المجعّدة على كتفيه، ورباط عنقه من التافتا السوداء يرسم حزمة سوداء حول عنقه الناصع البياض؛ ويبرز حيوية عينيه الرماديتين، وينبىء النشاط البادي على وجهه الأسمر النضر، واستدارة شفتيه المكتنزتين، وأذناه المنطلقتان، وأنفه الأقنى، وجميع تفاصيل سحنته عن روح ساخرة مماثلة لروح فيغارو، ومعبّرة عن لامبالاة عمر الحداثة؛ كما أن حيوية حركاته، ونظرته الساخرة تكشف عن ذكاء نما بممارسة مهنة تعلّمها في وقت مبكر، وكأن هذا الفتى يشعر بقيمته المعنوية فهو يبدو رجلاً بالفنّ أو بالموهبة، ولم يعط بالاً لهندامه اذ أنه كان ينظر الى جزمته غير الملّمعة نظرة الساخر، ولبنطاله من النسيج المحبّك البسيط، وهو يتأمل البقع فيه، لالإزالتها وإنّما لرؤية تأثيرها.

قال لرفيقه وهو يتمطّى: «إنني في اشراق لون جميل»

كشفت نظرة الرفيق عن سلطة على هذا التابع، الذي تتعرّف فيه الأعين

الممارسة على تلميذ رسم مغتبط يطلق عليه بأسلوب المراسم الفنان المبتدىء[١].

أجاب المعلم وهو يطلق على تلميذه اللقب الذي يعرف به دون شك في المحترف: «حافظ على وقارك، يامستيغري[٢]».

كان هذا المعلم شاباً نحيلاً، شاحباً، ذا شعر أسود غزير جداً، وفي فوضى عجيبةبكل معنى الكلمة؟ لكن يبدو أن هذا الشعر الغزير ضروري لرأس ضخم ينبىء جبينه الواسع عن ذكاء مبكّر، والوجه قلق، فريد جداً دون إمكان وصفه بالدمامة رغم أنه مخدّد، وكأن هذا الشاب يعاني الألم إمّا من مرض مزمن، أو من حرمان فرضه الشقاء، الذي يُعتبر مرضاً رهيباً مزمناً، أو من هموم حديثة جداً بحيث لم يمسحها النسيان[٣]. أما ثيابه فهي مماثلة تقريباً لثياب ميستيغري، مع مراعاة الفارق، وهي تتلّخص بمعطف قديم لكنه نظيف، مفرّش جيداً، بلون أخضر أمريكي؛ وبسترة سوداء زررت حتى الأعلى كالمعطف، بحيث يكاد لايرى من تحتها رباط العنق الأحمر المحيط بالعنق؛ أما بنطاله الأسود فهو بقدم المعطف ويبدو واسعاً حول ساقيه النحيلتين. أخيراً فجزمته متسخة موحلة تشير الى أنه وفد من بعيد سائراً على قدميه. وبنظرة سريعة ألمّ هذا الفنان بكل تفاصيل «فندق الأسد الفضي» واسطبلاته، وتوزع النور المتفاوت في أنحائه،

---

(١) فنان مبتدىء RAPIN: ظهرت هذه الكلمة في العام ١٨٣٢ وقد أشار اليها فيكتور هوغو، ولايعلم مصدرها إنّما استعملت في المراسم والمحترفات وأطلقت على الفتى ذي الموهبة الراغب في تعلّم الرسم.

(٢) هذا أول ظهور لهذه الشخصية في «الملهاة الانسانية» وهو يبدو هنا فكهاً مرحاً لكنه يفرض في ما بعد موهبته تحت اسم «ليون دي لورا».

(٣) هذا الفنان الذي يبدو وكأنه يظهر بهوية الرسّام شينر، سيشار اليه فيما بعد باسمه الحقيقي «جوزيف بريدو» وهو يشع بالشهرة. وبلزاك في وصف مظهره يدفع الى التفكير بدلاكروا (١٧٨٩-١٨٦٣) زعيم المدرسة الرومنسية في الرسم، ويبدو أن الروائي استمد منه بعض التفاصيل دون أن يجعله نموذجاً كاملاً للشخصية الروائية.

وبكل تفاصيله؛ ونظر الى ميستيغري الذي قلّده بطرفة عين ساخرة وقال: «منظر جميل!

أجاب الرفيق المجهول: » نعم إنّه جميل.

قال ميستيغري: وصلنا مبكرين جداً، ألا يمكننا أن نتناول صحن بقول ما! إنّ معدتي كالطبيعة تكره الفراغ!.

سأل الشاب بصوت عذب بييروتن، هل يمكننا الذهاب لتناول فنجان قهوة؟

أجاب بييروتن: شرط ألا تتأخرّا

ردّ ميستيغري معبّراً عن عبقرية الملاحظة الفطرية لدى رسّامي باريس «حسن، مايز ال لدينا ربع ساعة».

واختفى المسافران في مطبخ الفندق والساعة تشير الى التاسعة، بينما وجد جورج أنّ من الانصاف والمعقول تأنيب بييروتن، فقال وهو يقرع بعصاه على عجلة العربة: «إيه! ياصديقي، عند الحظوة بمثل هذا الحافر فيجب التقيد بالموعد المحدّد[1]. ياللشيطان! إننا لانضع أنفسنا هنا للمتعة، ولو لم يكن لدينا أعمال عاجلة جداً لما عهدنا بعظامنا لك؛ ثم أن هذا الحصان البليد الذي تطلق عليه اسم روجو لن يعوض لنا الزمن الضائع.

أجاب بييروتن: «سنقرن لكم بيشيت، بينما يتناول هذان المسافران قهوتهما». ثم توجه الى مساعده قائلاً: «اذهب وانظر إن كان الأب ليجه سيأتي معنا».

قال جورج: وأين هو هذا الأب ليجه.

---

(١) وردت العبارة ذاتها في قصة لور، لكن كلمة «حافر» وهي تعبير مهين استخدم للدلالة هنا على العربة، ورد لدى بلزاك أيضاً في «أوهام ضائعة» للدلالة على مطبعة قديمة، كما أشار معجم الأكاديمية الى دلالته على «كمان سيء».

قال بييروتن لمساعده، دون أن يعير جورج انتباها، وهو يتوجّه ليأتي ببيشيت: «إنه في المنزل رقم/ ٥٠/ المواجه لنا.

صعد جورج الى العربة بعد أن صافح صديقه مودّعاً وألقى تحت وسادة مقعده بتعاظم حقيبة يد كبيرة وشغل الزاوية المقابلة لتلك التي يجلس بها أوسكار وهو يقول: «هذا الأب ليجه يقلقني».

أجاب أوسكار: لايمكنه أن ينتزع منا أمكنتنا فلديّ الرقم واحد.

ردّ جورج: ولديّ الرقم اثنان.

في الوقت الذي ظهر بييروتن يقود بيشيت، بدا المساعد يرافقه رجل ضخم يزن على الأقل مئة وعشرين كيلوغراماً. كان الأب ليجه ينتمي الى صنف المزارع ذي البطن الكبير، والظهر المربع، والذيل المغبّر. وهو يرتدي معطفاً قصيراً أزرق، ورانّة ساقيه تلتف الى مافوق ركبته، فتشدُّ على سرواله المخملي المخطط وترتبط به بحلقة فضية؛ وتزن كل فردة من حذائه ليبرتين. أخيراً كان يمسك بيده عصا قصيرة يابسة محمّرة، لمّاعة، وقد علّقت في طرفها حلقة من جلد تحيط بقبضة يده.

سأل جورج برصانة المزارع وهو يجرّب أن يركّز قدمه على مرقاة العربة: «أأنت من يسمى الأب ليجه؟»

«في خدمتك» ردّ المزارع مقبلاً بوجه كوجه لويس الثامن عشر ذي خدين متهدلّين محمّرين يبرز من خلالهما أنف لو أنه في غير هذا الوجه لبدا هائلاً؛ وعيناه الباسمتان مضغوطتان بلفافتين من الشحم.

قال الأب لبييروتن: «هيا، ساعدني على الصعود ياولدي.

وبدفعة من صاحب العربة ومعاونه، وعلى صراخ جورج: «هوب! لا! هيه! ادفش!...»

دخل المزارع العربة وهو يرد على مزحة بمثلها قائلاً: «اوه! لست ذاهباً الى مكان بعيد، فسأنزل في الكاف».

إن جميع الناس في فرنسة يفهمون الفكاهة ويقدرونها، وهكذا قال بييروتن: خذ مكانك في نهاية العربة وهكذا تكونون ستة هناك.

سأل جورج: وحصانك الآخر، أهو بمثل روعة حصان البريد الثالث؟ [1].

قال بييروتن وهو يشير الى الفرس الصغيرة التي وصلت الى أمام العربة بمفردها: هاهو، أيّها البورجوازي!

علق جورج بدهشة: أوه! إنه يسمي هذه الحشرة حصاناً.

قال المزارع بعد أن استقر في جلسته: أوه! إنّه جيد هذا الحصان الصغير، تحية أيها السادة، هل سننطلق يابييروتن؟

أجاب صاحب العربة: إنّ لدي مسافرين يتناولان قهوتهما».

ظهر عند ذاك الشاب ذو الوجه المخدّد وتلميذه، وبدرت صيحة عامة: «لننطلق!

أجاب بييروتن: سننطلق- وتوجه الى معاونه الذي كان يرفع الحجارة الساندة للعجلات «هيّا لنسر» وتناول مقود روجو، وبدرت منه تلك الصرخة الحنجرية «كيت! كيت!» التي تعني تحريض البهيمتين على جمع قواهما، وبالرغم من ظهورهما فاتري الهمّة فإنهما حركا العربة من أمام باب نزل الأسد الفضي. وبعد تلك المناورة التحضيرية الصرفة؛ نظر بييروتن الى شارع آنجن وغاب فيه تاركاً عربته تحت حراسة معاونه.

---

(١) حصان البريد الثالث: هو الحصان الذي تدفع أجرته عند تبديل الخيل لكنه لايرى مطلقاً- وقد ورد ذكر ذلك في «أورسول ميرو».

سأل ميستيغري المعاون: «وبعد، هل يقوم سيّدك دائماً بهذه المناورات؟

أجاب الأوفرني الخبير بكل الحيل المستخدمة لتهدئة الركاب، إنه يتناول شوفان علفه من الإسطبل.

قال ميستيغري: بعد كل حساب « فإن الزمن هو (الضعيف) الأكبر[1]».

في تلك الفترة كانت موضة تشويه الأمثال سائدة في محترفات الرسم، وكان ايجاد تغيير في بعض الأحرف أو في كلمة يعتبر انتصاراً إن أمكن الوصول بذلك الى تحريف المثل الى معنى غريب أو مضحك.

أجاب المعلم تلميذه: إن باريس لم تُبنَ في فرن[2].

عاد بييروتن يرافقه الكونت دي سريزي وافداً من شارع الإشيكيه، بعد أن تبادل معه دون شك بضع دقائق من المحادثة.

- أيّها الأب ليجه، أتريد أن تعطي مكانك للسيد الكونت؟ إن عربتي بدون ذلك ستكون مثقلة.

قال جورج: إن استمر الأمر على هذا الحال فلن ننطلق خلال ساعة، اذ يجب نزع هذا الحاجز الجهنمي الذي عانينا مشقة كبيرة في وضعه؛ وعلى الجميع النزول من أجل مسافر يأتي في آخر الوقت. إن لكل واحد الحق في المكان الذي حجزه؛ فما هو مكان السيد؟ لنر، ناد وفق الترتيب! هل لديك ورقة، هل لديك سجل؟ ماهو رقم السيد الكونت، وهو كونت ماذا؟

---

(١) تحريف للمثل القائل: إن الزمن هو المعلم الأكبر: أبدلت كلمة MAITRE معلم بـ MAIGRE ضعيف بتبديل حرف G بحرف T. ومن المعروف عن بلزاك حبه لتشويه الأمثال، وقد استعمل ذلك في كثير من رواياته: في أوهام ضائعة، والمتصيدة، وأورسول ميروه. متذرعاً، كما الأمر، هنا، بتقليد متّبع في محترفات الرسامين؛ أو بجهل شخصية تشوه اللغة كما في أورسول ميروه (السيّدة كريير). وقد كانت هذه اللقى تسرّ تماماً، فهي تعلن مفاجآت الصدف. وقد كان بازيل في مسرحية «زواج فيغارو» يستخدم هذا الأسلوب. ومن المعروف أن بلزاك كان من المعجبين ببومارشه.

(٢) المثل: «باريس لم تبن في يوم Jour» وأبدلت بـ (J) F فغدت FOUR فرن.

قال بييروتن وقد بدا عليه الارتباك: سيدي الكونت. . .، لن تكون مرتاحاً.

سأل ميستيغري: أنت لاتعرف اذا حسابك؟ الكونتات الجيدون يصنعون المناخل الجيدة[١]

هتف المعلم برصانة: ميستيغري، الزم الوقار.

بدا واضحاً أن المسافرين جميعاً اعتبروا السيد دي سريزي بورجوازياً يسمى الكونت.

قال الكونت لبييروتن: «لاتزعج أحداً سأجلس الى جانبك في الأمام.

قال المعلم لتلميذه: هيّا ياميستيغري، تذكر الاحترام المتوجب عليك للشيخوخة!

أنت لاتدرك كم يمكن أن تكون شنيعاً في شيخوختك، والأسفار تشوّه الشباب. وهكذا فعليك أن تتخلى عن مكانك للسيد».

فتح ميستيغري باب العربة وقفز الى الأرض بسرعة ضفدع يقفز الى الماء، وقال للسيد دي سريزي: لايمكنك أن تكون أرنباً، أيها العجوز الجليل.

ردّ عليه معلمه بالقول: ميستيغري، إن الفنون هي صديق الرجل.

قال الكونت لمعلم ميستيغري بعد أن غدا جاره على المقعد: أشكرك أيها السيد.

وألقى رجل الدولة على القسم الخلفي من العربة نظرة سريعة ثاقبة أغاظت أوسكار وجورج.

قال أوسكار: تأخرنا ساعة وربعاً.

---

(٢) المثل: الحسابات الجيدة تصنع الأصدقاء الجيدين Les bons comptes font le bons amis لكن تغيير بعض الأحرف جعلها «الكونتات الجيدون يصنعون المناخل الجيدة» Les bons comtes font les bons tamis

وقال جورج: عندما يريد أحد تسيير العربة وفق ارادته فعليه أن يحجز جميع الأمكنة.

تأكد الكونت دي سريزي من جهل الجميع لشخصه، فلم يرد على هذه الملاحظات، واتخذ مظهر البورجوازي المتسامح.

قال المزارع للشابين: «تتحدثان عن التأخير، لكن ألم تأخذا راحتكما ونحن ننتظركم؟

نظر بييروتن نحو باب سان دنيس وهو يمسك بسوطه، وتردّد في الصعود على المقعد القاسي حيث يتأرجح ميستيغري.

قال الكونت عندئذ: إن كنت تنتظر أحداً ما، فهذا يعني أنني لست الأخير.

قال ميستيغري: إنني أوافق على هذا الاستنتاج.

راح جورج وأوسكار يضحكان بوقاحة، وقال جورج لأوسكار: «إن العجوز ليس قوياً» وبدا أوسكار مسروراً لهذه العلاقة السطحية مع جورج.

عندما جلس بييروتن على مقعده الى اليمين مال ليتطلع الى الخلف دون أن يلمح بين المارّة المسافرين اللذين ينقصان لإكمال عدد الركاب.

قال: لن يكون وضعي سيّئاً إن جاءني مسافران اضافيان.

قال جورج مذعوراً: أنا لم أدفع أجرة الركوب، وسأنزل.

وقال الأب ليجه: ماذا تنتظر يابييروتن؟

صرخ بييروتن هي! وعرف روجو وبيشيت التصميم النهائي على الانطلاق؛ واندفع الحصانان نحو صعدة الضاحية بخطوات متسارعة، تباطأت بعد ذلك.

كان الكونت ذا وجه مصطبغاً بحمرة كلياً، إنّما هي حمرة مضطرمة مع

بعض بقُع ملتهبة؛ التهاب ثابت في الدم ناتج عن أعمال مجهدة[1]. كانت هذه الدرنات المتبرعمة تسيء الى المظهر النبيل للكونت بشكل يجب فيه اجراء امتحان دقيق للكشف في بريق عينيه الخضراوين عن نباهة رجل القانون، وعمق السياسي، وحكمة المشرّع. وبدا وجهه مسطحاً بأنف أفطس، بينما غطت القبعة وسامة الجبين ومظهره اللطيف. أخيراً كان في التباين الغريب بين الشعر الأبيض الفضي والحواجب الكثّة الثخينة التي بقيت سوداء ما يضحك هذه الشبيبة اللامبالية؟ وكان الكونت يرتدي معطفاً طويلاً أزرق مزرّراً عسكرياً حتى العنق المحاط برباط أبيض، ووضع بعض القطن في أذنيه، ورفع ياقة قميصه العريضة فرسمت حول كل وجنة مربعاً أبيض، وكان بنطاله الأسود يغطي حذاءه فلايظهر منه إلا طرفه؛ ولم يضع أي تزيين في عروة سترته، أخيراً كانت يداه محتجبتين في قفازين من جلد الأيل. ومن المؤكد أن مامن شيء فيه يشير بالنسبة لهؤلاء الشباب ركاب العربة الى أن هذا الرجل هو أحد أعيان فرنسة، وممن هم أكثر نفعاً لها. أما الأب ليجه فلم يسبق له أبداً أن رأى الكونت، كما أن الكونت من جهته لم يكن يعرفه إلا بالاسم، وهو إن كان، عند صعوده الى العربة، قد ألقى تلك النظرة النافذة التي أغاظت أوسكار وجورج، فليرى إن كان بين المسافرين كاتب موثق، ليأمره بالصمت، في حال اضطراره للسفر في عربة بييروتن، لكنه اطمأن من مظهر أوسكار، والأب ليجه، وبصورة خاصة من الملامح شبه العسكرية، والشاربين، والتصرّفات السوقية المميزة لجورج، وقدّر أن بطاقته قد وصلت دون شك في الوقت المناسب الى الموثق الكسندر كروتا.

قال بييروتن عند وصوله الى صعدة ضاحية سان دنيس القاسية عند الالتقاء مع شارع فيدلتيه: «أيها الأب ليجه. ألا تنزل لفترة، هه!

(١) كان بلزاك قد كتب أن هذه البقَع في وجه الكونت تعود الى «أيام شباب عاصف» تلميحاً لمرض زهري ثم عدَل عن ذلك مفضلاً الاشارة الى أعمال مجهدة ليحافظ على التقدير المعنوي للكونت وتبرير الاشادة بمواهبه في الادارة.

قال الكونت وهو يسمع هذا الاسم: سأنزل أنا أيضاً، اذ يجب التخفيف عن حصانيك

هتف جورج: آه! إن كان سيرنا على هذا المنوال فسنقطع أربعة عشر فرسخاً في أسبوعين!

قال بييروتن: أهي غلطتي؛ إن أراد أحد المسافرين النزول؟

قال الكونت بصوت هامس وهو يمسك بيد بييروتن: لك عشرات لويسيات إن حافظت على السرّ الذي عهدت به لك.

قال بييروتن في نفسه بعد أن غمز بعينه للكونت اشارة الى الوثوق به: «أوه! تذكّرت الألف فرنك اللازمة لي».

بقي أوسكار وجورج في العربة وهتف جورج: «اسمع يابييروتن؛ مادام هذا اسمك؛ إن كنت لاتستطيع بعد هذه الصعدة، وجلوس المسافرين في أمكنتهم، من الانطلاق بشكل أسرع فقل لي؟ فسأدفع أجرة مكاني، واستقل حصاناً في سان دنيس، اذ أن هناك أعمالاً هامة، وهي لاتقبل التأخير.

أجاب الأب ليجه بالنيابة: أوه! سيسرع بعدها، كما أن الطريق ليست واسعة.

عقّب بييروتن: لن أتأخر أبداً أكثر من نصف ساعة.

قال جورج: أخيراً، أنت لاتنقل البابا، أليس كذلك؟ فأسرع!

قال ميستيغري: يجب ألا تراعي أحداً، وإن كنت تخشى أن ترهق هذا السيّد، فهذا عمل غير مستحسن» وأشار الى الكونت.

عقّب جورج: إن جميع المسافرين متساوون أمام الكوكو، كتساوي الفرنسيين أمام الدستور[1].

(١) سخرية ليس فقط من الدستور، وإنّما من اعلان حقوق الانسان أيضاً، حيث صدر تأكيد وهمي له. وبلزاك يشير الى الطابع المخادع لهذين النّصين الأساسيين.

قال الأب ليجه: كن مطمئناً فسنصل الى لاشابل قبل الظهر.

ولاشابل هي القرية الواقعة مباشرة بعد حاجز سان دنيس.

يعرف جميع المسافرين أنّ الأشخاص الذين تجمعهم المصادفة في عربة لايتصلون فيما بينهم بسرعة، وهم لايتبادلون الأحاديث، سوى في ظروف نادرة، إلا بعد أن يقطعوا مسافة من الطريق. وهذه الفترة من الصمت لازمة لفحص متبادل، وليتركّز كلّ في المكان الموجود فيه؛ والأرواح كالأجسام بحاجة الى استعادة التوازن؛ وبعد أن يعتقد كلّ مسافر الى أنه خمّن العمر الحقيقي لرفقائه، ومهنة كل منهم، وطبعه، فإنّ الأكثر ميلاً للكلام يبدأ الحديث ليتناوله غيره بالحرارة التي يشعر بها كل فرد بالحاجة الى تجميل الرحلة، وتخفيف الضجر؛ هكذا يتمّ الأمر في العربات الفرنسية؛ أما لدى الأمم الأخرى فالعادات مختلفة، فالانكليز لهم من عجرفتهم مايكمّ أفواههم، والألماني كئيب في العربة، والإيطاليون كثيرو الحذر، والاسبانيون ليس لديهم عربات عامة، والروس ليس لديهم طرقات. وهكذا فما من تسلية اذاً إلا في عربات فرنسة الثقيلة، وفي هذه البلاد المهذار، غير المتحفظة، حيث يهرع كل انسان الى الضحك والتعبير عن روح الفكاهة لديه، وحيث السخرية تنشّط كلّ شيء، بدءاً من بؤس الطبقات الدنيا حتى المصالح الهامّة لكبار البورجوازيين، لكن الخشية من الشرطة تلجم الألسنة قليلاً، بينما النظام البرلماني يشجع النقاش والجدل. وعندما يتمتع شاب في الثانية والعشرين من العمر كذلك الذي يتوارى تحت اسم جورج، بروح الفكاهة، فإنه ينصرف، وخاصة في الوضع السابق ذكره، الى الافراط في المجون؛ فجورج قد ارتسم سريعاً ككائن فريد في تلك المجموعة، ورأى في الكونت صناعياً من المرتبة الثانية، وقد حسبه سكاكيني، كما رأى في الشاب البائس المرافق لميستيغري كائناً ضعيف الجسم والعقل، وفي أوسكار شاباً غبياً، وفي المزارع الضخم الجثة نموذجاً فائقاً يسهل خداعه. وبعد أن اتخذ هذه الأحكام صمم أن يتسلّى على حساب رفقاء رحلته.

قال في نفسه بينما كوكو بيروتن تهبط من لاشابل لتنطلق في سهل سان دنيس: «النر، هل سأدّعي أنني إتيين أو برَنجه؟ . . . كلا، إن هؤلاء البلهاء لن يدركوا من هو هذا أو ذاك[1]. هل أقول إنني من جمعية الفحّامين[2]؟ . . . ياللشيطان! قد يؤدي هذا لاعتقالي.

لو أجعل نفسي أحد أبناء المارشال في[3]. . . باه! ماذا سأقول لهم؟ هل سأحدثهم عن تنفيذ حكم الاعدام بوالدي. ليس هذا أمراً مسلياً. لو أذكر أنني عائد من شامب- دازيل[4]؟ . . لكنهم سيعتبرونني جاسوساً، وسيرتابون بي. فلأكن أميراً روسياً متنكراً وسأجّرعهم تفاصيل مذهلة عن الامبراطور الكسندر[5]. . لو أدّعي أنني كوزين[6] استاذ الفلسفة؟ لكن هذا الشاب النحيل ذا الشعر المشّعث يبدو لي، وكأنّه ممن ألفوا دروس السوربون. لماذا لم أفكر في وقت مبكر بحضورها؟ . . . سأقلد جيداً الانكليز، وسأعتبر نفسي اللورد

---

(١) إتيين (١٧٧٧-١٨٤٥) مؤلف مسرحي، أصبح في عهد الملكية الثانية من صحفيي المعارضة.
برنجه (١٧٨٠-١٨٥٧) شاعر وزجّال معارض اعتبر من أبطال الحرية.

(٢) جمعية ايطالية نادت بالحرية الوطنية، اعتبر عرفاء لاروشيل الذين أعدموا في العام ١٨٢٢ من أنصارها في فرنسة.

(٣) المارشال في (١٧٦٩-١٨١٥) أحد مارشالات نابوليون تميز بانتصاراته في حروب الثورة والامبراطورية. سمي عضواً في مجلس الأعيان من قبل لويس الثامن عشر، لكنه عاد وانضم الى نابوليون في حكم المئة يوم، قبض عليه بعدها وحوكم وأعدم رمياً بالرصاص.

(٤) شامب دازيل (حقل المنفى): مشروع لارسال جنود الامبراطورية بعد سقوط نابوليون الى خليج المكسيك وألاباما وتم التسجيل له لكنه انهار في ١٨١٨-١٨١٩ واعتبره بلزاك أحد أمثلة الديماغوجية وعجز الأحرار.

(٥) الامبراطور الكسندر (١٧٧٧-١٨٢٥) امبراطور روسيا هزم مراراً أمام نابوليون، لكنه ربح أخيراً ووقع الحلف المقدس في العام ١٨١٥ .

(٦) فيكتور كوزين (١٧٩٢-١٨٦٧) فيلسوف فرنسي. كان ابن غسالة تحمس بلزاك لدروسه في ١٨١٧-١٨١٨، أوقف عن دروسه في العام ١٨٢١ لكنه استعاد شهرته. في العام ١٨٤٢ وغدا وزيراً للمعارف العامة.

بايرون[1]، وأنا مسافر بشكل متنكر . . اللعنة! قد أفشل في هذا. لو أجعل نفسي ابن جلاد؟ هذه فكرة مدهشة من أجل أن أدعى الى وجبة غداء! أوه! حسن، سأدّعي أنني من القادة الذين حاربوا مع علي باشا جانينا[2] .

أثناء هذا المونولوج كانت العربة تدرج في زوبعة من غبار ارتفعت دون انقطاع عن جوانب الطريق المحفّر .

قال ميستيغري: «ياللغبار!» .

ردّ رفيقه بسرعة: مات هنري الرابع، لكن إن تقل أن هذا الغبار يعطي رائحة الڤانيليا فهذه فكرة جديدة .

أجاب ميستيغري: تريد السخرية . الواقع أنّه يذكر للحظات برائحة الڤانيليا .

أراد جورج إثارة قصة فقال: هذا في المشرق .

ردّ معلم ميستيغري مقاطعاً جورج: هذا في الريح[3]

أردف جورج: قلت في المشرق، وأنا عائد منه، حيث الغبار ذو رائحة طيّبة . أمّا هنا فإنه لايثير أيّة رائحة إلا عندما يصادف مستودع براز جاف كهذا!

قال ميستيغري بلهجة ساخرة: هل السيد عائد من المشرق .

ردّ عليه معلمه: إنّك تلاحظ جيداً أن التعب قدبلغ من السيد مبلغاً جعله يذكر قفاه[4] .

---

(١) اللورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤) شاعر انكليزي شهير مؤلف مانفرد ودون جوان- سافر الى الشرق ومات بالحمّى .

(٢) علي باشا جانينا (١٧٤٤-١٨٢٢) استقل بألبانية وثار على السلطان وأيّد اليونانيين في ثورتهم، جعله الكسندر دوماس يلعب دوراً هاماً في روايته الكونت دي مونت كريستو- مات مذبوحاً .

(٣) عودة الى التلاعب بالجناس اللفظي LEVANT : الشرق و Le vent : الريح .

(٤) تلاعب آخر بالألفاظ: PONANT المغرب و PONANT القفا أو الوركان .

تابع ميستيغري مخاطباً جورج: لم تجعلك الشمس أكثر سمرة.

- أوه! إنني أغادر سريري بعد مرض ثلاثة أشهر، سببه كما يقول الأطباء طاعون مكبوت.

صرخ الكونت صرخة رعب: تقول طاعون، توقّف ياببيروتن!

ردّ ميستيغري: تابع ياببيروتن، إنّه يقول طاعون مكبوت أي من النوع الذي يرد في الحديث.

هتف المعلم: كما لو أنك تصرخ «ياللطاعون».

وتابع ميستيغري: أو كما تقول: «أيّها الطاعون كن بورجوازياً!».

وردّ المعلم: ميستيغري، ستتابع طريقك سيراً على الأقدام إن جعلت هذا الموضوع قضية! ثم التفت الى جورج سائلاً: «هل ذهب السيّد الى الشرق؟

- نعم الى مصر، ثم الى اليونان حيث التحقت بجيش علي باشا جانينا، ثم اختلفت معه، وهكذا فإن الانفعالات التي تثيرها الحياة الشرقية قد أخلّت بنظام عمل الكبد.

- قال المزارع الضخم: آه! خدمت هناك، ولكن ماعمرك اذا؟.

تابع جورج أمام نظرات جميع المسافرين: إنني في التاسعة والعشرين، وذهبت وأنا في الثامنة عشر من عمري في حملة ١٨١٣ الشهيرة، لكنني لم أشهد إلا معركة هانو[1] رقيت بعدها الى رتبة رقيب أولّ، وفي مونترو رفعت الى وكيل ضابط، وأنعم عليّ الامبراطور بوسام جوقة الشرف (هل بيننا جواسيس؟).

قال أوسكار: إنّك صاحب وسام، ولاتتزين بصليبه.

---

(١) هانو: مدينة على نهر المين في المانية، انتصر فيها نابوليون على الجيش النمسوي- الباڤاري في الأيام الأخيرة من تشرين أول ١٨١٧.

- صليب هؤلاء؟ عمتم مساءً. ومع ذلك من هو الرجل المحترم الذي يتزّين بأوسمته في السفر؟ هوذا السيد، - وأشار الى الكونت دي سريزي- أراهن على ماتشاؤون. . . قال معلم ميستيغري: المراهنة على مانشاء تعني في فرنسة عدم المراهنة على شيء.

تابع جورج بتكلّف: أراهن على ماتشاؤون بأن هذا السيد يحمل العديد من الأوسمة السامية.

ردّ الكونت دي سريزي ضاحكاً: إنني أحمل صليب جوقة الشرف الكبير، وصليب سان- آندره الروسي، وصليب نسر بروسية، وصليب البشارة السرديني، والجزّة الذهبية. . .

قال ميستيغري: تواضع قليلاً، كلّ هذا وأنت مسافر في الكوكو؟

همس جورج في أذن أوسكار: «آه! لقد مشى على الخط الرجل ذو اللون الآجريّ.

ثم تابع بصوت عال: ماذا قلت لكم؟ أنا لاأخفي حبي للامبراطور.

قال الكونت: وأنا خدمته.

هتف جورج: كان رجلاً، أليس كذلك؟

أجاب الكونت بمظهر بليد أحسن جيّداً التظاهر به: رجل له عليّ أفضال كبيرة.

قال ميستيغري: وصلبانك؟

تابع السيّد دي سريزي: وكم كان يتعاطى التبغ!

قال جورج: أوه! حتى أنه كان يحشو به جيوبه.

سأل الأب ليجه وقد بدا عليه أنه غير مصدّق بذلك: من قال هذا؟!

تابع جورج: بل أكثر من ذلك، كان يمضغ ويدخن، وقد رأيته وهو ينظف الدخان بطريقة غريبة في واترلو، عندما أحاط بجسمه المارشال سولت

وحمله الى عربته، في اللحظة التي قبض بها على بندقية وانطلق لملاقاة الانكليز[1].

هتف أوسكار وقد جحظت عيناه: أشهدت واترلو؟

- نعم أيها الشاب، شاركت في حملة ١٨١٥ وكنت نقيباً في مون- سان -جان، وانسحبت الى اللوار عندما سرّحنا، يقيناً، إنني تقززت من فرنسة، ولم أستطع البقاء فيها. كلا، وإلا لقبض عليّ، وقد انسحبت مع اثنين أو ثلاثة من الشجعان: سلِف، وبيسون[2] وغيرهما ممن هم في خدمة محمد علي باشا[3] الآن في مصر، الرجل العجيب، تاجر التبغ البسيط سابقاً في كافال؛ والأمير الحاكم الآن. لقد رأيتموه في لوحة هوراس ڤرنه: مذبحة المماليك[4]. ياللرجل الوسيم أنا لم أرد أن أتخلى عن دين آبائي واعتنق الاسلام، عدا عن أنّ هذا الارتداد يتطلّب عملية جراحية، لاأريد أبداً اجراءها. ثم مامن أحد يجلُّ المرتدَّ عن دينه. آه! ربما كنت رضيت بذلك لو قدّم لي دخل سنوي بمقدار مئة ألف فرنك وحتى مع ذلك؟... ربما قلت لا. لكن الباشا منحني اكرامية ألف تلاري.

قال أوسكار الذي كان يصغي بكل جوارحه لجورج: وماقيمة هذه الاكرامية؟

---

(١) وفقاً لما ذكره فولابل في (تاريخ عودة الملكيتين) فإن الامبراطور استلم قيادة آخر فيلق من الحرس وقرّر الحرب حتى الموت واندفع بجواده بين الصفوف لكن المارشال سولت والجنرالات الحاضرين قادوه في طريق جيماب.

(٢) هو سيف وليس سلف: أحد اداريي نابوليون وقد رحل الى مصر ودخل في خدمة محمد علي باشا في العام ١٨١٥ وكذلك القبطان بيسون الذي غدا أميرالاً هناك.

(٣) كان حزب اليسار في مصر وخاصة السان- سيمونيون من المعجبين بمحمد علي باشا، وكذلك بلزاك.

(٤) هي مذبحة أمر بها محمد علي باشا ضد المماليك في القاهرة بتاريخ ١ آذار ١٨١١، وقد مثلها هوراس ڤرنه (١٧٨٩-١٨٦٣) في لوحة عرضت في صالون ١٨١٩ في باريس.

- أوه! ليست كبيرة، فالتلاري[1] قطعة نقدية تعادل مئة فلس؛ ويقيناً لم أربح ما يقابل المساوىء التي اكتسبتها في تلك البلاد التي يحلُّ بها غضب الله، إن صحّت تسميتها بلاداً. فأنا الآن لاأستطيع التخلّي عن تدخين «النارجيلة» بمعدل مرتين في اليوم وهي تكلّف غالياً.

سأل السيد دي سريزي: وكيف هي مصر؟

أجاب جورج دون أن يفقد حماسه: مصر بلاد من رمل، فلاتوجد خضرة إلا في وادي النيل. ارسم خطاً أخضر على ورقة صفراء، وهذه هي مصر. لكن للمصريين، الفلاحين ميزة علينا؛ اذ ليس لديهم دَرَك؛ أوه! لن تجد دركياً واحداً مهما تجولّت في مصر.

قال ميستيغري: افترض أن عدد المصريين كبير.

ردّ جورج: ليس بقدر ماتعتقد، يوجد كثير من الأحباش والأروام، والوهابيين والبدو والأقباط.. أخيراً فإن جميع هذه الأقوام لايُسلّون بحيث وجدت نفسي سعيداً جداً في الإبحار على مركب جنوي يحمل شحنة بارود وذخيرة لعلي باشا جانينا. وكما تعلمون؟ فالانكليز يبيعون البارود والذخائر لجميع الناس للأتراك واليونانيين، للشيطان، إن كان لدى الشيطان مال، وهكذا فمن زنْت[2]، وجب أن نذهب على طول الساحل اليوناني ونحن نتلوّى مع تعاريجه. وكما ترون فإن اسمي جورج، وهو شهير في تلك البلاد، وأنا حفيد زرني- جورج[3] الشهير الذي أعلن الحرب على الباب العالي لكنه بدلاً من أن

---

(١) التلاري: نقد فضي يعود للبندقية، وكان سائداً في الشرق الأدنى، واحدته تلارو وجمعه تلاري.

(٢) زنّت أو زنتيكوس: احدى الجزر الإيونية.

(٣) زرني- جورج أو قره جورج (١٧٦٢-١٨١٧) زعيم صربي أعلن الحرب من أجل استقلال بلاده عن تركيا وحكم عليه بالموت.

يخلعه، انخلع من قبله. وقد لجأ ابنه الى بيت القنصل الفرنسي في سميرن[1]، وجاء في ١٧٩٢ الى باريس ليموت فيها تاركاً أمي حاملاً بي فأنا ولده السابع، وقد نهبت كنوزنا من قبل أحد أصدقاء جدي، بحيث أننا أفلسنا كلياً، وقد عاشت أمي من بيع مجوهراتها، قطعة بعد أخرى، وتزوّجت في العام ١٧٩٩ من السيد يونغ المموّن، لكنني اختلفت معه بعد موت أمي، فهو -والكلام بيننا- رجل وغد، ومايزال حيّاً، لكنني لاأراه مطلقاً، فهذا الصيني تركنا نحن الأولاد السبعة دون أن يسأل: «هل أنت كلب؟ أو أنت ذئب؟»، هوذّا كيف غادرت في العام ١٨١٣، كمجند بسيط، بعد أن بلغ بي القنوط أشدّه... لكن لايمكن أن تتصوروا كيف استقبلني علي باشا جانينا، أنا حفيد زرني جورج، بمنتهى الغبطة. وأنا هنا اسمي جورج ببساطة، أما هنالك فقد وهبني الباشا سراياً.

قال أوسكار: أنت تمتلك سراياً؟

وسأل ميستيغري: وهل أنت باشا ولديك كثير من الأتباع؟

تابع جورج: كيف؟ ألا تعلمون أن السلطان هو وحده الذي يمنح لقب باشا، وأن صديقي علي جانينا، اذ أننا صديقان كالبوربونيين، قد ثار ضد الباديشاه! أتعلمون أو لاتعلمون أن الاسم الحقيقي للسيد الكبير هو باديشاه، وليس التركي الكبير أو السلطان. ألا تعتقدون أن حيازة سراي هي أمر كبير. إنّما هي كقطيع من الماعز؛ فهذه النسوة كالبهائم، وأنا أفضل مئة مرة فتيات الشوميير[2] في مونبارناس.

قال الكونت دي سريزي: هنا المكان أقرب.

- إن نساء السراي لايعرفن كلمة فرنسية، واللغة ضرورية للتفاهم، وقد أعطاني علي خمس نساءشرعيات وعشرة إماء، وهذا في جانينا يعتبر لاشيء.

---

(١) سميرن: مدينة إزمير الحالية في تركية.

(٢) هو بيت متعة كان يقع في عهد لويس السادس عشر على زاوية تقاطع شارع راسباي مع شارع مونبارناس، ومايزال يوجد شارع باسم غراند شوميير يحوي مراقص وصالات لعب يؤمُّها الطلاب.

فالحصول على النساء في الشرق أمر مبتذل، إنه كالحصول على مؤلّفات فولتير أو روسو، لكن هل يوجد من يقرؤها، لاأحد[1]. فالمهم أن يحسدك الناس على ملكيتك. يمكنك أن تضع امرأة في كيس وتخيطه وتلقيها في الماء عند أبسط شبهة وفقاً لتقاليدهم.

سأله المزارع: وهل ألقيت إحداهن في الماء؟

- أنا، الفرنسي، أفعل ذلك، إنني أحببتهن. وهنا فتَل جورج شاربيه ورفعهما عالياً، وبدا بمظهر حالم، وكانت العربة قد وصلت الى سان دنيس، وتوقف بيروتن أمام باب النُزُل الذي يبيع التلموز[2] الشهيرة، ونزل جميع الركاب، وأثار فضول الكونت مظاهر الحقيقة المختلطة بالمزاح في قصة جورج، فصعد بسرعة الى العربة، ورأى تحت الوسادة محفظة الأوراق التي قال له بيروتن أن هذا الشخص الغامض وضعها هناك، وقرأ عليها بأحرف مذّهبة: «المعلم كروتا- موثّق» وبسرعة سمح للكونت لنفسه أن يفتحها وهو يخشى بحق أن يدفع فضول مماثل الأب ليجه للقيام بذات العمل، وأخذ منها العقد المتعلق بمزرعة مولينو، وطواه، ووضعه في جيبه وعاد يفحص المسافرين.

«كان جورج بكلّ بساطة الكاتب الثاني لدى كروتا. قال الكونت في نفسه: «سأقدم تهانئي لسيِّده الذي كان عليه أن يرسل لي كاتبه الأول».

من مظهر الاحترام الذي أبداه الأب ليجه وأوسكار، أدرك جورج أنه كسب فيهما مُعجبين متحمسين، وجلس بالطبع كسيّد كبير وسدّد عنهما ثمن فطيرة التلموز وكأس نبيذ أليكانت وكذلك عن ميستيغري ومعلمه مغتنماً هذه الأريحية ليسألهما عن اسميهما.

---

(١) تعرّض بلزاك في قصة «العطّار» (١٨٣٠) الى هؤلاء البورجوازيين الأحرار الذين يشترون مؤلّفات روسو كاملة لكنهم يموتون دون أن يقرؤوا الجزء الأول منها. كما أن زوجة سيزار بيروتو وابنته قدمتا له هدية مؤلّفات روسو.

(٢) التلموز: فطائر بالجبنة والبيض والزبدة اشتهرت بها بلدة سان دنيس.

قال معلم ميستيغري: «اوه! ياسيّدي إنني لم أوهب اسماً شهيراً كاسمك، وأنا لست عائداً من آسية. . ».

في تلك اللحظة استعجل الكونت في الدخول الى مطبخ النُزُل الواسع كي لايثير أي اشتباه حول اكتشافه، وبذلك أمكنه أن يستمع الى نهاية هذا الجواب.

«. . . إنني بكل بساطة رسّام مسكين عائد من روما، بعد أن ذهبت اليها على نفقة الحكومة منذ خمس سنوات، واسمي شينر[1].

قال جورج للكونت: هيه! أيّها البورجوازي، هل يمكن أن نقدّم لك كأساً من نبيذ أليكانت وفطيرة تلموز.

قال الكونت: شكراً، فأنا لاأخرج أبداً قبل تناول كأساً من القهوة مع الحليب.

قال جورج: «وأنت لاتتناول شيئاً بين الوجبات؟ كعادة المارية[2]، بين ساحة روياوجزيرة سان لويس». ثم توجه الى الرسّام وقال هامساً، «بما أنه قد هذر منذ لحظة عن أوسمته، فقد خيّل إليّ أنه أكثر قوة مما اعتقدت، لكننا سنعيده مجدّداً الى أمجاده، فهو دون شك صانع شمعدانات» والتفت الى أوسكار قائلاً: «هيّا أيّها الشجاع، احتس هذا الكأس الذي صبّ للعطّار، فهو سيعجل بنمو شاربيك؟».

وتظاهر أوسكار بالرجولة، فاحتسى سريعاً الكأس الثاني وأكل ثلاث فطائر تلموز.

قال الأب ليجه وهو يتلمظ ويفرقع لسانه على سقف حلقة: «إنّه نبيذ جيّد. قال جورج: إنّه أجود في برسي! لقد ذهبت الى أليكانت، وكما ترون إنّ بين يدي وطاحون الهواء من الشبه، أكثر من شبه هذا الخمر مع خمور تلك المنطقة.

---

(١) هذا الرسّام الذي انتحل معلم ميستيغري اسمه اعتبر في قصة المحفظة فناناً بالغ الشهرة في الخامسة والعشرين من عمره.

(٢) المارية: حي يسكنه البورجوازيون خاصة، وعرفه بلزاك جيداً لأنه سكن فيه مع ذويه.

إن خمورنا المزّيفة أجود من خمورهم الطبيعية. - ها يابييروتن، مارأيك في كأس؟ هيه! خسارة ألا يتمكن كلٌ من حصانيك من ارتشاف كأس، لكنّا انطلقنا بشكل أسرع.

- اوه! لاداعي لذلك، فلدي الآن حصان ثمل، وأشار الى بيشيت.

وجد أوسكار، بسماعه هذه التورية، بييروتن انساناً مذهلاً.

«لنتابع السير!» رنّت عبارة بييروتن وسط فرقعة السوط، بعد أن اتخذ المسافرون أمكنتهم.

كانت الساعة حوالي الحادية عشر، والطقس المغمّ قليلاً قد انقشع، فريح الأعالي طردت السحب، وزرقة الأثير التمعت في بعض الأمكنة، وهكذا فعندما انطلقت عربة بييروتن على شريط الطريق الضيق الذي يفصل سان دنيس عن بييرفيت، كانت الشمس قد أنهت ارتشاف آخر الأبخرة الدقيقة التي كانت تغلّف بوشاحها الشاف مناظر تلك الضاحية الشهيرة.

قال الأب ليجه: وبعد، لماذا تركت اذاً صديقك الباشا.

أجاب جورج بلهجة تخفي جيداً بعض الأسرار: لأنّه سوقي فريد، تصوروا أنّه كلّفني بقيادة خيّالته!... جيد جداً».

فكر أوسكار المسكين: «آه! لهذا السبب تتجهز جزمته بالمهاميز».

استأنف جورج: في أيامي، كان علي تبلن[1] يريد التخلص من خسرو باشا[2]، وهو غدار آخر رهيب! إنكم تسمونه هنا شورف، لكن اسمه الحقيقي بالتركية كُسرو؛ ولاشك أنكم قرأتم سابقاً في الصحف أن علياً العجوز قد هزم خسرو وانتصر عليه بجلاء، والواقع لولاي لانقلى علي تبلن لبضعة أيام بسرعة،

---

(١) هو نفسه علي باشا جانينا.

(٢)خسرو باشا: (١٧٦٩-١٨٥٥) جنرال ورجل دولة تركي، غدا الوزير الأوّل لدى السلطان محمود الذي ثار عليه علي تبلن.

كنت على الميمنة، ورأيت خسرو الداهية يداهم مركزنا . . . وعند ذاك وبحركة التفاف سريعة مباشرة على طريقة مورا، حملت حملة قسمت فيها رتل خسرو الى نصفين، وتركته يجتاز المركز ويبقى مكشوفاً أمامنا؛ تدركون بعد هذا الانتصار مدى سرور عليّ الذي أقبل يقبلني.

قال الكونت دي سريزي بلهجة ساخرة، هل يتّبع ذلك في الشرق؟

ردّ الرسّام: نعم ياسيدي، إنه متبّع في كل مكان.

تابع جورج: أبعدنا خسرو ثلاثين فرسخاً عن البلاد، وكان كطريدة تفرّ من الصيّاد، إنّ هؤلاء الأتراك فرسان ماهرون. وأعطاني علي يطقانات، وبنادق وسيوفاً! . . . وكان لي منها قدر ماأريد. وقدّم لي هذا المهرج الشيطاني، عند عودته الى عاصمته، عروضاً لاتلائمني أبداً. فهؤلاء الشرقيون غريبون عند تصميمهم على فكرة. . . اذ أراد علي أن يجعلني أثيره، ووريثه. أما أنا فلم أعد أحتمل تلك الحياة، اذ أنه بعد كل حساب ليس إلا متمرداً على الباب العالي، ورأيت من المناسب أن أتوجه الى الباب. ولكن يجب أن أنصف السيد دي تبلن، اذ غمرني بالهدايا، والجواهر، ومنحني عشرة آلاف تلاري، وعشرة آلاف قطعة ذهبية، واغريقية جميلة كجارية، وفتى البانياً كغلام[1]، وحصاناً عربياً كمطيّة.

هيّا، إن علي باشا جانينا رجل غامض؛ ويلزمه مؤرخ، ففي الشرق وحده تُصادف هذه النفوس الفولاذية التي تقضي عشرين سنة وهي تعمل للانتقام وغسل عار اساءة وُجّهت اليها في صباح يوم ما. وهو أولاً صاحب أجمل لحية بيضاء يمكن رؤيتها، ووجه قاس، صلب الملامح.

قاطع الأب ليجه: لكن ماذا فعلت بكنوزك.

- آه! إنّ هؤلاء الناس ليس لديهم سجل كبير يكتتب به، ولامصرف

---

(١) يلمح القاص الى العلاقة الجنسية مع الغلمان.

كمصرف فرنسة؛ حملت أموالي على مركب يوناني صغير وحيد الصارية استولى عليه من قبل قبطان باشا بالذات، وقد كدت أوضع على خازوق في سميرن، نعم، قسماً لولا السيد دي ريفيير[1] سفيرنا الموجود هناك لاعتبرت أحد المتواطئين مع علي باشا، ولما تمكنت إلا من انقاذ رأسي، ولأصرّح بذلك صدقاً[2]؛ لكن العشرة الآف تلاري، والألف قطعة ذهبية، الأسلحة، أوه! كلّ شيء، التهمها الشدق الكانز لثروة قبطان باشا؛ وزاد من صعوبة وضعي أن هذا القبطان باشا لم يكن إلا خسرو، فهذا الشخص الغريب تمكن أن يحصل بعد هزيمته على هذا المكان وهذه الرتبة المعادلة لأميرال البحر في فرنسة.

قال الأب ليجه: الذي كان يتابع بانتباه قصة جورج: لكن يبدو لي أنه كان في سلاح الفرسان!

هتف جورج: أوه! كم يبدو لي الشرق مجهولاً في مقاطعة السين وواز، يا سيدي، هوذّا الأتراك: أنت مزارع، يحلو لباديشاه أن يسميك مارشالاً، واذا لم تقم بوظيفتك كما يحلو له، فيالخسارتك! سيقطع رأسك: إنّها طريقته في عزل الموظفين. يمكن لبستاني أن يعين محافظاً، ولوزير أول أن يغدو مواطناً بسيطاً. إن العثمانيين لايعرفون أبداً قوانين القدم والتسلسل الوظيفي. وخسرو انتقل من فارس الى بحّار، وكلّفه الباديشاه محمود بالقبض على علي عن طريق البحر، والواقع أنّه تمكّن من السيطرة عليه إنّما بمساعدة الانكليز، الذين نالوا النصيب الأكبر، هؤلاء الأنذال! لقد وضعوا يدهم على الكنوز. كما أنّ هذا الخسرو الذي لم ينس درس الفروسية الذي أعطيته اياه تعرّف عليّ، وكان يمكن أن يقضي عليّ، أوه! جثة هامدة! لو لم تخطر لي فكرة أن اتصل بصفتي

(١) الدوق ريفيير (١٧٦٣-١٨٢٨) سمي سفيراً في القسطنطينية في العام ١٨١٦ واستدعي في العام ١٨٢٠.

(٢) يوحي جورج هنا بأنّه كان معرّضاً للخصي ثم البيع كعبد مخصي.

كفرنسي، وكعسكري بالسيد دي ريفيير، وتهلّل السفير لابراز نفوذه بالمطالبة بحريتي، ومن مزايا الأتراك أنهم يطلقون سراحك بذات السهولة التي يقطعون بها رأسك، فهم لايبالون بشيء، وتمكن قنصل فرنسة[1]، وهو رجل لطيف وصديق لخسرو أن يستردّ لي ألفي تلاري، وهكذا يمكنني أن أقول إن اسمه سيبقى محفوراً في قلبي . . .

سأل السيد دي سريزي: وماسمه؟ . وبدت على وجهه بعض علائم الدهشة، عندما نطق جورج فعلاً باسم أحد أشهر قناصلنا العامين في سميرن. ثم تابع.

«حضرت، بالمناسبة، تنفيذ حكم الاعدام بقائد حامية سميرن الذي أمر الباديشاه خسرو بالقيام به، وهو من أغرب الأشياء التي شاهدتها، رغم كثرة مشاهداتي؛ وسأحدثكم عن ذلك عند الغداء. من سميرن انتقلت الى اسبانية، عندما علمت بقيام ثورة فيها. أوه! ذهبت مباشرة الى مينا[2]، الذي اتخذني مرافقاً له، ومنحني رتبة عقيد، وقد حاربت من أجل القضية الدستورية التي ستنهار اذ أننا سندخل الى اسبانية في أحد هذه الأيام.

قال الكونت دي سريزي بقسوة: وأنت ضابط فرنسي؟ إنك تعتمد كثيراً على كتمان أولئك الذين يستمعون اليك.

قال جورج: لكن ليس بيننا وشاة.

قال الكونت: لكن ألا تعلم ياعقيد جورج أن مجلس الأعيان يلاحق في هذه الفترة مؤامرة، تجعل الحكومة قاسية جداً بالنسبة للعسكريين الذين يحملون

---

(١) هو البارون فليكس دي بوجور وفقاً لتحقيق آن ماري مينينجه.

(٢) فرنسوا اسبوز مينا (١٧٨١-١٨٣٦) حارب نابوليون، ثم غدا زعيم القوات الدستورية المعارضة في العام ١٨٢٣ لفرديناند السابع وللقوات الفرنسية المرسلة بقيادة الجنرال مونسي لدعم الملكية في اسبانية.

السلاح ضد فرنسة، والذين يحيكون مؤامرات في الخارج بهدف خلع سادتنا الشرعيين[١]. . ».

عند تلك الملاحظة الرهيبة، بدا الاحمرار على وجه الرسّام حتى أذنيه، ونظر الى ميستيغري الذي ظهر عليه بدوره الذهول.

قال الأب ليجه: «حسن، وماذا بعد؟.

أجاب الكونت: لو أنني من رجال القانون، مثلاً، أليس من واجبي أن أعمل على توقيف مرافق مينا من قبل درك مخفر بيرفيت، واستحضر جميع المسافرين الذين في العربة كشهود؟ هذه الكلمات قطعت على جورج كل حديث، خاصة وأن العربة وصلت الى أمام مخفر الدرك، حيث كان العلم الأبيض يخفق، وفقاً للتعابير المألوفة، مع النسيم العليل[٢].

قال أوسكار: إن أوسمتك الكثيرة لاتسمح لك بهذا العمل الجبان.

همس جورج في أذن أوسكار: سنتناوله ثانية.

هتف ليجه وقد تضايق من معارضة الكونت دي سريزي، وأراد أن يغيّر موضوع المحادثة: أيّها العميد، كيف تتم الزراعة، وكيف يقوم الناس بالمناوبات الزراعية في البلدان التي زرتها.

- أولاً يجب أن تدرك، أيّها الرجل الطيّب أن هؤلاء الناس مشغولون بتدخينهم عن تسميد أرضهم[٣]. . . ».

لم يستطع الكونت الامتناع عن ابداء ابتسامة أعادت الاطمئنان الى الحكواتي، فتابع «. . . لكن لديهم طريقة في الزراعة ستبدو لكم غريبة، فهم

---

(١) يلعب الكونت دوراً هنا في إرباك هذا النّفاج الشاب.

(٢) في العام ١٨٢٢ أرادت حكومة ڤيليل أن توطد السلطة الملكية بتشديد قبضتها السياسية ورفع الراية البيضاء الممثلة للملكية المطلقة.

(٣) جناس بين Fumer: دخّن و Fumer سمّد الأرض.

لايزرعون شيئاً، وهذه هي طريقة استثمارهم للأرض، فالأتراك واليونانيون يأكلون البصل والأرز . . . وهم يجمعون الأفيون من نبات الخشخاش، مما يعطيهم دخلاً كبيراً، ثم لديهم التبغ الذي ينبت تلقائياً، التبغ اللاذقي[1] المشهور؛ ثم التمور! عديد من السكريات التي تنمو دون زراعة، إنها بلاد غنية بالموارد والتجارة، كما ينسج كثير من السجّاد في سميرن، وهو ليس غالياً. قال ليجه: لكن إن كان السجّاد من الصوف فهذا يأتي من الغنم، والغنم يقتضي وجود مروج، ومزارع، وزراعة . . .

رد جورج: يجب وجود شيء من هذا القبيل، لكن الأرز ينبت في الماء، ومع ذلك فأنا كنت دائماً على السواحل، ولم أر إلا بلاداً دمّرتها الحروب. كما أنني أنفر نفوراً كبيراً من الاحصائيات[2].

سأل الأب ليجه: والضرائب؟

- آه! الضرائب ثقيلة. يؤخذ منهم كل شيء، لكن ترك لهم البقية. وقد عرف باشا مصر مزايا هذا النظام فقام بتنظيم ادارته، عندما تركته، على أساسه.

رد الأب ليجه الذي لم يفهم شيئاً: لكن كيف.

أجاب جورج: كيف؟ . . يوجد مأمورون يستولون على كل المحاصيل ولايتركون للفلاحين إلا مايساعدهم على العيش. وهكذا ففي هذا النظام لاتوجد معاملات ورقية، ولابيروقراطية، هذا الجرح في فرنسة . . . آه! هوّذا! . .

قال المزارع: ولكن على أي أساس؟

- إنّها بلاد استبداد، هذا كل شيء، ألم تقرؤوا التعريف الرائع الذي

(١) يبدو أن تبغ وتنباك اللاذقية المستثمر على الساحل السوري كان معروفاً في العالم فقد كتب بلزاك في ٢ آذار ١٨٣٨ رسالة للسيدة هانسكا يقول فيها: «إن وجدت في موسكو تبغ اللاذقية الأصلي فأرسلي لي كمية مناسبة».

(٢) لم تسد كلمة الاحصاء إلا بعد دراسات شاتونوف ودوين في ١٨٢٦-١٨٢٧ وبالتالي فاستخدامها في محادثة تجري في ١٨٢٢ يبدو مستغرباً.

أعطاه مونتسكيو للاستبداد. «المستبد كالمتوحش الذي يقطع الشجرة من جذورها ليحصل على ثمارها[1].

قال ميستيغري: ويريدون أن يصلوا بنا الى هذا[2]، لكن «الملدوغ يخشى جرّة الحبْل» قال الكونت دي سريزي: وسيصلون اليه، لذلك يفعل جيداً من لديه أرض فيبيعها. فالسيد شينر قد رأى كيف تتم هذه الأشياء في ايطالية.

تابع شينر: وحياة باخوس، إنّهم يستخدمون أساليب قاسية جداً، لكن الفخ قد أطبق إن الايطاليين شعب طيب جداً، شريطة أن يُترك لهم شيء من الحرية في قتل المسافرين على الطرقات.

تابع الكونت: لكن أنت لاتتزّين بزر وسام جوقة الشرف الذي حصلت عليه في العام ١٨١٩، أهي موضة عامة اذاً؟!».

بدا الاحمرار حتى الأذنين على شينر المزّيف وتلميذه ميستيغري.

ردّ شينر: «الأمر مختلف بالنسبة لي، فأنا لاأريد أن يتعرف عليّ أحد، فلاتكشف أمري، ياسيدي؛ اذ يفترض أنني رسّام صغير لاشأن له، وأنا أتظاهر بأنني مزخرف وفي طريقي الى قصر حيث يجب ألا أثير أية شبهة.

قال الكونت: آه! هل هو حظ طيّب في مغامرة عاطفية...؟ أوه! إنك سعيد في شبابك..».

كان أوسكار يستشيط غيظاً لأنه لاشيء، ولايمكنه أن يدّعي بشيء، وهو ينظر الى العميد زرنْي- جورج، والرسّام الكبير شينر، ويحاول أن يتقمص في شيء ما؛؟ ولكن ماذا يمكن أن يكون فتى في التاسعة عشر من عمره، مُرسل لخمسة عشر أو عشرين يوماً الى الريف، لدى وكيل أملاك برسِل؟ وكان نبيذ أليكانت يلْهب رأسه، واعتداده بنفسه يدفع الدم للغليان في عروقه. وهكذا

---

(١) ورد هذا التعريف في كتاب «روح الشرائع» I, ١٣».

(٢) تلميح الى مشاريع المتطرفين بالانقلاب على الدستور، ونظام التمثيل النيابي.

فعندما لمّح شينر الشهير الى مغامرة رومنسية ستكون السعادة فيها من الكبر بقدر ماتتضمن من خطر، نظر اليه بعينين تتوقّدان غضباً وحسداً.

قال الكونت بمظهر الحاسد الساذج: «آه! يجب الهيام جيّداً بالمرأة التي تبذل من أجلها هذه التضحيات الكبيرة.

ردّ ميستيغري: أية تضحيات؟...

أجاب الكونت: ألا تعلم اذن ياصديقي الشاب أن سقفاً يرسم من قبل مثل هذا الفنان الكبير يغطى بالذهب؟ ثم تابع وهو ينظر الى شينر: لنر، إن كان الصندوق العام للدولة يدفع لك مقابل زخرفة سقفي صالتين في اللوفر ثلاثين ألف فرنك، فإن سقفاً في قصر أحد البورجوازيين- كما تقولون بالنسبة لنا في محترفاتكم- تساوي زخرفته عشرين ألف فرنك على الأقل، لكن المزخرف المجهول لايتقاضى أكثر من ألفي فرنك.

ردّ ميستيغري: ليست النقود وحدها هي الخسارة الكبرى؛ إنّما من المؤكد أن هذا العمل الذي سيكون تحفة كبرى لن يوقّع حتى لاتتعرّض تلك المرأة للشبهة، هتف السيد دي سريزي: آه! إنني مستعد لاعادة جميع أوسمتي الى ملوك أوروبة إن استطعت أن أحبُّ مثل هذا الحب الموحي لهذا الشاب بهذه التضحيات الجليلة.

ردّ ميستيغري: آه! هوّذا، إنّه الشباب، يحظى بالحب والنساء وكما يقال: زيادة الخير خير.

تابع الكونت: ولكن ماذا تقول السيدة شينر؟ اذ أنّك تزوّجت عن حبّ أدلاييد دي روفيل الفاتنة أثيرة الأميرال العجوز دي كرجاروه[1]، الذي جعلك تحصل على زخرفة سقفي اللوفر بواسطة نسيبه الكونت دي فونتين.

---

(١) انظر قصة «المحفظة».

علّق ميستيغري بالقول: وهل يُذكَّر رسّام كبير بزواجه وهو في سفر؟

هتف الكونت دي سريزي متظاهراً بالبلاهة، هي ذي اذن مبادىء الأخلاق في محترفات الرسم!

قال شينر مستعيداً برودة الأعصاب التي فقدها للحظة بعد أن أعلن الكونت عن معرفته بماضي شينر وأعماله في اللوفر: وهل مبادىء الأخلاق أكثر سمواً في البلاطات التي منحتك أوسمتك[1]؟

أجاب الكونت: لم أطلب أياً منها وأنا أعتقد أنني أستحقها كلّها.

ردّ ميستيغري: وهي تليق بك كساق من خشب لموثق عقود».

لم يرد السيد دي سريزي أن يكشف عن نفسه، وتظاهر بالسذاجة وهو ينظر الى وادي غروسلي المنكشف والعربة تأخذ في بات- دوا طريق سان- بريس تاركة عن يمينها طريق شانتيي.

قال أوسكار متمتماً: «خذ اذا!

سأل جورج الرسّام الكبير: أتكون روما جميلة بهذا القدر الذي يشاع عنها؟

- ليست روما جميلة إلا لمن يحب، اذ يجب أن تكون صاحب هوى لتعجبك كمدينة؛ وأنا أفضل عليها البندقية بالرغم من أنني كدت أقتل فيها.

قال ميستيغري: الواقع لولا نجدتي لما نجوت من هذا المأزق. إنَّه اللورد بايرون، هذا المهرج الشيطاني، من سبب لك ذلك. أوه! كم كان هذا الانكليزي ذو السحنة الصينية البشعة غضوباً!

- قال شينر: صه! لاأريد لأحد أن يعرف مشكلتي مع اللورد بايرون.

---

(٢) تعبير عن الجرأة في النقد لدى الشباب المعتنق للمبادىء الليبرالية، لكن جواب الكونت يقطع الطريق أمام الاسترسال في هذا الجدل.

أجاب مستيغري: اعترف مع ذلك، بأنك كنت سعيداً لأنني تعلمت أصول المراكلة*.

كان بييروتن بين وقت وآخر يتبادل مع الكونت دي سريزي نظرات فريدة من شأنها أن تثير قلق المسافرين الخمسة لو أنهم كانوا أكثر مراساً.

هتف سائق عربة إيل- آدم: آه! لوردات، وباشاوات، وأسقف بثلاثين ألف فرنك، إنني أقلُّ هذا اليوم سلاطين في عربتي. أي بخشيش سأناله؟

قال ميستيغري بمكر: مع الأخذ بالحسبان أن الأجرة مدفوعة.

تابع بييروتن: وهذا يأتيني في الوقت المناسب؛ فأنت تعرف جيداً أيّها الأب ليجه، عربتي الجديدة التي دفعت سلفة لها ألفي فرنك... الواقع أن هؤلاء المصنعين الأوباش، الذين يجب أن أسدّد لهم غداً ألفين وخمسمئة فرنك لم يرضوا أن يقبضوا ألف فرنك ويقسطوا لي ألفاً وخمسمئة فرنك على شهرين!... فهؤلاء العتاة يريدون كامل المبلغ؛ لقد بلغت بهم القسوة هذا الحدّ مع رجل يعمل باستقامة منذ ثمان سنوات، وهو ربُّ عائلة، إنّهم يعرضونني لخطر فقدان كل شيء، العربة والمال، إن لم أتمكن من الحصول على هذه الألف فرنك البائسة. هه! بيشيت؛ إنهم لايجسرون على هذا التصرف مع أصحاب مكاتب السفريات الكبرى، هيا لنتابع.

قال تلميذ الرسام: آه! أجل! لامالَ لديك، لاشحمة على فطيرتك.

أجاب الكونت، وقد رأى في هذه الشكوى الموجهة للأب ليجه نوعاً من كمبيالة مسحوبة عليه: «ليس عليك إلا أن تجد ثمانمئة فرنك.

قال بييروتن: هذا صحيح، اجر، اجر، ياروجو.

توجّه الكونت الى شينر قائلاً: لاشكّ أنك رأيت أسقفاً جميلة في البندقية!

---

* المراكلة: تبادل الركل بالأرجل: وهو نوع من العراك والتضارب.

أجاب شينر : كنت غارقاً في الحبّ بحيث لم أنتبه الى مالم أحسبه إلا ترّهات ووجب مع ذلك أن أنسى غرامي ، اذ أنني تلقيت في مناطق البندقية ودلماسية درساً قاسياً .

سأل جورج : هل يمكنك ذكره؟ فأنا أعرف دلماسيه جيداً

- الواقع إن كنت قد ذهبت الى هناك ، فلاشك أنك عرفت أن في نهاية الأدرياتيك يتجّمع قدماء القراصنة ولصوص البحر الذين نجوا من المشانق ، وتوقفوا عن نشاطهم . .

قال جورج : «تعني الأوسكوك»[1] .

بسماع هذه الكلمة المعبّرة فعلاً عن الاسم الصحيح لهؤلاء المغامرين ، الذين عرفوا في المناطق الايليرية[2] التي سبق أن زارها الكونت موفداً من قبل نابوليون ، أدار هذا رأسه لشدة اندهاشه ، وتابع شينر كلامه وكأنه يتذكر اسماً ما : «في تلك المدينة التي يصنع بها خمر الكرز . .

قال جورج : إنّها زارا[3] ، وقد ذهبت اليها ، وهي تقع على ساحل البحر .

تابع الرسام : إنّها هي ، وقد زرتها بدوري لمشاهدة المنطقة ، فأنا أعبد المناظر الطبيعية وها أنا للمرة العشرين أرغب في رسم هذه المناظر ، التي أرى أن لاأحد يفهمها باستثناء ميستيغري الذي سيجدّد يوماً هو بما ، ورويزدال ، وكلود لورين ، وبُوسِن ، وغيرهم .

هتف الكونت : ولكن ، فليجدّد واحداً منهم فقط ، فهذا يكفيه .

قال أوسكار : إن كنت ستقاطع دائماً السيّد فستختلط علينا الأمور .

---

(١) الاوسكوك : جماعة من المغامرين السلاف الذين يعودون في الأصل الى البلقان وقد أبادهم الأتراك .

(٢) المناطق الايليرية : هي مناطق ايستريا ، وكارنسيا ، ودلماسية ، وفريول ، وكارنيول الجبلية البلقانية المجاورة للادرياتيك وقد قسمت بين النمسة وايطالية ويوغوسلافية .

(٣) زارا أو زادا : مدينة في كرواتية على بحر الادرياتيك .

وقال جورج للكونت: كما أن هذا السيد لايوجّه اليك الكلام.

قال ميستيغري بوقار: ليس من التهذيب المقاطعة في الكلام، ولكننا قمنا بمثل ذلك جميعاً، وسنخسر كثيراً إن لم نضمّن حديثنا بعض الطرف الصغيرة، ونحن نتناول الأفكار.

إن جميع الفرنسيين متساوون في الكوكو كما قال حفيد جورج، هكذا تابع أيّها العجوز اللطيف... مازحنا. فهذا يحدث في أحسن المجتمعات. وأنت تعرف المثل القائل: يجب أن تعوي مع الذئاب.

تابع شينر: ذكرت لي أعاجيب عن دلماسية، فذهبت اليها تاركاً ميستيغري في البندقية؛ في الفندق.

قال ميستيغري: في اللوكندا، فلنترك اللون المحلي.

- يقال إن زارا بلدة حقيرة..

قال جورج: نعم، لكنها محصّنة.

قال شينر: هذا أكيد، والتحصينات لعبت دوراً كبيراً في مغامرتي. وفي زارا كثير من العطّارين، وقد سكنت لدى أحدهم. في البلاد الأجنبية يمتهن الناس جميعاً، كمهنة رئيسة، تأجير الغرف المفروشة، أما مهنتهم الأخرى فثانوية. وفي المساء وقفت على شرفتي بعد أن أبدلت ثيابي الداخلية. وسرعان مالاحظت على الشرفة المقابلة امرأة؛ أوه! أيّة امرأة! يكفي القول إنّها اغريقية، أجمل مخلوقة في المدينة كلّها: عينان متطاولتان كحبتي لوز؛ أجفان تنطوي كفرجتي نافذة، أهداب كالفراشي، وجه بيضوي يخلب لبّ رفاييل، بشرة عذبة اللون، ظلال ضبابية مخملية... يدان... اوه!..

تابع ميستيغري: ليستا من زبدة كما هي الأيدي في رسوم مدرسة دافيد[1].

---

(١) كان الرومنسيون يعتبرون كبار رساميهم المفضلين دلاكروا وجريكو، ويظهرون كرههم للكلاسيكيين وخاصة دافيد.

هتف جورج: إيه! إنكما تحدثاننا باستمرار عن الرسم.

رد ميستيغري: آه! «الطبع غلب التطبع».

وتابع شينر: وثوبها! ثوب اغريقي أصيل. أتدركون، لقد أشعلت بي النار؛ وسألت ديافوا روس[1] فأنبأني أن هذه الجارة تسمى زينا. وأبدلت ثيابي الداخلية كان زوج زينا عجوزاً كريهاً، دفع لذويها ثلاثمئة ألف فرنك من أجل الزواج بها، لشهرة جمال تلك الفتاة، فهي فعلاً الأجمل في كلّ دلماسية، وإيليرية، والأدرياتيك، الخ... وفي تلك البلاد تشترى الزوجة دون رؤية..

قال الأب ليجه: لن أذهب اليها.

وتابع شينر: مرّت ليال، كان رقادي فيها يستنير بعيني زينا، فهذا العاشق الأوّل زوجها في السابعة والستين من العمر. لابأس! إنّما هو غيور ليس كنمر، اذ يقال أن النمور تغار كدلماسي، وهذا الرجل أسوأ من الدلماسي، إنّه يعادل ثلاثة دلماسيين ونصف، إنه أوسكوك، أو تريكوك، أو أركيكوك، في بيكوك[2].

قال ميستيغري: أخيراً إنه أحد هؤلاء الجسورين الذي «لايربط كلابه، رغم مئات الحرس السويسري».

علّق جورج ضاحكاً: ياللبراعة!

استأنف شينر: قرصان بل ربّما زعيم قراصنة، وبالتالي فقتل مسيحيٍ على شاكلتي بالنسبة لهذا الرجل أمر تافه جداً، بل ربّما استحسنه هذا النذل العجوز، البشع في ماضيه كقرصان اذ أنّ أحد الباشوات قطع أذنيه وفقأ عينه، في مكان ما، لكن هذا الأوسكوك، وهو الذي يملك الملايين، استخدم ببراعة العين الباقية

---

(١) العطّار صاحب المنزل.

(٢) تلاعب في الكلمات لايدل إلا على الهدف، اذ انتزع المتحدث من اسم جماعة USCOPUE جذر الكلمة Coque وهي تعني قشرة، وربط بها سوابق تري TRI: وتعني ثلاث، وARCHI وتعني قديم، وBi وتعني ثنائي كما تعني الكوخ إنما ليس للكلمات أية دلالة.

له، ليحيط بكل شيء فهو لايترك أبداً امرأته، كما أخبرني ديافوروس؛ لكنني رجوته بقولي:

«إن احتاجت الى خدمة منك، فسأحلّ مكانك متنكراً، إنّه دور يلاقي النجاح دائماً في مسرحياتنا». سيستغرق وقتاً وصف الأيام الثلاثة التي قضيتها على نافذتي، وهي من أسعد أوقات حياتي، كنت أتبادل النظرات مع زينا، وأبدل ملابسي الداخلية كل صباح. كان موقفاً حساساً جداً بقدر ماكانت أقل الحركات ذات معنى وتشكل خطراً، أخيراً فإن زينا، أدركت دون شك، أن غريباً، فرنسياً وفناناً، هو وحده القادر في العالم على مغازلتها وسط اللجج التي تحيط بها، ولما كانت تمقت قرصانها البشع فإنها ردّت على نظراتي بغمزات ترفع الرجل الى قبّة الجنة دون بكرات؛ وصلت الى مستوى دون كيشوت، تحمّست، وازددت حماسة، وأخيراً هتفت «وبعد، سيقتلني العجوز، لكنني سأذهب» وهجرت رسم مناظر الطبيعة، وانصرفت الى دراسة منزل الاوسكوك. وفي الليل

ارتديت ثيابي الداخلية الأكثر تضوّعاً بالعطر، واجتزت الشارع، ودخلت.

هتف أوسكار: الى المنزل؟

واستأنف جورج: الى المنزل؟

ردّد شينر: الى المنزل.

هتف الأب ليجه: الواقع إنك جسور متهوّر، لو أنني مكانك لما ذهبت..

أجاب شينر: «خاصة وأن الباب لايتسع لدخولك». ثم تابع: «ودخلت، ولقيت يدين تأخذان بيديّ. ولم أقل شيئاً لأن هاتين اليدين الناعمتين كقشارة بصلة طلبتا مني الصمت، وهُمس في أذني بالفينيسية: «إنّه نائم»، وعندما تأكّدنا أن مامن أحد سيصادفنا انطلقنا أنا وزينا نتنزه عند الأسوار، إنّما ترافقنا مربية عجوز دميمة كبوّاب هرِم، كانت تتبعنا كظلنا، دون أن أستطيع اقناع

السيدة القرصانة بالانفصال عن هذه الرفقة الحمقاء وفي مساء اليوم التالي أعدنا الكرّة، وأردت أن أصرف العجوز، لكن زينا رفضت. وبما أن حبيبتي كانت تتكلم اليونانية، وأنا أتكلّم الفينيسية، فإننا لم نستطع التفاهم؛ وهكذا افترقنا مختلفين. قلت في نفسي وأنا أبدل ثيابي الداخلية: «من المؤكّد عدم وجود العجوز في المرّة القادمة، وستتصالح وكل منا يتحدث بلغته الأصلية..» والواقع أن العجوز هي التي أنقذتني! وسترون كيف تمّ ذلك. كان الطقس جميلاً جداً، وكي لاأثير الشبهات، رحت أتجوّل في الجوار، بعد تصالحنا، طبعاً. وبعد أن تنزهت لفترة على موازاة الأسوار، عدت بهدوء ويداي في جيبي، ورأيت الشارع مكتظاً بالبشر، جماهير غفيرة!... كما من أجل تنفيذ حكم بالموت. وانقضت هذه الجماهير عليّ، وأُوقفت، وقيدتُ، وسُيّرت محروساً برجال الشرطة. كلا! أنتم لاتعلمون، وأتمنى ألا تعلموا أبداً كيف ينظر جمهور هائج الى امرىء يعتبره قاتلاً، ويرمي بالحجارة، ويلاحقه صارخاً من أعلى الشارع الرئيس في بلدة صغيرة حتى أسفله منادياً بموته!... آه! كانت جميع الأعين تقدح بالشرر، وجميع الأفواه تنطلق بالشتائم؛ وهذه الجذوات من الحقد الملتهب تنطلق بصرخة مروّعة: «الى الموت!.. فليسقط القاتل!..» فيتردّد صداها كنفخة الصور.

سأل الكونت: كان هؤلاء الدلماسيون يصرخون اذاً بالفرنسية! إنك تقصّ علينا هذا المشهد وكأنّه حدث لك بالأمس».

بدت الحيرة على شينر لكن ميستيغري البارع أنقذه من ورطته بالقول: «إن الفتنة تتكلّم بلغة واحدة في كل مكان.

تابع شينر: أخيراً عندما مثلت أمام قضاة البلاد، علمت أن القرصان الملعون مات مسموماً من قبل زينا؛ وكم رغبت في أن أتمكن من إبدال ثيابي الداخلية، وأقسم بشرفي لم أكن أعرف عن هذه المأساة شيئاً، ويبدو أن الاغريقية كانت تمزج بعض الأفيون (خاصة والخشخاش متوفر بكثرة في المنطقة كما ذكر

السيد) في شراب القرصان بحيث تستطيع أن تكسب بعض الوقت للتنزه، لكن المرأة المسكينة أخطأت في كمية الجرعة ذلك المساء.

وقد سبّبت ثروة القرصان اللعين كل مصيبة زيناي، لكنها شرحت بكل براءة الحادثة، وبناء على تصريح العجوز ثبت أن لاعلاقة لي بالموضوع فأخلي سبيلي وسمح لي بعد موافقة عمدة البلدة ومفوّض الشرطة النمسوية بالذهاب الى روما، وتنازلت زينا عن قسم كبير من ثروة الأوسكوك الى الورثة وللعدالة، فاعتبرت القضية اهمالاً، وفق ماقيل لي، وعوقبت بوضعها مدة سنتين في أحد الأديرة، حيث ماتزال حتى الآن. وسأذهب لرسمها هناك، اذ أن كل شيء سينسى بعد عدة سنوات. هو ذا الحماقات التي ترتكب في سن الثامنة عشر.

قال ميستيغري: وتركتني دون أي فلس في اللوكندا في البندقية، وذهبت منها الى روما للقياك وأنا أرسم صوراً للأشخاص لقاء خمسة فرنكات للقطعة، كانت لاتدفع لي أحياناً، لكنها كانت فترة من أجمل الأيام «فالسعادة، كما يقال، لاتسكن تحت السرَر المذهبة».

هتف شينر: هل تتصورون الأفكار التي انتابتني وأنا في سجن دلماسي، حيث رميت دون حماية، وأنا مسؤول أمام نمسويي دلماسية، ومهدّد بأن أفقد حياتي لأنني تنزهت مرتين مع امرأة أبت إلا أن ترافقها بوابتها. هوذا النحس!.

قال أوسكار بسذاجة: كيف حدث لك هذا؟

قال الكونت بمكر: ولماذا لايحدث هذا للسيّد، اذ سبق حدوثه، خلال الاحتلال الفرنسي لإيليرية، لواحد من أكثر ضباط مدفعيتنا وسامة؟

ردّ ميستيغري على الكونت بحذق: وهل صدقت ضابط المدفعية؟

وسأل أوسكار: هل هذا كلّ شيء؟

قال ميستيغري: الواقع أن ليس بامكانه أن يقول لك إن رأسه قد قطع. «فطالما بقينا أحياء يمكننا أن نضحك».

سأل الأب ليجه: هل في تلك البلاد مزارع؟ وكيف يتمّ استثمارها؟

قال ميستيغري: تزرع المارسكا[1] وهي نبات يرتفع بثماره حتى الفم ويُصنع منه مشروب كحولي باسم الماراسكن.

رد الأب ليجه: آه!

أجاب شينر: لم أبق في تلك المدينة إلا ثلاثة أيام، وخمسة عشر يوماً في السجن، ولم أشاهد شيئاً حتى ولا الحقول التي تزرع بها الماراسكا.

قال جورج للأب ليجه: إنه يسخر منك، فالماراسكا ترد بالصناديق.

كانت عربة بييروتن تهبط آنذاك أحد سفوح وادي سان -بريس السريع الانحدار لتصل الى النزل الواقع في وسط تلك البلدة، حيث يتمّ التوقف لمدة ساعة تقريباً لاراحة الخيل واطعامها وسقايتها، وكانت الساعة حوالي الواحدة والنصف.

هتف صاحب النزل في اللحظة التي توقفت فيها العربة أمام بابه: إيه! هاهو الأب ليجه؛ هل ستتغدّى؟

أجاب المزارع الضخم: وجبة واحدة في اليوم، سنتناولها هنا.

قال جورج وهو يمسك بعصاه ويرفعها كما يرفع السلاح بطريقة فروسيه أثارت اعجاب أوسكار: أعدد لنا غداءً.

اغتاظ أوسكار عندما رأى هذا المغامر الخليّ البال، يسحب من جيبه علبة من قش مجدول ويخرج منها سيكاراً أشقر أخذ يدّخنه على عتبة الباب منتظراً الغداء.

قال جورج لأوسكار: أتدخن السيكار؟

أجاب الطالب السابق وهو ينفخ صدره الصغير متفاخراً: أحياناً».

---

(١) نوع من الكرز الحامض يُصنع منه مشروب كحولي.

فتح جورج العلبة وقدّمها لأوسكار وشينر .

قال الرسّام الكبير : اللعنة! سيكار بعشرة فلوس!

قال المغامر : هذا مابقي مما حملته معي من اسبانية . هل تتغدون؟

قال الفنان : كلا ، فأنا مدعوٌّ على الغداء في القصر ، عدا عن أنني تناولت وجبة خفيفة قبل السفر .

وسأل جورج أوسكار : وأنت؟

قال أوسكار : لقد تغديت .

ودّ أوسكار لو يخسر عشر سنوات من عمره ويحصل على جزمة وشريط رباط ران .

وكان يعطس ، ويسعل ، ويبصق ، ويستقبل الدخان بتقطيبات لم يستطع اخفاءها .

قال شينر أنت لاتعرف كيف تدخن ، انظر؟!

وسحب شينر ، بوجه ساكن ، نفثة من سيكاره ، وأطلقها من أنفه دون أي تشنج ؛ ثم سحبة أخرى احتفظ بها في حلقه ، ثم نزع السيكار من فمه ، ونفخ الدخان بلطف في الهواء .

قال الرسّام الكبير : هكذا أيّها الشاب .

قال جورج وهو يقلّد شينر ، لكن مع ابتلاع الدخان دون أن يخرج منه شيئاً : هوذا طريقة أخرى ، أيّها الشاب .

فكّر أوسكار المسكين وهو يجرب أن يدخن ببراعة : «كم يظنُّ أهلي أنهم أحسنوا تثقيفي!» وأحسّ بغثيان شديد بحيث تخلّى بكل طيبة خاطر عن سيكاره لميستيغري الذي راح يدخّنه بسرور ظاهر بعد أن قال : «آمل ألا تكون مصاباً بأمراض معدية؟»

تمنّى أوسكار لو كان على قدر من القوة يسمح له بتوجيه لكمة لميستيغري.

قال وهو يشير الى العميد جورج: «كيف ينفق! ثمانية فرنكات ثمن نبيذ أليكانت وتلموز، وأربعين فلساً للسيكار، وغذاءه الذي سيكلفه..

ردّ ميستيغري: عشرة فرنكات على الأقل»، لكن الأمر هكذا، «فالسمكات الصغيرة تصنع الأنهار الكبرى».

قال جورج للمزارع: آه! أيّها الأب ليجه، سنشرب جيّداً زجاجة من خمر بوردو.

هتف أوسكار: سيكلفه غداؤه عشرين فرنكاً، وهكذا فهو ينفق حتى الآن أكثر من ثلاثين فرنكاً.

وأحسّ أوسكار بعقدة نقص تكاد تقتله، فجلس على صوة، وغاب في حلم يقظة، دون أن يتنبه الى أن بنطاله قد تشمّر في جلسته هذه فظهرت وصلة أعلى الجورب العتيق مع تطويلة البنطال الجديدة، وهي تحفة جهدت أمّه في ملاءمتها له.

قال ميستيغري وهو يشمّر قليلاً بنطاله ليظهر جورباً مماثلاً: إنّنا زملاء في الجوارب؛ ووفقاً لقول المثل (الاسكافي حافي والحائك عريان).

دفعت هذه الفكاهة الكونت دي سريزي، الواقف وقد صالب ذراعيه تحت البوابة الكبرى، خلف المسافرين، الى الابتسام. فأيّا كان جنون هؤلاء الشباب، فرجل الدولة الرصين يحسدهم على عيوبهم، وقد أحب تبجّحاتهم، وأعجب بحيوية فكاهاتهم.

سأل صاحب النزل الأب ليجه وهو يشير الى بغل للبيع في اسطبلاته: «وبعد هل حصلت على مولينو؟ اذ أنك ذهبت الى باريس لتأمين مبلغ من المال لهذا الغرض. سيكون غريباً أن تستطيع «اللعب على ذقن» الكونت دي سريزي،

أحد أعيان فرنسة، ووزير الدولة». لم تبدر من الوزير، الاداري العتيق، أيّة بادرة تثير الاهتمام، والتفت ليفحص المزارع وهو ينصت الى الحديث.

ردّ الأب ليجه بصوتٍ منخفض: «لقد سلُق».

- يقيناً، هذا أفضل، كم أحب أن أرى هؤلاء النبلاء وقد هزُموا... وإن لزمك حتى عشرين ألف فرنك[1] فأنا أقرضك إياها. لكن فرنسوا سائق عربة سفريات توشار، المنطلقة في الساعة السادسة. أعلمني أن السيد مارجرون مدعو للعشاء هذا اليوم بالذات في برسل.

أجاب الأب ليجه: هذا مشروع معاليه، لكن لنا نحن أيضاً وسائلنا.

قال صاحب النزل: إن الكونت سيوظف ابن السيد مارجرون، وليس لديك وظائف تعرضها. قال الأب ليجه هامساً في أذن صاحب النزل: كلا؛ ولكن إن كان لدى الكونت وزراء يستعين بهم، فلديّ الملك لويس الثامن عشر وأنا أعتقد أن أربعين ألفاً من الأوراق النقدية التي تحمل صورته، تُعطى للوكيل مورو، ستسمح لي بشراء مولينو بمئتين وستين ألف فرنك نقداً، مستبقاً السيد دي سريزي، الذي سيكون سعيداً في شرائها مجدداً بثلاثمئة وستين ألف فرنك بدلاً من أن يرى قطع الأرض تطرح واحدة بعد الأخرى في المزايدة.

هتف صاحب النزل: ترتيب جيد، أيها البورجوازي.

قال المزارع: أليس هذا الترتيب جيّداً؟

قال صاحب النزل: بعد كل حساب، إن المزرعة بالنسبة اليه تستحق هذه القيمة.

- إنّ مولينو تغلّ في الوقت الحاضر ستة آلاف فرنك صافية بعد تسديد الضرائب، وسأجدّد عقد الايجار بسبعة آلاف وخمسمئة فرنك لمدة ثمانية عشر عاماً، وهكذا يكون الايداع بأكثر من اثنين ونصف بالمئة؛ فالسيد الكونت لن

---

(١) هذا مايشير الى تعاون البورجوازيين في تلك الفترة، في محاولات نزع ملكية النبلاء.

يكون مغبوناً. وكي لايلام السيد مورو، فسأعرض من قبله كمزارع للكونت، وبذلك يبدو حريصاً على مصالح معلمه بتأمين دخل ثلاثة بالمئة تقريباً، ومستأجر يدفع جيداً.

- ماحصيلة الأب مورو من المشروع؟

- عجباً! إن كان الكونت سيمنحه عشرة آلاف فرنك فستكون حصيلته خمسين ألف فرنك. لكنه يستحقها.

قال صاحب النزل: زد على أن الكونت مهتم جيداً ببرسل، وهو غني جداً، لكنني لم أره أبداً.

قال الأب ليجه: وأنا كذلك، لكنه سيسكن فيها أخيراً، وإلا لما أنفق مئتي ألف فرنك في ترميم مكان السكن، لقد غدا جميلاً كقصر ملك.

- قال صاحب النزل: آه! حسن، حان الوقت ليقطف مورو ثمرة أتعابه.

- قال ليجه: نعم، فعندما يغدو المعلمون هنا، لن يضعوا أعينهم في جيوبهم.

لم تفت من هذه المحادثة التي تمت بصوت منخفض كلمة لم يسمعها الكونت.

فكر الكونت وهو ينظر الى هذا المزارع الضخم وهو يدخل الى المطبخ: «إنّ لدي هنا البراهين التي أسعى لتقصيها هناك». ثم قال في نفسه: «ربما لم يتعد المشروع التخطيط له؟ وربّما لم يقبل مورو بشيء من هذا القبيل؟ . . .». اذ لشدّ ما نفر من الاعتقاد بأن وكيله قادر على المشاركة بمثل هذه المؤامرة.

كان بييروتن قد أنهى سقاية خيوله، وفكر الكونت أن السائق سيتغدّى مع صاحب النزل والمزارع؛ والحال أنه يخشى بعد كل ماسمعه أن يُفشى سرّه.

قال في نفسه: إن جميع هؤلاء الأشخاص يتفقون ضدنا وسيكون من نِعم الله أن نتمكن من إفساد مخططاتهم.

قال بصوت منخفض لصاحب العربة وهو يقترب منه : بييروتن ، وعدتك بعشرة لويسيات مقابل المحافظة على سرّي . لكن إن تستمر في كتمان اسمي (وسأعرف إن كنت قد تلفّظت به ، أو بدرت منك اشارة يمكن أن تكشف عنه ، حتى هذا المساء الى أيّ كان ، وفي أي مكان ، حتى ليل آدم) . فستحصل غداً صباحاً ، عند مرورك ، الألف فرنك لتتمم تسديد ثمن عربتك[1] . ثم ضرب على كتف بييروتن الذي شحب لونه سروراً وقال : لمزيد من الأمان ، لاتتغدَ ، وابق على رأس حصانيك .

- سيدي الكونت ، أنا أفهم موقفك ، فهيّا ، أليس التكتّم نسبة للأب ليجه؟

- عقّب الكونت : إنّه بالنسبة لجميع الناس .

- كن مطمئناً .

ثم فتح بييروتن باب المطبخ قائلاً : لنسرع . إننا متأخرون . اسمع أيّها الأب ليجه ، أنت تعلم أن أمامنا سفحاً يجب صعوده ، وأنا لست جائعاً ، سأسير ببطء وبذلك يمكنك اللحاق بي . سيفيدك قليل من السير على القدمين .

قال صاحب النزل : هل هناك مايغيظك يابييروتن ، ألا تنضم للغداء معنا؟ فالعميد سيدفع ثمن زجاجة نبيذ بخمسين فلساً عدا عن زجاجة شمبانية .

- لاأتمكن ، فلديّ سمكة يجب تسليمها في ستورس في الساعة الثالثة من أجل حفل عشاء ، ولايمكن التهاون مع هؤلاء الزبائن ، ولامع السمك .

قال الأب ليجه لصاحب النزل : حسن ، اقرن البغل الذي تريد بيعه لي بعربتك ، وستلحقنا ببييروتن ، وستتغدى باطمئنان ، ويمكنني أن أحكم على حصانك . يمكن لعربتك الرّجاجة أن تتسع لثلاثة أشخاص .

---

(١) الكرم الحقيقي الذي بدا من الكونت يقابل الروح العدوانية التي أظهرها صاحب النزل في عرضه المساعدة على المزارع .

وأمام فرحة الكونت، أعاد بييروتن بنفسه ربط حصانيه بالعربة، وكان شينر وميستيغري قد سبقاه في السير على الطريق؛ وماكاد يصل، بعد أن التقط الرسامين في منتصف الطريق بين سان بريس وبونسل، الى صعدة في الطريق، ترى منها إكوان، وقبة جرس مسنيل، والغابات التي تزنّرمنظراً في غاية الروعة، حتى سُمع عدو حصان يجرّ الرجّاجة التي تنبىء بقرع حديد عجلاتها عن وصول الأب ليجه ورفيق مينا اللذين التحقا بعربة بييروتن. ومافتىء جورج يحدّث الأب ليجه عن جمال مضيفة سان بريس؛ لكنه هتف والعربة تدور حول السفح لتهبط الى مواسيل: «ألا ترى، أيّها الرسّام الكبير، إن هذا المنظر ليس سيئاً؟

– باه! يجب ألا يدهشك، يامن شاهد الشرق واسبانية.

– ومن مايزال لديه سيكاران! إن كان تدخينهما لايزعج أحداً، فيجب أن ننهيهما ياشينر؟ خاصة وأنّ الشاب الصغير قد اكتفى ببضع نفثات».

التزم الأب ليجه والكونت بالصمت مما اعتبر موافقة وهكذا سكت القصاصان وانشغل كل منهما باشعال سيكاره، بينما قال أوسكار المغتاظ من تسميته شاب صغير:

إن لم أكن مساعد القائد مينا أيّها السيد، وإن لم أذهب الى الشرق، فسأذهب على الأرجح يوماً في عربة خاصة. فالسلك الذي تعدنّي له عائلتي سيجنبني على ماآمل مضايقات السفر في الكوكو عندما أغدو في عمركم، فبعد أن أصبح شخصية، وما أن احتل مركزي حتى أثبت فيه...

– «الى آخره.. نقطة..!»رنّم ميستيغري مقلّداً صياح ديك فتي أبح، مما جعل كلمات أوسكار أكثر مدعاة للسخرية، اذ أن الفتى المسكين كان في المرحلة التي تنبت فيها اللحية، ويخشن فيها الصوت ليأخذ طابعه الرجولي.

ثم أضاف ميستيغري: وبعد كل حساب «فإن المتضادين يتلاقيان»..

قال شينر : يقيناً! لم يعد الحصانان قادرين على السير بمثل هذه الأثقال.

قال جورج برزانة : الى أي سلك تعدُّك عائلتك أيّها الشاب؟

أجاب أوسكار : الى السلك الدبلوماسي».

صدرت ثلاث قهقهات كالصواريخ من أفواه ميستيغري، والرسّام الكبير، والأب ليجه؛ وحتى الكونت لم يستطع مغالبة الابتسام، أما جورج فحافظ على برودة أعصابه.

قال العميد مخاطباً الضاحكين : «وحق الإله ليس هناك مايضحك».

ثم تابع كلامه متوجهاً الى أوسكار : «لكن يبدو لي أن والدتك المحترمة كانت لمدة ربع ساعة في وضع اجتماعي لايليق كثيرا بسفيرة... فقد كانت تحمل قُفّة جديرة جداً بالاحترام، ورقعة في حذائها.

قال أوسكار وقد بدرت منه حركة استنكار : أمي! أيّها السيد؟ إيه! كانت هذه احدى الخادمات عندنا.

هتف الكونت مقاطعاً أوسكار : هذه (نا) ارستقراطية جداً.

عقب أوسكارباعتزاز : إن الملك يقول : نحن.

منعت نظرة من جورج الرغبة في الضحك التي أحسّ بها الجميع، اذ أنه أفهم بذلك الرسّام وميستيغري مدى الضرورة في مداراة أوسكار لاستثمار هذه الفرصة السانحة للمزاح.

قال الرسّام الكبير للكونت وهو يشير لأوسكار : إن السيّد على حق، فالأشخاص المحترمون يقولون نحن، ومن لامستقبل لهم يقولون «عندي» هل يجب أن تتملكنا دائماً تلك العادة المستهجنة في أن نظهر على غير ما نحن فيه. إنّ رجلاً مثقلاً بالأوسمة المزّينة..

قاطع ميستيغري : هل استمر السيّد مزّيناً.

قال شينر: «إنّك لاتعرف أبداً أصول التخاطب في البلاطات الملكية». ثم التفت الى أوسكار قائلاً: «ياصاحب السعادة، أنا أطلب حمايتك.

قال الكونت: إنني أهنىء نفسي لأنني سافرت، دون شك، مع ثلاثة أشخاص شهيرين أو سيغدون بمنتهى الشهرة، رسام لامع؛ وعميد سيغدو لواءً، ودبلوماسي شاب سيعيد يوماً ما بلجيكة الى فرنسة[1]».

انتابت أوسكار موجة من الغضب بعد أن ارتكب جريمة «انكار أمّه»[2] الشنيعة، وقدّر مبلغ السخرية التي سيتناوله بها رفقاء رحلته، وعزم بأي ثمن على أن يتغلب على ريبتهم.

قال وهو يطلق من عينيه الشرر: ليس كل مايلمع ذهباً.

هتف ميستيغري: المثل لايقول هذا بل: «ليس كل مايلمع قوياً» إنّك لن تذهب بعيداً في الدبلوماسية اذا لم تمتلك جيّداً أمثالك.

- اذا كنت لاأعرف جيداً الأمثال، فأنا أعرف جيّداً طريقي.

قال جورج: يجب أن تذهب بعيداً، لأن خادمة منزلكم قد عبّأت جيوبك بالمؤن كأنّك ذاهب في رحلة عبر البحار: بسكويت وشوكولا...

ردّ أوسكار: نعم أيّها السيد، خبز خاص وشوكولا، لأن معدتي لاتهضم أبداً يخنة خضار نزل الطريق.

قال جورج: إن كلمة يخنة رقيقة كمعدتك.

تابع ميستيغري: هذه الكلمة على الموضة في أحسن الأوساط وأنا أستخدمها في مقهى «الدجاجة السوداء».

---

(١) تلميح الى مشكلة الحدود الطبيعية. وثورة ١٨٣٠ لم تعد بلجيكة الى فرنسة. وقد رفض لويس فيليب عرشها لابنه مما سبب استياء اليسار، كما أبدى بلزاك عدم رضاه في زمن «رسائل عن باريس».

(٢) في قصة «رحلة الكوكو» التي كتبتها لور أخت بلزاك يقول جول لجوزيف: «تنكر أمك أيها السيد، أليس لك قلب» أما هنا فالقاص يتبنى بنفسه هذا الحكم الذي صاغه الفنان الشاب، وينقاد بلزاك لمبدأ أخته الأخلاقي.

سأل شينر: إن موجّه دروسك هو دون شك استاذ جامعي شهير، قد يكون السيد اندريو[1] من الأكاديمية الفرنسية أو السيد رويه- كولار[2].

- ردّ أوسكار متذكراً اسم الكاهن معرّف الكلية: إن موجهي هو الأب لورو[3] الوكيل الأسقفي لكنيسة سان سولبيس حالياً.

قال ميستغري: عملت جيداً بانصرافك الى الدروس الخاصة، اذ «أن الجامعة ستثير الملل في يوم ما» لكنك ستكافىء في يوم ما هذا الكاهن؟

قال أوسكار: من المؤكّد أنه سيغدو يوماً مطراناً.

قال جورج برزانة: بنفوذ عائلتك.

- ربّما ساهمنا في ترشيحه لهذه الرتبة فالأب فريسنيوس[4] يأتي غالباً الى منزلنا.

سأل الكونت: آه! أنت تعرف الأب فريسنيوس؟

أجاب أوسكار: إنه ذو علاقات وطيدة بوالدي.

قال جورج: وأنت ذاهب، دون شك، الى اقطاعة قصركم؟

- كلا، أيّها السيد، لكنني استطيع أن أقول الى أين أنا ذاهب، فأنا متوجّه الى قصر برسل، في زيارة للكونت دي سريزي؟

هتف شينر وعلا وجهه الاحمرار كثمرة كرز: آه! ياللشيطان، أنت ذاهب الى برسل.

سأل جورج: وهل تعرف سيادة الكونت دي سريزي.

---

(١) اندريو (فرنسوا) (١٧٥٩-١٨٣٣) استاذ قديم لصهر بلزاك، مورفيل، واكاديمي أبدى نقداً لاذعاً لمسرحية بلزاك «كروموبل» التي ألفها في مطلع شبابه (١٨١٩) ونصحه بالتخلي عن أي طموح أدبي.

(٢) رويه- كولار (١٧٦٣-١٨٤٥) خطيب فرنسي- رئيس عصبة أصحاب المبادىء في عهد الملكية الثانية.

(٣) الأب لورو: شخصية وهمية- ظهر لأول مرة في رواية سيزار بيروتو (١٨٣٧) ثم لعب دوراً هاماً في رواية «المتصيدة».

(٤) فريسنيوس (دنيس) (١٧٦٥-١٨٤١) المعلم الأكبر للجامعة في ١٨٢٢- كونت ورجل دين يسمي وزيراً للشؤون الدينية (١٨٢٤-١٨٢٨) وهو عضو الأكاديمية.

التفت الأب ليجه ليتأمّل اوسكار، ونظر اليه منذهلاً وهو يهتف: هل السيد دي سريزي موجود في برسل؟

أجاب أوسكار: حسب الظاهر، باعتباري متوجه اليها.

سأل السيّد دي سريزي أوسكار: وهل رأيت الكونت مراراً.

أجاب أوسكار: كما أراك، فأنا صديق ابنه الذي هو في عمري تقريباً، تسع عشرة سنة ونحن نتريّض على الخيل معاً، كل يوم تقريباً[١].

قال ميستيغري متظاهراً بالحكمة: سبق أن رؤي ملوك ينفضون الغبار عن ثياب الراعيات» لكن غمزة من عين بييروتن أعادت الاطمئنان الى الأب ليجه.

قال الكونت لأوسكار: الواقع إنني مسرور للقاء شاب يمكنه أن يحدثني عن هذه الشخصية، فأنا بحاجة الى توصية منه في أمر ذي أهمية يمكنه بسهولة أن يدعمني به: وهو يتعلّق بمطلب من الحكومة الأمريكية. وسأكون مرتاحاً كثيراً إن حصلت على معلومات تتعلق بطبع السيد دي سريزي.

أجاب أوسكار وقد اتخذ مظهراً ساخراً: أوه! إن أردت تحقيق هدفك فلا تتوجه اليه. بل الى زوجته، فهو يعبدها الى حدٍّ مامن أحد مثلي يعرف مقداره، لكن زوجته لاتطيقه.

سأل جورج: لماذا؟

– إن الكونت مصاب بمرض جلدي كريه يجهد الدكتور أليبر[٢] عبثاً في محاولة شفائه منه» ثم استأنف أوسكار وهو يفتح قميصه ويظهر بشرة نضرة كبشرة الأطفال: «وهكذا فالسيد دي سريزي يهب نصف ثروته الواسعة

---

(١) هذا يذكّر بنزهات التريّض على الخيل الحقيقية التي يقوم بها جوليان سوريل مع نوربر دلامول في رواية «الأحمر والأسود» لستندال، لكن اوسكار هنا يختلق الحدث ويدّعيه كذباً.

(٢) طبيب لويس الثامن عشر، وهو مختص بالأمراض الجلدية– اذ أن لويس الثامن عشر كان يعاني كالكونت دي سريزي من مرض جلدي مزمن، وكان الطبيب لمركزه هذا رئيساً لأطباء مشفى سان لويس. وقد جعله بلزاك في قصة سيزار بيروتو يجهز سيزار بالزيت المولّد للسبات.

للحصول على مثل هذا الصدر، وهو يعيش وحيداً منعزلاً في قصره، لذلك يجب أن تكون واسطتك كبيرة لمقابلته، فهو أولاً ينهض باكراً جداً، ويعمل من الساعة الثالثة صباحاً حتى الثامنة، وينصرف في الساعة الثامنة الى معالجاته: حمامات من الكبريت أو البخار، وهو يكوى بعلب من حديد اذ أنه يأمل دائماً بالشفاء.

سأل جورج: إن صلته وثيقة بالملك، فلماذا لايطلب منه أن يلمسه[1]

قال ميستيغري: إن لهذه المرأة، اذاً، زوجاً في قوقعة.

تابع أوسكار: وعد الكونت أحد مشاهير الأطباء الاسكتلنديين [2] الذي يعالجه في هذه الفترة بمنحه مبلغ ثلاثين ألف فرنك.

قال شينر: اذاً فامرأته لن تلام إن لهُت. . » لكنه توقَّف عن انهاء عبارته.

قال أوسكار: إنني أعتقد جيداً أن هذا الرجل المسكين متقرّن، متيّبس كأنه في الثمانين من العمر، إنّه جاف كرق من جلد، ولتعاسته، فإنه يحسُّ بوضعه. قال الأب ليجه متفكهاً: لكن رائحته قد لاتكون طيبة.

تابع أوسكار: ياسيدي، إنّه يعبد امرأته، ولايجرؤ على توبيخها وتتمّ بينهما مشاهد تثير الضحك، هي أشبه ماتكون بأرنولف في مسرح[3] موليير الهزلي.

كان الكونت ينظر وهو منذهل الى بييروتن الذي تصوّر، لرؤيته غير متأثر، أن ابن السيدة كلابار يهرف بالأكاذيب.

قال أوسكار موجهاً كلامه للكونت: هكذا، ياسيدي، إن أردت النجاح

---

(١) تلميح الى التقليد السائد سابقاً حول قدرة ملوك فرنسة، وبصورة خاصة يوم التتويج في ريمس على شفاء مرض سلّ الغدد بوضع اليد عليها: «يلمسك الملك ويشفيك الله» واستعاد الملك شارل العاشر في العام ١٨٢٥ هذه العادة القوطية، ولايتردد أوسكار هنا في التحدث بلغة الايمان بالعرش والمذبح مقابل لغة التحرّر العدوانية التي يستخدمها جورج مارست.

(٢) تلميح الى الطبيب «ويلان» المعارض لأليير في قضايا معالجة الأمراض الجلدية.

(٣) تلميح غير واضح الى ماورد في «مدرسة النساء».

اذهب لرؤية الكونت دي إغلمون فإن تبنَّى هذا المتيّم القديم بالزوجة قضيتك فإنك تكسب دفعة واحدة الى جانبك المرأة [١] والزوج .

قال ميستيغري : هذا مايسمى «اصاب بحجر فلسين[٢]» .

قال الرسّام : آه! هذا يعني أنك رأيت الكونت متجرّداً من ثيابه ، هل أنت وصيفه؟

هتف أوسكار مستنكراً : وصيفه؟

تابع ميستيغري : اللعنة ، هذه الأشياء لاتقال عن الأصدقاء في العربات العامة «فالحيطة أيها الشاب هي أمُّ الصمم!»[٣] .

هتف شينر : هذا هو مضمون المثل : «قل لي من تعاشر أقل لك من تكره[٤] .

عقب جورج برزانة : ليكن معلوماً ، أيها الرسّام الكبير ، أنّه لايمكن التكلّم بسوء عن أشخاص لانعرفهم ، وقد برهن لنا الصغير أنه يعرف غيباً كل مايتعلق بسريزي ، ولو أنه تكلم فقط عن السيّدة ، لأمكن الاعتقاد بأنّه . .

هتف الكونت : ولاكلمة تضاف حول الكونتة دي سريزي ، أيّها الفتيان ، فأنا صديق أخيها المركيز دي رونكرول ومن يجروء على التفوه بكلمة تنال من سمعة الكونتة فإن حسابه لديّ!

هتف الرسّام : إن السيد على حق ، فيجب عدم الهزل حول النساء .

---

(١) علاقة فيكتور دي إغلمون بالسيدة دي سريزي ذكرت في قصة «دوقة لانجه» .

(٢) تلاعب بكلمات المثل : استبدل بكلمة Coups- كلمة Sous والمثل في الأساس : أصاب بحجر هدفين .

(٣) تلاعب أيضاً بكلمات المثل استبدل بكلمة Surete كلمة Surdit والمثل : الحيطة أم الأمان ، أو من حذر سلِمَ .

(٤) تلاعب أيضاً بكلمات المثل : قل لي من تعاشر أقل لك «من أنت» : أبدل بـ Tues : Tu haiś

قال ميستيغري: قسماً لقد رأيت هذه الميلودراما: الله! الشرف والسيدات[1]!

تابع الكونت كلامه وهو ينظر الى جورج: إن كنت لاأعرف أبداً مينا، فأنا أعرف وزير العدل، وإن كنت لاأحمل أوسمتي فأنا أمنع اعطاء أوسمة لمن لايستحقها- ونظر الى الرسّام- أخيراً فأنا أعرف كثيراً من الناس، ومنهم السيد غرندو المهندس المعمار في برسل. توقف يابييروتن، فأنا أريد أن أنزل للحظة.

دفع بييروتن حصانيه حتى طرف قرية مواسيل حيث يوجد نُزُل يتوقف عنده المسافرون، وتمّ اجتياز هذا القسم من الطريق في صمت تام.

سأل الكونت بييروتن وهو يختلي به في فناء المنزل: «الى أين يذهب هذا الفتى الغريب؟

- الى وكيلك، إنه ابن سيّدة مسكينة تسكن في شارع سريزه، وأنا أحمل لها غالباً من مورو الثمار والطرائد والدواجن، واسمها السيّدة هوسون.

اقترب الأب ليجه بدوره من بييروتن، بعد أن تركه الكونت، متسائلاً: من هو هذا السيد؟ أجاب بييروتن: الواقع، إنني لاأعرفه، فأنا أُقلّه لأول مرة، لكن قد يكون الأمير المالك لقصر مافليه، فقد ذكر لي أنه لن يصل الى إيل-آدم، وطلب أن أتركه في الطريق.

قال الأب ليجه عند دخوله العربة لجورج: إن بييروتن يعتقد أن هذا الرجل هو بورجوازي مافليه.

في تلك اللحظة، بدا الشباب الثلاثة، الذين لم يجرؤ أحدهم أن يتطلّع الى الآخر، حمقى كلصوص قبض عليهم بالجرم المشهود، وانشغلوا بما سيعقب أكاذيبهم.

---

(١) لاتوجد أية مسرحية تحمل هذا الاسم، ويبدو أن ميستيغري يريد القول: إن هذا الموضوع يليق بالميلودراما.

قال ميستيغري: «هذا ماينطبق عليه القول: أثار ضجة لامبرر لها.

وقال لهم أوسكار: أنتم ترون إنني أعرف الكونت.

ردّ جورج: هذا ممكن، لكنك لن تكون سفيراً أبداً، فعند الرغبة في الكلام ضمن العربات العامة يجب الحرص على أن تهذر مثلي دون معنى.

قال ميستيغري كخلاصة: كل يصيد من أجل عصفوره.

استعاد الكونت عندئذ مكانه، وتابع بيروتن سيره بصمت تام.

قال الكونت عند وصول العربة الى غابة كارو: وبعد ياأصدقائي، هانحن خُرْسٌ كأننا سائرون الى منصة الاعدام.

أجاب ميستيغري بحكمة: على المرء أن يعرف كيف يصمت عند اللزوم.

قال جورج: الطقس جميل.

قال أوسكار وهو يشير الى قصر فرنكونفيل الذي يبدو بشكل رائع في منقلب غابة سان مارتن الكبرى: ماهذا الصرح؟

هتف الكونت: كيف لاتعرف فرنكونفيل، وأنت الذي تقول بأنك تتردّد غالباً على برسل؟

قال ميستيغري: إنّ السيد يعرف الناس لاالقصور.

هتف جورج: إن لصغار الدبلوماسيين شرودهم!

رد أوسكار غاضباً: تذكروا اسمي: أنا أوسكار هوسون، وخلال عشر سنوات سأغدو شهيراً.

بعد هذه الكلمات الملقاة بتبجح لَبَدَ أوسكار في زاوية.

قال ميستيغري: لكن هوسون دي... ماذا؟

ردّ الكونت: هوسون دي لاسريزه[1]. إن آل هوسون عائلة كبيرة، وهذا السيد ولد تحت درجات العرش الامبراطوري».

---

(١) LA CERISIE: بستان الكرز ولاعلاقة لهذا الاسم باسم SERIZY عائلة الكونت.

احمرّ اوسكار حتى قفّ شعر رأسه، وانتابه قلق رهيب وراحت العربة تهبط سفح الكاف السريع حيث يتربع في نهايته، عند واد ضيق، على طرف غابة سان مارتن الكبرى، قصر برسل[1] الرائع.

قال الكونت: أيّها السادة، أتمنى لكم حظوظاً طيبة في سعيكم لمستقبل جيّد. تصالح مع ملك فرنسة، أيّها السيد العميد: فآل سرني- جورج لايبدون استياءهم من آل بوربون. ليس لي أن أتنبأ لك، ياعزيزي السيّد شينر، لأن المجد قادم اليك، وستناله عن استحقاق بأعمالك الفنية الرائعة، لكن الخشية منك كبيرة، بحيث أنني، وأنا المتزوج، لاأجسر على أن أيّسر لك التعرف على رفيقة حياتي، أما السيّد هوسون، فهو لايحتاج لرعاية، اذ أنّه يمتلك سرّ رجال الدولة وبامكانه أن يثير الرعب فيهم؛ بينما يريد السيد ليجه أن ينتف ريش الكونت دي سريزي، وليس لي إلا أن أرجوه ألا يقدم على ذلك إلا بعد الاستعداد له.

انزلني هنا يابييروتن، وستأخذني من هذا المكان غداً.

ونزل الكونت تاركاً رفاق الطريق يعانون الحيرة.

قال ميستيغري، وهو يرى الخفة التي انطلق بها المسافر ضمن هذا الطريق المحفّر: يجب أن يعرف الانسان الكعب الملائم لطريق سيره.

قال الأب ليجه: أوه! إنه الكونت الذي استأجر فرنكونفيل وهو متوجه اليها.

قال شينر المزّيف: إن مزحت بعد الآن في عربة عامة، فسأدخل في مبارزة مع نفسي. إنّها غلطتك أيضاً ياميستيغري؛ وضرب بقبضته على قبعة تلميذه.

أجاب ميستيغري: أوه! أنا الذي لم أفعل شيئاً سوى اللحاق بك الى البندقية «لكن من يريد أن يغرق كلبه فإنه يتهمه بداء الكلبِ».

---

(١) موقع طبوغرافي صحيح.

قال جورج لجاره أوسكار: أتدري، إن كان هذا الرجل هو الكونت دي سريزي؛ فإنني لاأتمنى أن أوجد في جلدك حتى ولو كان دون أيّة أمراض».

ذكرت هذه العبارة أوسكار بتوصيات أمه فغدا شاحباً بعد أن أفاق من أوهامه. قال بييروتن وهو يتوقف أمام شبك جميل: ها قد وصلتم أيّها السادة.

قال الرسّام وجورج وأوسكار بصوت واحد: كيف؟ هل وصلنا؟!

قال بييروتن: ياللغرابة! آه! أيّها السادة، مامن أحد منكم قد أتى الى هنا اذاً؟ لكن هاهو قصر برسل أمامكم.

قال جورج وهو يستعيد رباطة جأشه: «إيه! حسن أيّها الصديق، ثم أضاف كي لايفسح المجال لرفاق الرحلة بملاحظة مجيئه الى القصر: «إنني ذاهب الى مزرعة مولينو».

قال الأب ليجه: ماذا؟! إنّك آت لزيارتي اذا؟

- كيف ذلك؟

- لكنني مزارع مولينو، إيه! أيّها العميد، ماذا تريد منا؟

- أجاب جورج وهو يتناول محفظة أوراقه: أن أتذوق زبدتك.

قال أوسكار: بييروتن، ضع حوائجي لدى الوكيل، فأنا متوجّه مباشرة الى القصر.

عند ذلك، سار أوسكار مسرعاً في شِعب ضيق دون أن يدري وجهته.

هتف الأب ليجه: إيه! سيدي السفير، هذا الطريق يوصلك الى الغابة، فاذا أردت الدخول الى القصر فتوجّه نحو الباب الصغير.

اضطر أوسكار للدخول، وضلّ طريقه في فناء القصر الكبير الذي يشغل وسطه حوض أزهار واسع محاط بصوى تربط فيما بينها سلاسل. وبينما كان الأب ليجه يرقب أوسكار، كان جورج، الذي صعقته صفة أكّار مولينو، متمثلة

بهذا المزارع الضخم، ينسلّ بخفة بحيث أن الرجل الثخين المتحيّر بحث عن العميد فلم يجده. وانفتحت البّوابة الكبرى بناء على طلب بيروتن الذي دخل باعتزاز ليودع لدى البواب أدوات شينر الكبير المتعددة. وذهل أوسكار لرؤية ميستيغري والفنانَ شاهدي ثرثراته يستقران في القصر. وخلال عشر دقائق كان بيروتن قد أنهى انزال رزم الرسّام ومتاع أوسكار هوسون، وحقيبة الجلد الجميلة التي عهد بها سراً الى زوجة البوّاب؛ وعاد من حيث أتى يطقطق بسوطه ليأخذ طريق غابة ليل آدم محتفظاً على وجهه بهيئة فلاح ساخرة يحسب أرباحه، فما من شيء ينقص سعادته اذ سيحصل غداً على الألف فرنك التي تنقصه.

دار أوسكار ببعض الارتباك حول حوض الأزهار، وهو يراقب ماسيفعله رفيقا طريقه، عندما أبصر فجأة السيد مورو، يخرج من القاعةالكبرى المسماة قاعة الحرس في أعلى درج المدخل، وهو يرتدي معطفاً طويلاً أزرق يصل حتى عقبيه، وسروالاً من جلد أصفر؛ ومنتعل جزمة فارس، وفي يده سوط.

قال وهو يأخذ يد أوسكار: هاأنت بيننا ياولدي، كيف حال والدتك العزيزة؟

ثم التفت فرأى الرسّام وميستيغري فقال: طاب يومكما، أيّها السيّدان، أنتما دون شك الرسّامان اللذان أعلن لنا عن مجيئهما المهندس المعمار السيد غرندو؟ وصفر مرتين مستخدماً طرف سوطه فحضر البوّاب.

استأنف مورو: «خذ هذين السيّدين الى الغرفتين ١٤ و ١٥، وستعطيك السيدة مورو المفاتيح، رافقهما لترشدهما الى الطريق. أشعل النار إن لزمت التدفئة هذا المساء، واحمل متاعهما الى غرفتيهما». ثم توجّه الى الفنانين قائلاً: «أنتما مدعوان الى مائدتي، بناء على توجيهات السيد الكونت؛ ونحن نتعشى في الساعة الخامسة، كما في باريس، إن كنتما من هواة الصيد، فبامكانكما أن تتسليا جيداً فلدي رخصة من مصلحة المياه والغابات، ويمكنكما أن تصيدا ضمن مساحة اثني عشر ألف أربنت من الغابات عدا عن أملاكنا».

تبادل أوسكار والرسّام وميستيغري النظرات وكل منهما خجل من الآخرين، لكن ميستيغري الملتزم بدوره هتف: باه! «يجب ألا يُرمى النصاب بعد المطرقة» فلنتابع.

لحق أوسكار بالوكيل الذي قاده بخطا سريعة في حديقة القصر الى أن التقى بأحد أولاده فقال له: «جاك، اذهب واخبر والدتك أن هوسون الصغير قد وصل، وأنني مضطر أن أذهب الى مزرعة مولينو لبعض الوقت».

كان الوكيل آنذاك في الخمسين من العمر تقريباً، وهو متوسط القامة أسمر البشرة، ذو ملامح قاسية، ووجه صفراوي طبعت عليه العادات الريفية ألواناً عنيفة. مما يدفع الى الافتراض للوهلة الأولى بأنه على خُلُق غير الذي هو فيه. وكان كلّ شيء يساعد على هذه الخدعة، فشعره قد خطه الشيب، وعيناه الزرقاوان وأنفه الكبير المعقوف تعطيه هيئة تبدو أكثر عبوساً لقرب هاتين العينين من الأنف؛ لكن شفتيه الثخينتين واستدارة وجهه، وبساطة مظهره، تقدّم للملاحظ قرائن عن طيبته؛ وقد فرض، وهو الحازم، النزق الكلام، على أوسكار بتأثير فطنة توحي بما يكنّه له من حنان، احتراماً ازداد كبراً بما عوّدته عليه أمّه من توقير للوكيل؛ فأوسكار يشعر دائماً أنه صغير في حضرة مورو، لكنه بوجوده في برسل أحسّ بموجة من القلق كأنّه يتوقّع مكروهاً من هذا الصديق الأبوي العطف، الحامي الوحيد له.

قال الوكيل: وبعد ياعزيزي أوسكار، لايبدو عليك السرور لوجودك هنا، مع أنك ستتسلّى جيداً، فستتعلم ركوب الخيل، واستخدام البندقية، والصيد.

قال أوسكار ببلاهة: لاأعرف شيئاً من هذا.

- ولكنني أحضرتك لأعلمك ذلك.

- طلبت مني أمي ألا أبقى أكثر من خمسة عشر يوماً، بسبب السيدة مورو

ردّ مورو وقد أحسّ بشبه اهانة مما في كلمة أوسكار من شكّ بسلطته الزوجية: أوه! سنرى.

هرع ابن مورو الأوسط، وهو فتى في الخامسة عشر من العمر، مشيق القامة، نشيط الحركة؛ وقال له أبوه: هيا، خذ هذا الرفيق الى أمّك.

وهرع الوكيل بسرعة عبر الطريق الأقرب الى بيت الحارس الواقع بين المنتزه والغابة.

كان البيت الذي خصّصه الكونت لسكن وكيله قد بني، قبل عدة سنوات من الثورة، من قبل متعهد أرض كاسّان الشهيرة، حيث غدا برجره[١]، متعهد الضرائب العام، صاحب الثروة الضخمة، شهيراً بترفه؛ بقدر شهرة آل بوادر[٢]، وآل باريس[٣]، وآل بوره[٤]، في اقامة الحدائق، واستثمار الأنهار، وبناء المنازل الريفية، والسرادقات الصينية، وغيرها من الاسرافات المدمّرة.

هذا البيت الواقع وسط حديقة واسعة، أحد جَدرانها مشترك مع فناء أبنية الخدمات في قصر برسل، كان ذا مدخل سابق يقع على شارع القرية؛ وبعد أن اشترى السيد دي سريزي والد الكونت تلك الملكية، قام بهدم ذلك الجدار وأغلق الباب من ناحية القرية، وبذلك ضم هذا المنزل الى أبنية الخدمات، وبازالة جدار آخر وسع منتزه القصر بضمّ الحدائق التي تملكها المتعهد لتوسّعه.

بني هذا المنزل من الحجر المنحوت على الطراز السائد في عصر لويس الخامس عشر (وهذا يعني أن التزيينات تقوم على محافظ تحت النوافذ، وعلى

---

(١) **برجره**: متعهد ضرائب عام في عهد لويس الخامس عشر، غدا مالكاً لقصري كاسان ونوانتل.

(٢) **وبودار** دي سان- جمس الخازن العام للبحرية الذي اهتمّ برنار فرنسوا بلزاك- وكان سكرتيراً في المجلس الاستشاري الملكي- بذكر افلاسه (انظر بوترون: دراسات بلزاك).

(٣) **وآل باريس**: أخوة أربع من كبار الماليين في القرن الثامن عشر، وقد ساعدوا على اسقاط لو LAW (١٦٧١-١٧٢٩) المالي الاسكتلندي، المراقب العام لمالية فرنسة، وغدوا من مستشاري لويس الخامس عشر.

(٤) **بوره**: (١٧١٠-١٧٧٧) كان ابن خادم، وغدا متعهد ضرائب عام، ورد ذكره مراراً في رواية «الفلاحين» بذّر نحو أربعين مليون فرنك من أموال الدولة قبل اعلان افلاسه.

أعمدة ذات تضليعات حادة وجافة) وهو يتألف من طابق أرضي يحوي صالة واسعة وجميلة تتصل بغرفة نوم، وقاعة طعام، وقاعة لعب بليار، ويتوسط هذا الطابق درج أمامه باحة معمّدة تعتبر بمثابة مدخل يزينها باب الصالة وباب قاعة الطعام، المواجه أحدهما للآخر، وكلاهما مزخرفان، أما المطبخ فيقع تحت قاعة الطعام اذ يصعد الى هذا المنزل بدرج ذي عشر درجات.

تمكنت السيدة مورو بنقل مهجعها الى الطابق الأول من أن تحوّل غرفة النوم القديمة الى غرفة جلوس أثثتها مع الصالة بأشياء جميلة اختارتها من أثاث القصر القديم بحيث لاتسيء أبداً الى دارة سيدة متأنقة، فالصالة مكسوّة الجدران بدمقس أزرق وأبيض كان يشكل سابقاً ستائر سرير الشرف في القصر، وأثاثها من خشب قديم مذهب مزيّن من القماش نفسه، وهي تبدي للنظر ستائر وسجفاً عريضة فضفاضة مبطنة بتفتة حريرية بيضاء، عدا عن لوحات وردت من زخرفات بعض الجدران المزالة من القصر، وحاملات أصص أزهار، وبعض قطع أثاث حديثة، وشمعدانات جميلة الى جانب ثريّا قديمة ذات كريستالات محفورة، وسجادة فارسية قديمة تعطي جميعها لتلك الصالة مظهراً جليلاً مترفاً. أما غرفة الجلوس فكانت حديثة بكاملها، ووفقاً لذوق السيدة مورو؛ فهي تتمثّل بشكل خيمة بحبالها من الحرير الأزرق على أساس رمادي من كتان؛ يتصدّرها الديوان الكلاسيكي بوسائده ومخدات الأقدام أمامه، وأخيراً أصص الأزهار المعدّة بعناية من قبل البستاني الرئيس بحيث تمتّع الأعين بأهرامات زهورها. أما أثاث قاعة الطعام وقاعة البليار فكان من الأكاجو، وعملت زوجة الوكيل على أن تقيم حول منزلها روضة زرعت بعناية وهي ملحقة بحدائق القصر وقد قامت فيها مجموعات من الأشجار الدخيلة فحجبت منظر ملاحق القصر، كما أقامت مكان الباب السابق المطل على الشارع بوآبة من شبك تسهل دخول الأشخاص الوافدين لزيارة صاحبة المنزل.

هكذا بدت تبعية آل مورو لصاحب القصر مستترة بمهارة، اذ بدوا وكأنهم

أشخاص أغنياء يقومون عن هواية بادارة ملكية صديق، ولم يجرّب الكونت أو الكونتة النيل من هذا التباهي، كما أن الامتيازات الممنوحة من الكونت دي سريزي سمحت لهم بالعيش في بحبوحة وفي ترف الريف، وهكذا كان الوكيل وزوجته يجنيان ببذخ الحليب ومشتقاته، والبيض، والدواجن، والطرائد، والثمار، والعلف، والأزهار والحطب، والبقول، ولايشتريان إلا اللحم من المجزرة، والخمور ومحصولات المستعمرات التي تتطلبها حياتهم الارستقراطية. وكانت فتاة المدجنة تخبز لهم. أخيراً فمنذ بضع سنوات غدا مورو يسدّد لجزاره مايعادل قيمة اللحوم التي يستجرها خنازير من زريبته، مع احتفاظه بما يلزم لاستهلاكه. وفي يوم منحت الكونتة وصيفتها السابقة، التي تكن لها كل مودة، عربة سفر من طراز فات عليه بعض الزمن، وربّما أرادت أن تحتفظ الوصيفة بها كذكرى من سيدتها، وقد قام مورو بدهانها مجدداً واستخدامها لنزهات زوجته مستخدماً حصانين يفيدانه عدا عن ذلك في أعمال المزرعة، حيث يفلح ويزرع الأراضي اللازمة لتغذية خدمه ولعلف خيوله، اذ أن له عدا الحصانين، حصاناً ثالثاً للركوب؛ وكان يجني من المروج ثلاثمئة رزمة من الشوفان الجيد، ولايسجل إلا مئة معتمداً على اذن معطى بشكل عام من الكونت، وبدلاً من أن يستهلكها، يبيع نصفها كأتاوة يستحقها. وكان يستثمر بشكل واسع مدجنته، وبرج حمامه، وأبقاره، على حساب أراضي القصر، مقدّماً زبل اسطبله للبستانيين، وبهذا يجد مبرراً لكل واحدة من اختلاساته الصغيرة. فالسيدة مورو تستخدم على التناوب احدى بنات البستانيين كوصيفة لها أو كطاهية؛ وفتاة الزريبة المكلّفة بالملبنة كمساعدة في تنظيف المنزل؛ كما يستعين مورو بجندي مسرّح لفرجنة الأحصنة والقيام ببعض الأعمال الشاقة.

في نرفيل، وسوفري، وبومون، ومفليه، وبريرول، ونوانتل، كانت زوجة الوكيل الجميلة تستقبل بالترحاب لدى عائلات تجهل عملها الأول، أو تتظاهر بعدم معرفته، كما أن مورو كان يستعين بنفوذ سيّده على تأدية خدمات وقضاء حاجات تعتبر تافهة في باريس لكنها ذات أهمية كبيرة في قرى الريف؛

فبعد أن توسط في تسمية قاضي صلح بومون وليل آدم، حال في السنة نفسها دون تسريح المراقب العام للأحراج وحصل على وسام جوقة الشرف لوكيل الضابط رئيس ثكنة بومون، وهكذا فلايحتفل بمناسبة أو تولم وليمة في أوساط البورجوازيين في المنطقة دون أن يدعى اليها آل مورو، كما أن كاهن برسل وعمدتها يأتيان كل مساء لقضاء السهرة لدى مورو؛ وهكذا ذاع صيت الرجل كانسان طيب خدوم، ذي مكانة.

كانت زوجة الوكيل امرأة جميلة مغناجاً، وكجميع وصيفات كبيرات النبيلات اللواتي يقلدن سيداتهن نقلت الموضات الحديثة الى المنطقة، فكانت تنتعل جزمة من جلد غالية الثمن، ولاتسير على قدميها إلا في أيام الطقس الجميل، وبالرغم من أن زوجها لم يخصص لها أكثر من خمسمئة فرنك سنوياً لهندامها وزينتها، فإن هذا المبلغ يعتبر كافياً جداً في الريف، خاصة اذا أحسن استعماله، وهكذا فزوجة القيم الشقراء، النضرة، المتألقة، رغم كونها أماً لثلاثة أولاد وبلوغها السادسة والثلاثين حافظت على رقّتها ونعومتها ولطفها، واستمرت بمظهر الفتاة الشابة بل بملامح الأميرات، فإن سأل أحد الغرباء، وهو يراها تمر بعربتها المنطلقة الى بومون أحد أبناء المنطقة «من تكون؟» وأجاب هذا: «إنّها زوجة وكيل برسل» اغتاظت، فهي تحبُّ أن تعتبر سيّدة القصر، وهي تحب أن تحمي الشباب في القرى وترعاهم، كما يمكن أن تفعل السيّدة النبيلة ذات الشأن، وقد حالت حظوة زوجها لدى الكونت، التي تجلّت في مناسبات عديدة، دون سخرية البورجوازية الصغيرة بها؛ وبقيت في نظر الفلاحين شخصية هامة[1]؛ فأستيل (وهذا هو اسمها الأول) لاتتدخل أبداً في أعمال زوجها مثلها كمثل امرأة الصرّاف التي لاعلاقة لها بالبورصة؛ بل إنّها تعتمد في ادارة شؤون

---

(١) يصور بلزاك في السيدة مورو نموذج البورجوازية المحظوظة، فالزوج مورو رغم معارضته لسيّد القصر لايعتبر من الطبقة الشعبية ولامن ممثليها بل هو أقرب الى المجموعة التي تجمع في رواية «الفلاحين» كبار الملاكين، والبورجوازيين الميسورين وبروليتاريا الريف الحرفيين.

المنزل وتأمين جميع احتياجاته على زوجها، وهي واثقة من ترتيباته ووسائله، ولايخالجها أي شك في استمرار يُسر وضعها القائم منذ سبعة عشر عاماً، ولم تشعر أبداً بأنها مهدّدة إلا عندما علمت بقرار الكونت باجراء أعمال الترميم والاصلاحات في قصر برسل؛ اذ أحسّت أن جميع مباهجها معرّضة للزوال وأقنعت زوجها بالتفاهم مع ليجه بحيث يمكنهما الانسحاب الى ليل آدم، اذ أنها ستتألم كثيراً للعودة مجدّداً الى تبعية شبه خدمية بوجود سيدتها السابقة التي ستسخر منها عندما سترى أنها استقرت في المنزل الملحق بالقصر بطريقة تقلد فيها السيّدات ذوات الشأن.

نتج موضوع البغضاء العميقة القائمة بين آل ريبر وآل مورو، عن اهانة وجهتها السيدة ريبر الى السيدة مورو عقب أوّل مجادلة أجازتها لنفسها زوجة الوكيل عند وصول آل ريبر الى المنطقة لتقطع الطريق على امرأة تعتز بأنّها ابنة كوروا دون النيل من مكانتها.

وذكرت السيدة ريبر وربّما أعلنت في كل المنطقة الوضع الأول للسيدة مورو وطارت كلمة «وصيفة» من فم الى فم، وتناقلها حسّاد آل مورو في بومون وليل آدم، ومافليه، وشامباني، ونرڤيل، وشوفري، وبايّه، ومواسيل، بحيث أن أكثر من شرارة من هذا الحريق سقطت على عائلة مورو. لكن زوجة الوكيل الحسناء تمكنت من عزل آل ريبر. فوجدوا أنفسهم خلال أربع سنوات معرّضين للوم مشايعي آل مورو، حتى أن وضعهم في المنطقة لم يعد يحتمل لولا فكرة الانتقام التي كانت تحرّضهم على البقاء.

كان آل مورو على علاقة طيبة مع المهندس المعماري السيد غرندو الذي أعلمهم بقرب وصول رسّام مكلّف بانهاء زخرفات الزينة في القصر، حيث نُفّذت اللوحات الرئيسة من قبل شينر. وقد عهد الفنان الكبير بالأطر، والأرابسك، والتزيينات الأخرى الثانوية للرسّام الوافد مع ميستيغري؛ وهكذا فالسيدة مورو بدأت استعداداتها منذ يومين، وطال بها الانتظار هذا اليوم؛ فالفنان الذي

سيحضر ضيف مائدتها لعدة أسابيع؛ وقد كان لشينر وزوجته جناحهما في القصر حيث عوملا كالكونت تماماً وفقاً للتعليمات الواردة منه، وقد أبدى غرندو، وهو ضيف مائدة آل مورو، احتراماً فائقاً للفنان الكبير بحيث لم يجسر الوكيل أو امرأته من رفع الكلفة مع هذا الفنان الذي تبارى أنبل أهل المنطقة وأغناهم في الاحتفاء به مع زوجته والتنافس في اقامة الولائم لهما؛ وهكذا وعدت السيدة مورو نفسها بأن ينتشر نبأ وصول الفنان الذي تنتظره بشكل واسع، وأن تعلن أنه لايقلُّ موهبة عن شينر معتبرة استضافتها له بمثابة ردّ اعتبار لها.

بالرغم من أن الوكيلة الحسناء بدت في العشية، وماقبلها بزينتين متأنقتين، فإنها نوّعت جيداً وسائل أناقتها حتى لاتبدو بأنها قد احتفظت بأكثرها جاذبية لهذا اليوم السبت الذي لم تشكّ بأن الفنان سيأتي خلاله للعشاء لديهم. وهكذا فإنها انتعلت جزمة من جلد برونزي وجوارب من حرير اسكوتلندي، وارتدت ثوباً وردياً مخططاً، وحزاماً بذات اللون إنما بزردة ذهبية مرصّعة، وزينت عنقها بصليب ذهبي مدلّى بشريط أسود، بينما أحاطت ذراعيها العاريين بأساور مخملية (على نسق الكونتة دي سريزي ذات الذراعين البضّتين)، وهكذا بدت السيدة مورو بمظهر الباريسية الأنيقة، وقد اعتمرت قبعة من القش الايطالي مزينة بباقة من ورود مهفهفة من صنع ناتيه[1] تدفقت تحت جناحها كالشلال خصلات شعرها الشقراء اللماعة الجميلة. وبعد أن أوصت باعداد عشاء فاخر، وتأمّلت جيداً ترتيب منزلها، راحت تتنزه أمام حوض أزهار القصر في الفناء الكبير كأنها سيّدته وهي ترقب مرور العربات، ورفعت فوق رأسها مظلّة وردية لطيفة مبّطنة بحرير أبيض مهدّب، وعندما رأت بييروتن يسلّم بواب القصر رُزم ميستيغري الغريبة، دون أن يظهر أي مسافر، عادت إستيل خائبة، متأسفة على تأنقها دون جدوى. وكمعظم الأشخاص الذي يرتدون ثياب العيد، لم تستطع الانشغال بأيّ شيء إلا

---

(١) بائعة زهور اصطناعية وريش زينة وكان متجرها في ٨٥ شارع ريشليو.

الجلوس ببلاهة في صالتها، منتظرة عربة بومون التي تمرّ بعد ساعة من وصول بييروتن، بالرغم من أنها لاتنطلق من باريس إلا في الساعة الواحدة بعد الظهر.

وهكذا عادت الى منزلها بينما كان الفنانان يتهندمان وفق الأصول؛ والواقع أن البستاني، الذي طلب منه الرسّام الشاب وميستيغري معلومات عن مضيفهم، أطنب وأسرف في مدح السيدة مورو الحسناء، بحيث شعر كل منهما بضرورة البهرجة (وفق مصطلح المرسم) فارتديا أفضل ثيابهما للظهور في منزل الوكيل، حيث قادهما جاك مورو، بكر الأولاد، وهو فتى جريء، يرتدي سترة على الطراز الانكليزي ذات ياقة منبسطة، ويعيش خلال العطلة الصيفية، كسمكة في الماء، في هذه المنطقة التي تسود فيها والدته كسلطانة مطلقة.

قال: ماما، هوذا الفنانان المرسلان من قبل السيّد شينر.

نهضت السيدة مورو منشرحة لهذه المفاجأة السارة، وأظهرت مزيداً من تظارفها بينما كان الفتى بناء على طلبها يقدّم كرسيين للضيفين، ثم يهمس في أذن أمه: «ماما، إن ابن هوسون مع والدي وسأذهب لاصطحابه..

قالت الأم: ليس في الأمر عجلة، تسليا معاً بعض الوقت».

أوضحت هذه العبارة «ليس في الأمر عجلة» قلة الاهتمام برفيق رحلتهما، كما أنها كشفت أيضاً عن عاطفة مماثلة لما تكنّه زوجة أب لابن زوجها. والواقع أن السيدة مورو، التي لم تتمكن، خلال سبعة عشر عاماً من الزواج، أن تتجاهل تعلّق الوكيل بالسيدة كلابار والصغير هوسون، كانت تكره الأم والولد بشكل ظاهر، مما يبين سبب عدم مجازفة مورو باحضار أوسكار حتى الآن الى برسل.

قالت: «إننا مكلّفان أنا وزوجي بأن نستقبلكما بالترحاب في القصر، ونحن نحب كثيراً الفن» ثم أضافت بغنج «والفنانين، وأنا أرجوكما أن تتصرفا هنا كما في منزلكما، ففي الريف تُرفع الكلفة، ويجب منح كامل الحرية، وإلا كان كل شيء غثاً لاطعم له. وقد سبق لنا استقبال السيّد شينر..».

نظر ميستيغري بمكر الى رفيقه، بينما استأنفت استيل بعد لحظة توقف: «أنتما تعرفانه لاريب؟

ورد الرسّام: ومن لايعرفه ياسيدتي.

وأضاف ميستيغري: إنه معروف كحشيشة الدينار.

تابعت السيدة مورو: ذكر لي السيد غرندو اسمك، لكنني..

أجاب الرسّام وقد زاد اهتمامه في الكشف عن مضمون هذه المرأة: جوزيف بريدو»

بدأ ميستيغري يتمرّد داخلياً ضد لهجة الوكيلة الحسناء المتعالية؛ لكنه كان ينتظر كبريدوحركة أو كلمة يستنير بها، احدى هذه الكلمات المماثلة لكلمة القرد للدلفين[1]؛ التي يلتقطها الرسامون، هؤلاء الملاحظون بالفطرة القساة في سخرياتهم، كمرتع خصب لأقلامهم؛ ومنذ البدء فإن اليدين الضخمتين، والقدمين الطويلتين، لابنة فلاحي جوار سان -لو أثارت انتباه الرسامين؛ ثم إن تعبيراً أو تعبيرين، وصياغة في الجملة تكذب أناقة الهندام، وتكشف عن الوصيفة التي عرف فيها الرسّام وتلميذه بسرعة فريستهما، وبتبادل نظرة سريعة اتفق الاثنان على الاهتمام جيداً باستيل بحيث يمكنهما قضاء فترة اقامتهما بشكل ممتع.

قال جوزيف بريدو: «إنك تحبين الفنون، وأنت على الأرجح قد درستها بنجاح، ياسيدتي؟

- كلا، إنما دون اهمال لهذه الناحية، فإن ثقافتي تجارية محضة، لكن لدي احساس بالفنون، بلغ من الرهافة والعمق، مادفع السيد شينر ليرجوني دائماً عندما ينهي احدى القطع، للحضور لأبدي له رأيي فيها.

---

(١) المقصود كلمة تكشف عن جهل أو حماقة الشخص المتهور في الحديث، على مثال ماورد في حكاية لافونتين «القرد والدلفين» فالقرد الغريق الذي أراد أن يصل على ظهر الدلفين حتى الساحل الاغريقي، صرّح بأنه مواطن أثينا، لكن تبين بعد لحظة أنّه يعتبر بيره شخصاً لامقاطعة.

قال ميستيغري: كما كان موليير يستشير لافوره».

دون أن تدرك السيدة مورو أن لافوره كانت خادمة، بدت في جهلها مغتبطة حالمة كأنها تعتبر هذه الكلمة بمثابة مديح لها.

قال بريدو: «كيف لم يطلب أن يقرشك[١]؟ فالرسّامون شرهون للحسناوات.

قالت السيدة مورو وقد بدا على وجهها غيظ ملكة مهانة: ماذا تعني بهذه الكلمات؟

ردّ ميستيغري بلهجة مقنعة: إننا نطلق بتعبير محترف الرسم عبارة: «قَرَش رأساً» أي رسم الملامح الرئيسة فيه بسرعة، ونحن لانطلب إلا قَرْش الرؤوس الجملية. ومن هنا جاءت الكلمة: «إنها جميلة بحيث يُشتهى قرشُها

أجابت وهي ترمي ميستيغري بنظرة ولهى تفيض عذوبة: كنت أجهل أساس هذا التعبير.

قال بريدو: إن تلميذي السيد ليون دي لورا ذو ميل كبير لرسم الوجوه، وسيكون سعيداً جداً، **أيتها السيدة الجميلة**[٢]، أن يترك لك ذكرى عن مرورنا هنا برسم رأسك اللطيف».

أشار جوزيف بريدو الى ميستيغري كأنه يقول: «هيّا، انصب شباكك! لابأس بهـذه المرأة». وعند هذه النظرة انزلق ليـون دي لورا على الأريكة العريضة، قريباً من استيل، وتناول يدها فلم تمانع في أن تستبقيها في يده وهو يقول:

«أوه! إن كنت تريدين هدية غير متوقعة **لزوجك***، ياسيدتي، فأرجو

---

(١) CROQUER: قَرَش (قرش الطعام، أصاب منه، أو أخذه أولاً بأول)، وكذلك: رسم الخطوط الكبرى، ومن هنا جاءت التورية.

(*)(٢) يعتبر هذان التعبيران من الكلمات البورجوازية المبتذلة ويستخدمها الرسّامان أو يطلقهما بلزاك على لسانهما للسخرية.

منحي بعض الجلسات سراً، وسأجرّب من خلالها أن أتفوّق على نفسي. إنك على قدر من الجمال والنضارة والجاذبية حتى أن رجلاً بدون موهبة يغدو عبقرياً عندما يتخذك نموذجاً لرسمه! فسيستمد من عينيك كثيراً من . . .

وقال جوزيف مقاطعاً ميستيغري: وسنرسم أيضاً أولادك الأعزاء في أرابسك القصر.

قالت وهي تنظر الى بريدو بغنج: أفضل رسمهم في صالتي، لكن في هذا تطفّل.

- إن الجمال ياسيدتي ملك يعبده الرسّامون، وله عليهم كثيرمن الحقوق».

فكرت السيدة مورو في نفسها قائلة: «كم هما لطيفان؟ ثم سألتهما» أتحبان النزهة مساء بعد العشاء عبر الغابة في العربة؟ . .

كان ميستيغري عند كل عرض يهتف بنبرات منتشية: أوه! أوه! أوه! لكن أتكون برسلٍ هي الجنة الأرضية؟

أضاف بريدو: مع حواءٍ، شقراء، امرأة شابة رائعة الجمال.

في اللحظة التي كانت فيها السيدة مورو تختال، وتحلّق في السماء السابعة، جُذبت كطيّارة من ورق شُدَّت بخيط، على صوت خادمتها وهي تدخل كطلقة رصاصة وتهتف «سيدتي!

- ماذا يا روزالي، كيف تجرؤين على الدخول الى هنا دون أن استدعيك؟»

لم تبالي روزالي بالتعنيف، وهمست في اذن سيدتها: «إن السيّد الكونت في القصر

سألت الوكيلة: أهو يطلبني؟

- كلا ياسيدتي . . . لكنه يطلب حقيبته ومفتاح جناحه.

قالت وقد بدرت منها حركة دعابة لتخفي اضطرابها: فليؤتَ بهما له.

هتف أصغر أبنائها؛ وهو يرافق أوسكار الذي احمر وجهه كالخشخاش المنثور ولم يجرؤ على التقدّم وهو يرى الرسّامين في أناقة تامة: أمي، هوذا أوسكار هوسون.

قالت استيل بلهجة جافة: «ها أنت أخيراً ياصغيري أوسكار» ثم استأنفت وهي تتأمّله بالطريقة الأكثر ازدراء: «آمل أن تذهب لتغيير ملابسك، فوالدتك لم تعوّدك على ماأعتقد بالجلوس على مائدة عشاء ضيوف وأنت بهذه الحالة الزريّة.

قال ميستيغري القاسي: أوه! يجب أن يملك دبلوماسي المستقبل سروالاً ذا رقعة، فثوبان أكبر قيمة من واحد.

هتفت السيدة مورو: دبلوماسي المستقبل؟

ترقرقت الدموع في عيني أوسكاروهو ينقل ناظريه بين جوزيف وليون.

أجاب جوزيف مشفقاً على أوسكار، ومحاولاً أن ينقذه من ارتباكه: مزحة قيلت خلال السفر واستأنف ميستيغري الفظ: أراد الصغير أن يهزل كهزلنا فأفرط، وهاهو الآن كحمار في سهل.

قالت روزالي وهي تعود الى باب الصالة: سيدتي، إنَّ صاحب السعادة أمر باعداد عشاء لثمانية أشخاص، ويريده جاهزاً في الساعة السادسة، ماالعمل؟

خلال هذه المداولة بين إستيل وخادمتها تبادل الفنانان وأوسكار نظرات ترتسم فيها تخوّفات مريعة.

سأل جوزيف بريدو: من هو صاحب السعادة؟

أجاب ابن مورو الصغير: إنه الكونت دي سريزي.

قال ليون دي لورا: هل كان، مصادفة في عربة الكوكو؟

رد أوسكار: أوه! لايمكن للكونت دي سريزي أن يسافر إلا في عربة ذات أربعة أحصنة.

قال الرسّام للسيدة مورو عندما عادت ببعض الخزي الى مكانها: كيف وصل الكونت دي سريزي؟

قالت: لاأعلم، ولاأجد تفسيراً لوصول سيادته. ولا الغرض من مجيئه، خاصة ومورو ليس. هنا!

حضر أحد البستانيين وقال موجّهاً كلامه الى جوزيف: يطلب صاحب السعادة من السيد شينر أن يمرّ على القصر ويرجوه أن يقبل دعوته على العشاء، كما يدعو أيضاً السيد ميستيغري.

قال التلميذ ضاحكاً: لقد كوينا، فالكونت هو من خيل الينا أنه أحد البورجوازيين في عربة بييروتن. صدق القول: «لن تكشف أبداً عما تفتش عنه[1]».

غدا أوسكار عند هذا الكشف كتمثال من ملح وأحسّ في حلقه بمرارة كالعلقم. خاصة عندما قال ميستيغري له: وأنت الذي حدثّه عن المتيمين بامرأته، وعن مرضه الخفي!

هتفت زوجة الوكيل وهي تنظر الى الفنانين اللذين راحا يضحكان في وجه أوسكار: «ماذا تريدان أن تقولا؟».

بقي أوسكارصامتاً، متهدماً، مخبولاً، لايسمع شيئاً، بالرغم من أن السيّدة مورو راحت تسأله وتهزّه بعنف بأحد ذراعيها الذي أمسكته به وشدّت عليه بقوة؛ لكنها اضطرت أن تترك أوسكار في صالتها دون أن تحصل منه على جواب، لأن

(١) المثل: إنك لن تجد Trouve لكن الرسام الساخر قلب هذا الفعل الى Trousse كشف.

روزالي نادتها من جديد طالبة منها غطاء للمائدة وفضيات، عدا عن ضرورة اشرافها بالذات على تنفيذ الأوامر المتعدّدة التي يعطيها الكونت. وكان الخدم، والبستانيون، والبوّاب وزوجته، وجميع الناس يذهبون ويجيئون في ارتباك يسهل تصوره، فالسيّد قد هبط عليهم كقنبلة؟ اذ أنه وصل من أعلى الكاف عبر أحد الشِعاب التي يعرفها الى بيت الحارس قبل وصول مورو اليه، ودهش الحارس، وهو يرى سيده الحقيقي، الذي سأله: هل مورو هنا، اذ أنني أرى حصانه؟

- كلا ياصاحب السعادة، لكنه مزمع أن يذهب الى مولينو قبل العشاء، لذلك ترك حصانه هنا، بينما توجّه ليعطي بعض التعليمات في القصر».

كان الحارس يجهل أهمية هذا الجواب، وهو في الظروف الحاضرة، وفي عيني رجل حاد الذهن يعادل اليقين.

قال الكونت لحارس قصره: إن كنت حريصاً على عملك، فاذهب بمنتهى السرعة على هذا الحصان الى بومون وسلّم السيد مرغرون هذه الرسالة التي سأكتبها الآن؟ ودخل الكونت الى الرواق وكتب ورقة طواها بحيث يتعذر فتحها دون ملاحظة ذلك وسلّمها الى الحارس، وهو يمتطي صهوة الجواد، قائلاً له: لاتنطق بكلمة لأيّ كان. ثم أضاف وهو يوجه كلامه الى زوجة الحارس: «أما أنتِ أيتها السيدة، فإن دهش مورو لعدم وجود حصانه، فقولي له إنني أخذته.

وتوجّه الكونت بسرعة نحو حدائق القصر التي فتحت له بوّابتها عقب اشارة أبداها. أيّاً كان التمرّس بصخب السياسة وانفعالاتها وخيبات الأمل فيها؛ فإن روح رجل مايزال قويّاً، قادراً على الحبّ في عمر الكونت تبقى دائماً متيقظة حذرة من الخيانة. لم يبال السيد دي سريزي كثيراً بأن يعرف في سان بريس إن كان قد خُدع من قبل مورو، بل إنّه لم يعتقد بتواطؤ مورو مع ليجه وكاتب العدل، إنّما بانقياده لهما على الأكثر؛ وهكذا فإنّه على عتبة النُزُل، وخلال

حديث صاحبه مع الأب ليجه، كان مايزال يفكر بالغفران لوكيله بعد أن يوجّه اليه التأنيب المناسب. شيء غريب! لم يعد المكر الجشع للرجل الذي وثق به يشغله إلا كحادثة عارضة، منذ اللحظة التي كشف فيها أوسكار عن العلّة المستعصية لهذا المجدّ العنيد والاداري النابوليوني؛ ومثل هذه الأسرار المصونة جيداً لايمكن أن يفضحها إلا مورو الذي سخر دون شك من المحسن اليه مع امرأته الوصيفة السابقة للسيدة دي سريزي أو مع اسبازي الادارة القديمة. وبكى هذا العين من أعيان فرنسة، هذا الوزير، كما يبكي الشباب وهو يلقي بنفسه في الشِعب المؤدّي الى القصر؛ ذرف دموعه الأخيرة! فجميع العواطف البشرية قد هوجمت فيه بقسوة وعنف في آن معاً حتى أن هذا الرجل المتميز بهدوئه كان يمشي في حدائق قصره كوحش جريح.

عندما طلب مورو حصانه، وردّت عليه امرأة الحارس: «إن السيد الكونت قد أخذه» صرخ: «من؟ أي كونت؟».

قالت: «الكونت دي سريزي، معلّمنا» ثم أضافت لتتخلّص من الوكيل: «وهو على الأرجح في القصر».

لم يستوعب مورو شيئاً من هذا الحدث، وتوجّه نحو القصر، لكنه ارتد سريعاً على عقبيه ليستزيد ايضاحاً من زوجة الحارس، اذ أنّه أحسّ بخطورة وصول معلمه سراً وتصرفه الغريب. لكن المرأة المرتعبة لرؤية نفسها محصورة كما في فكّ ملزمة بين الكونت والوكيل أغلقت على نفسها باب المحرس مصممة ألا تفتح إلا لزوجها. وازداد قلق مورو فسعى راكضاً الى مسكن البواب حيث علم أن الكونت يرتدي ملابسه؛ وقالت له روزالي عندما صادفها: «سبعة أشخاص مدعوون على العشاء الى مائدة سيادته..».

توجّه مورو نحو منزله، ورأى عند ذلك فتاة المدجنة في جدال مع شاب وسيم المنظر.

كانت الفتاة المسكينة تصرخ: قال لي سيدي الكونت أن أتوجه اليك «أنت العقيد، مساعد مينا».

أجاب جورج: أنا لست عقيداً.

قالت الفتاة: ولكن، إن اسمك جورج؟

قال الوكيل متدّخلاً: ماالأمر؟

– سيدي، إن اسمي جورج مارست، وأنا ابن تاجر خرداوات بالجملة في شارع سان- مارتن. وأنا آت في مهمة لدى السيد الكونت دي سريزي، ومكلّف من قبل السيد كروتا، موثق العقود، الذي أعمل لديه ككاتب ثان.

قالت الفتاة: وأنا أكرّر لسيدي الوكيل أن سعادة الكونت قال لي: «سيأتي عقيد اسمه زِرني جورج، هو مساعد مينا، وقد وصل في عربة بييروتن، فإن سأل عني، أدخليه الى قاعة الانتظار».

قال الوكيل: لامجال للمزاح مع سيادته، فهيّا. أيّها السيد. لكن كيف أمكن لسيادته أن يأتي الى هنا دون أن أعلم عن وصوله؟ وكيف أمكن لسيدي الكونت أن يعرف أنك أتيت بعربة بييروتن؟

قال الكاتب: من المؤكّد أن الكونت هو المسافر الذي كان سيجلس في موقع الأرنب في عربة بييروتن لولا تلطف أحد الشباب وتنازله له عن مكانه.

هتف الوكيل وفتاة المدجنة منذهلين: في موقع الأرنب في عربة بييروتن؟

تابع جورج مارست: إنني متأكد، خاصة بسبب ماذكرت هذه الفتاة.

قال مورو: ولكن كيف؟

هتف الكاتب: آه! هوذّا الموضوع؟ من أجل التفكّه مع المسافرين، قصصت عليهم بعض القصص الخارقة عن مصر واليونان واسبانية، وكانت جزمتي مجهزة بمهاميز فاعتبرت نفسي عقيداً في الخيالة؛ إنّها قصة على سبيل الاضحاك.

قال مورو: لنرَ، كيف كان المسافر الذي تعتقد أنه السيد الكونت.

قال جورج: كان وجهه بلون القرميد، وشعره أبيض بكليّته، بينما حاجباه سوداوان

-إنّه هو!

قال جورج مارست: لقد أضعت عملي.

- لماذا؟

- سخرت من أوسمته.

- باه! إنه طيب كطفل، وقد سلّيته. تعال بسرعة الى القصر، حيث سأصعد لأرى سيادته. لكن أين ترككم السيد الكونت؟

- في أعلى الجبل.

هتف مورو: ضعت أنا.

قال الكاتب في نفسه: بعد كل حساب، مازحته بتهكم لكنني لم أوجه اليه اهانة.

سأل الوكيل: ولماذا أنت آت؟

- إنني أحمل عقد بيع مزرعة مولينو جاهزاً.

- هتف الوكيل: ياالهي! إنني لاأفهم شيئاً من هذا التصرف».

شعر مورو بقلبه يخفق بشدة عندما سمع صوت سيّده يرد من خلف الباب بعد أن قرع عليه مرّتين: «أهذا أنت ياسيّد مورو؟

- نعم، ياصاحب السعادة.

- ادخل!.

كان الكونت ينتعل حذاء ناعماً ويرتدي بنطالاً أبيض وصداراً أبيض،

وسترة سوداء تلمع عليها شارة الدرجة الكبرى من وسام جوقة الشرف. والى اليسار في عروة تتدلى الجزّة الذهبية من طرف سلسلة ذهبية، والوشاح الأزرق يبرز جلياً على الصدار؛ وقد سرّح بنفسه شعره، وتزيّن هكذا دون شك ليستقبل مارغرون بمظاهر نبل برسل وربّما أيضاً ليؤثر على هذا الرجل بهيبة النفوذ الكبير.

قال الكونت وهو جالس وقد وقف أمامه مورو دون أن يدعوه الى الجلوس: «وبعد أيّها السيد ألا يمكننا أن ننجز اذاً الصفقة مع مارغرون.

- في هذا الوقت يطلب ثمناً غالياً لمزرعته.

قال الكونت وهو يتصنّع مظهراً حالماً: ولكن لماذا لا يأتي؟

- إنه مريض ياصاحب السعادة.

- هل أنت متأكد؟

- ذهبت اليه...

قال الكونت وقد اتخذ مظهراً قاسياً بدا فيه رهيباً: أيّها السيّد، ماذا تفعل برجل منحته ثقتك بحيث يراك تضمد آثار داءٍ أردته خفيّاً، إن ذهب يسخر منه لدى بغيٍ؟.

- أوسعه ضرباً.

- وإن لاحظت الى جانب ذلك أنه يخون الثقة التي وضعتها فيه ويسرقك؟

- أسعى الى كشف خيانته، وأرسله الى سجن الأشغال الشاقة.

- اسمع ياسيد مورو! تكلمت دون شك عن دائي لدى السيده كلابار وسخرت لديها ومعها من هيامي بالكونتة دي سريزي؛ لأن هوسون الصغير تحدّث عن مجموعة من الظروف المتعلقة بمعالجتي الى مسافري عربة عامة، هذا الصباح، وبحضوري. و.. يعلم الله بأيّة لهجة تجرّأ على الافتراء على

زوجتي. أخيراً علمت من فم الأب ليجه بالذات، وهو عائد من باريس في عربة بيروتن، الخطة المدبّرة من قبله مع كاتب عدل بومون ومعك، والمتعلقة بمولينو. وإن كنت قد ذهبت الى السيد مارغرون، فمن أجل أن تقول له ليتظاهر بالمرض؛ وهو ليس بالمريض وأنا أنتظره على العشاء، وسيأتي. وبعد أيّها السيّد، إنني أغفر لك حصولك على ثروة تقدّر بمئتي وخمسين ألف فرنك ربحتها خلال سبعة عشر عاماً. . وأنا أدرك ذلك. لو طلبت مني في كلّ مرة ماكنت تأخذه، أو ماقدّم لك، لأعطيتك إياه؛ فأنت ربّ عائلة، وقد كنت حتى في عدم أمانتك، أفضل من غيرك، على ماأعتقد. ولكن، وأنت تعلم الأعمال التي أنجزتها للبلاد، لفرنسة، وأنت الذي رأيتني أقضي مئات الليالي ساهراً من أجل الامبراطور، أو في عمل متواصل لمدة ثمان عشرة ساعة يومياً خلال فصول كاملة، ولكن وأنت تعلم مدى حبي للسيّدة دي سريزي؛ أن تثرثر عن ذلك أمام ولد، وتسلّم أسراري وعواطفي لسخرية واحدة كالسيدة هوسون. .

- سيدي. . .

- هذا لايغتفر، أن تسيء الى رجل في مصالحه، هذا لاشيء؛ لكن أن تطعنه في قلبه! . . . أوه! أنت لاتعلم ماذا فعلت!». وضع الكونت رأسه بين يديه وبقي صامتاً للحظة ثم استأنف الكلام: «سأترك لك ماحصلت عليه، وسأنساك. . حفاظاً على كرامتي، وحفظاً لسمعتك، سنفترق بلياقة، لأنني أتذكر في هذه اللحظة مافعله والدك من أجل والدي. وبعد، ستتفاهم، مع السيد دي ريبر الذي سيخلفك، فكن مثلي هادئاً، ولاتعرّض نفسك لفضول الحمقى، وخاصة حذار من السفسفة أو التسويف؛ وإن كنت قد أضعت ثقتي، فجرّب أن تحتفظ بلباقة الأشخاص الأغنياء. أما هذا الصغير التافه الذي كاد يقتلني، فلن ينام في برسل! ضعه في نُزُل، اذ لن أضمن فورة غضبي إن رأيته.

قال مورو والدموع في عينيه: أنا لاأستحق أبداً كلّ هذا اللطف، ياسيدي. نعم، لو أنني كنت غير مستقيم تماماً لبلغت ثروتي خمسمئة ألف فرنك. وأنا

مستعد الآن لأن أبين لك بالتفصيل ماأملك! لكن دعني أصرّح لك ياسيدي، أنني في حديثي مع السيدة كلابار لم أكن أقصد أبداً السخرية، بل بالعكس الرثاء لوضعك، ولسؤالها إن كانت تعلم ببعض أدوية يجهلها الأطباء ويمارسها أبناء الشعب . . . وقد تطرقّت لعواطفك أمام الصغير، وهو نائم (إنّما يبدو أنه كان يسمعنا)، وكان هذا دائماً بعبارات مليئة بالود والاحترام. لكن يشاء القدر الغاشم أن يعاقب افشاء الأسرار كالجرائم. إنّما وأنا أذعن لنتائج غضبك المحقّ، اعلم على الأقل كيف حدثت الأمور. أوه! كنت أتحدث من قلب الى قلب عنك الى السيّدة كلابار.

أخيراً يمكنك أن تستجوب زوجتي، فنحن لم نتطرق يوماً الى هذه الأشياء. .

قال الكونت بقرار جازم: يكفي، لسنا أولاداً، هذا أمر بات لارجوع عنه. اذهب ورتب أمورك وأموري. يمكنك أن تبقى في المنزل الذي تقيم فيه الآن حتى شهر تشرين الأول. وسيقيم السيد والسيدة ريبر حتى ذلك الوقت في القصر. وجرّب أن تتعامل معهما وفق الأصول، وكأشخاص لايتبادلون الودّ، لكنهم يحافظون على المظاهر.

نزل الكونت ومورو من القصر، وقد حافظ الكونت على هدوئه ووقاره، بينما كان مورو شاحباً مبيض اللون كشعر سيده.

خلال هذا المشهد، كانت عربة بومون المنطلقة من باريس في الساعة الواحدة تتوقّف أمام بوابة القصر، وينزل منها السيّد كروتا، ثم يجلس في الصالة، وفقاً لتعليمات الكونت، حيث وجد كاتبه مرتبكاً الى حدّ بعيد، برفقة الرسّامين، وثلاثتهم مشوّشو الشخصية. وقد جاء أيضاً السيد دي ريبر، وهو رجل في الخمسين من العمر، ذو وجه متجّهم، وكان يرافقه مارغرون الكهل، وكاتب عدل بومون وهو يمسك بيده مجموعة من الاضبارات والصكوك. عندما رأى جميع هؤلاء الأشخاص الكونت في بزّته كرجل دولة، انتاب جورج مارست

شعور بألم قولنجي، وارتعش جوزيف بريدو؛ لكن ميستيغري المتأنق في ثياب العيد، وليس لديه مايلوم نفسه عليه، هتف بصوت عال: «وبعد، إننا أفضل بما لايقدَّر هكذا.

قال الكونت وهو يمسك الفتى من أذنه ويقوده معه: أيّها الفكه الصغير، كلانا في زينته ثم تابع الكونت مخاطباً الفنان ومشيراً الى السقف؛ هل تعرّفت على عملك، ياعزيزي شينر؟

أجاب الفنان: ياصاحب السعادة، أخطأت في ثرثرة، بانتحال اسم شهير، لكن ما حدث هذا اليوم يلزمني على أن أصنع لك أشياء جميلة تُشهر اسم جوزيف بريدو[1] قال الكونت بحرارة: تصدّيت للدفاع عني وآمل بأن تسعدني في مشاركتي، أنت وميستيغري الفكه، العشاء هذا المساء.

قال التلميذ الجريء: لتكن على حذر ياصاحب السعادة، «فالبطن الجائع لاآذان له».

هتف الوزير وقد خطرت له ذكرى: بريدو، أتكون نسيباً لواحد من أشد العاملين اخلاصاً للامبراطورية، وكان رئيس قسم وقضى ضحية حماسته وانصرافه بكل طاقته الى عمله.

أجاب جوزيف وهو ينحني احتراماً: إنني ابنه، ياسيدي.

أخذ الكونت بيد الرسام بين يديه قائلاً: «أرحب بك ههنا، لقد عرفت أباك»؛ ثم أضاف باسماً: «ويمكنك أن تعتمد عليّ كاعتمادك على عمّ... وافد من امريكا؛ لكنك ماتزال شاباً على التحاق تلاميذ بك: فلمن يتبع اذا ميستيغري؟

أجاب جوزيف: لصديقي شينر، وقد أعارني إياه، والاسم الحقيقي لميستيغري هو ليون دي لورا. لكن ياصاحب السعادة، إن تتذكر والدي،

---

(١) ربط مع قصة «المصيدة» حيث تمجّد شهرة جوزيف بريدو كفنان لامع.

فأرجو أن تذكر ابنه الذي اتهم بمؤامرة ضد الدولة واقتيد الى محاكمة في مجلس الأعيان [1].

- آه هذا صحيح، سأفكّر بذلك، كن متأكداً.

ثم تقدّم الكونت نحو جورج وقال: أما الأمير زرني- جورج، صديق علي باشا، ومرافق مينا.

هتف كروتا: هو؟ كاتبي الثاني.

قال الكونت بلهجة قاسية: إنّك على خطأ، ياأستاذ كروتا، فالكاتب، الذي يريد أن يغدو موثّقاً في يوم ما، لايترك وثائق هامة في العربات تحت رحمة المسافرين!

والكاتب الذي يطمح ليكون موثقاً لاينفق عشرين فرنكاً بين باريس ومواسيل.

والكاتب الذي يتطلع ليكون موثق عقود لايُعرّض نفسه للتوقيف كضابط منشق..

قال جورج مارست: ياصاحب السعادة، يمكنني أن أخادع البورجوازيين في السفر، ولكن قاطعه معلمه وهو يوجه له لكزة من مرفقه في كشحه: دع سيادته يتابع كلامه.

- على الموثّق أن يتميز في وقت مبكر بالكتمان، والحذر، والدقة؛ وألا يعتبر وزير دولة كصانع شمعدانات...

قال جورج: إنني أستحق اللوم على أخطائي، لكنني لم أترك وثائقي تحت رحمة..

قال الكونت: إنّك ترتكب في هذه اللحظة خطأ تكذيب وزير دولة، وعين

---

(١) تلميح أيضاً الى ماورد في قصة «المصيدة» حول مؤامرة شارك فيها جوزيف بريدو.

من أعيان فرنسة، ونبيل، وكهل، وزبون، فتش عن مشروع عقد البيع الذي تحمله؟».

قلّب الكاتب جميع الوثائق التي تتضمنها محفظة أوراقه.

قال وزير الدولة: «لاتخلط أوراقك عبثاً، هوذا ماتبحث عنه» وأخرج من جيبه ورقة العقد المذكور.

قلّب كروتا الوثيقة ثلاث مرات بين يديه، بمزيد من الدهشة لتلقيها من قبل زبونه النبيل وقال لمستخدمه: كيف، أيّها السيّد؟..

واستأنف الكونت: لولم آخذها؛ فإنّ الأب ليجه، وهو ليس الأبله الذي تظن وفقاً لأسئلته المتكررة عن الزراعة، قد برهن لك بوجوب التفكير دائماً بالمهنة التي تمتهنها، وكان بامكانه أن يقتنص هذه الوثيقة ويعرف مشروعي.

أرّحب بك أيضاً للعشاء على مائدتي، إنما بشرط أن تقصّ علينا كيف تمّ تنفيذ حكم الاعدام بقائد سميرن، وتطلعنا على مذكرات بعض الزبائن التي قرأتها دون شك قبل أن يدري بها الجمهور.

همس ليون دي لورا في أذن جوزيف بريدو: كَدَر بعد هَذْر

قال الكونت لموثق بومون، وللاستاذ كروتا، وللسيّدين مارغرون ودي ريبر:

فلننتقل أيّها السادة الى الموضوع الاخر، اذ أننا لن نجلس الى المائدة قبل أن ننهي صفقة الشراء، اذ كما قال صديقي ميستيغري: يجب معالجة الأمرْ في وقته.

قال ليون دي لورا لجورج مارست: الواقع أنه فعلاً ببراءة الأطفال.

ردّ جورج: نعم، لكن معلمي ليس كذلك، وسيطلب مني أن أذهب للهذر في مكان آخر.

قال جوزيف بريدو : باه! إنّك تحب السفر .

هتف ليون دي لورا : أي علقة سيتلقاها أوسكار الصغير من السيد مورو وزوجته، الدرس عبرة، إن حصل وتحدّث مجدّداً في عربة عامة! . . .

قال جوزيف بريدو : إنّه لهوَ غبي .

وتابع ميستيغري : ومبتذل، فكثرة الكلام تقلّل المهابة .

بينما كانت الصفقة تتمّ بين السيد مارغرون والكونت دي سريزي مُمَثَّلين بموثّقيهما، وبحضور السيد دي ريبر، انسحب مورو الوكيل السابق بخطا متثاقلة الى منزله، ودخل دون أن يرى أمامه، وجلس على أريكة الصالة، حيث انزوى ابن هوسون في ركن بعيداً عن نظره، اذ أن وجه صديق أمّه أرعبه .

قالت إستيل عند دخولها وقد بدا عليها الارهاق من مشاغل اليوم : «وبعد، مالي أراك هكذا ياعزيزي؟

– ضعنا ياعزيزتي، وأضعنا مواردنا، فأنا لم أعد وكيلاً في برسل، وفقدت ثقة الكونت .

– وماسبب ذلك؟

– كان الأب ليجه في عربة بييروتن وتحدّث بما كشف خدعة مولينو، ولكن ليس هذا ماحرمني من رعاية الكونت .

– هه! اذاً ماذا؟

– تحدّث أوسكار بسوء عن الكونت، كما كشف عن مرض السيّد . .

صرخت السيدة مورو : أوسكار السبب! لقد عوقبت ياعزيزي من حيث أذنبت . هذه عاقبة من يُغذي الأفعى من ضرعه؟ . . . كم من مرّة قلت لك . .

قاطع مورو زوجته بصوت متهدّج : يكفي!» .

في تلك اللحظة اكتشفت استيل وزوجها أوسكار منزوياً في الركن؛

وانقض مورو على الولد التعس كحدأة على فريستها، وأمسك به من ياقة معطفه الزيتوني، وجرّه نحو الضوء الوافد من احدى النوافذ وصرخ في وجهه بعنف مروّع:

«تكلم! ماذا قلت عن سيادة الكونت في العربة؟ أي شيطان أفلت لسانك من عقاله، أنت الذي كنت تبقى كالأبله في كلّ مرّة أخاطبك فيها؟ أية فكرة خطرت لك؟

بلغ الخبَل بأوسكار حداً لم يستطع فيه البكاء، فلزم الصمت وهو ساكن كتمثال.

قال مورو: «تعال واطلب المغفرة من صاحب السعادة.

صرخت استيل الساخطة: « وهل يبالي صاحب السعادة بهذه الحشرة الطفيلية؟ تابع مورو: هيّا، تعال الى القصر!».

انهار أوسكار كتلة خامدة، وسقط على الأرض.

صرخ مورو بغضب يزداد تأجّجاً بين لحظة وأخرى: «ألا تريد المجيء؟

صرخ أوسكار الذي لم يرد أن يتعرّض لعذاب هو بالنسبة اليه أشد مرارة من الموت: «كلا، كلا!» أمسك مورو عندئذ بأوسكار من ثيابه وجرّه كجثة هامدة في الأفنية التي ملأها الفتى بصراخه ونحيبه، وصعد به درج القصر، وبذراع ترتجف من الغضب، ألقى به متصلباً كوتد وهو يخور كالذبيح، في الصالة أمام قدمي الكونت الذي أنهى صفقة شراء مولينو، وأزمع الانتقال الى قاعة الطعام مع مدعويه.

صرخ مورو بأوسكار: «على ركبتيك! على ركبتيك، اجثُ أيّها التعس، واطلب المغفرة ممن منحك غذاء الروح بحصوله لك على منحة في الكلية!».

بقي أوسكار ووجهه ملتصق بالأرض، يُزبد غضباً، دون أن يتفوّه بكلمة،

وارتعش جميع المشاهدين، وبدا مورو الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه بوجه دام لشدة احتقانه .

قال الكونت بعد أن انتظر عبثاً اعتذار أوسكار؟ : هذا الشاب هو الابتذال بعينه؛ فالمغرور يستخذي، وهناك بعض الكبَر في مواقف الذل. وأنا أخشى ألا يستقيم هذا الفتى مهما صنعت من أجله» .

ومرّ وزير الدولة، وقاد مورو أوسكار مجدّداً الى منزله، وبينما كان يُقرن حصاناه بعربته، كتب الى السيدة كلابار الرسالة التالية :

عزيزتي

سبّب أوسكار لي الدمار، فخلال سفره، هذا الصباح، في عربة بييروتن، تحدّث عن حماقات السيدة الكونتة لصاحب السعادة بالذات، المسافر متخفياً، كما ذكر له بالذات أسرار مرضه الرهيب الذي بُلي به نتيجة ليالي العمل المتواصل خلال وظائفه المختلفة .

وبعد أن أقالني الكونت من عملي لديه أمرني بألا أسمح لأوسكار بالمبيت في برسل، وبإعادته من حيث أتى، وهكذا فأنا أقرن في هذه اللحظة حصاني بعربة زوجتي، اذ عانا له، وسيقوم بروشون خادم اسطبلي بايصال هذا الصغير التعس اليك .

إنني مع زوجتي في حزن شديد يمكنك تصوّره، لكنني لاأستطيع وصفه . وخلال أيام قليلة سأحضر لرؤيتكم، اذ يجب أن اتخذ قراراً؛ فلديّ ثلاثة أولاد، ويجب أن أفكر بالمستقبل . ولاأعلم الآن ماذا أصمّم، فرغبتي أن أبيّن للكونت ماذا تعني سبع عشرة سنة من عمر رجل مثلي . إنني أملك مئتين وستين ألف فرنك، وأريد أن أصل الى ثروة تسمح لي في يوم ما أن أكون شبه نظير لسعادته . في هذه اللحظة أشعر أنني قادر على زحزحة الجبال، وعلى قهر أعتى الصعاب . أي حافز في مشهد اذلال مماثل! . . أي دم يجري في عروق أوسكار اذاً؟ لاأستطيع أن أهنئك عليه، فقد كان سلوكه مثال الحمق : وحتى اللحظة التي

أكتب لك فيها لم يستطع أن يلفظ كلمة، ولاأن يجيب على ماأطرحه أو تطرحه زوجتي من أسئلة عليه. هل سيصاب بالبَلَه أم أنّه مصاب به فعلاً؟

صديقتي العزيزة

يبدو أنك لم تعطه التوجيه الكافي قبل أن تسفريه لنا؟ مصائب عديدة كان يمكن تجنّبها لو رافقته كما رجوتك! وقد كان بامكانك البقاء في مواسيل إن كانت إستيل ترعبك الى هذا الحد. لكن سبق السيف العزل. وداعاً، والى موعد قريب.

خادمك المخلص وصديقك

مورو»

في الساعة الثامنة مساء، وبعد عودة السيدة كلابار من نزهة قصيرة مع زوجها، جلست تحيك جورباً للشتاء لأوسكار، على ضوء شمعدان وحيد. وكان كلابار ينتظر أحد أصدقائه المسمى بواريه[1]، الذي يحضر أحياناً ليجري جولة في لعب الدومينو معه؛ اذ أنه لايجسر أبداً على قضاء سهرة في مقهى، فالى جانب الحرص الذي تفرضه عليه قلة موارده، فإن كلابار لايستطيع بطبعه التلاؤم مع سمّار ألفوا المزاح وقد يسيئون اليه بسخريتهم.

قال كلابار لزوجته: أخشى أن يكون بواريه قد حضر ولم يجدنا.

أجابت السيدة كلابار: لو حدث هذا لأعلمتنا البوّابة، ياصديقي.

- يمكنها أن تنسى.

- ولماذا تريد أن تنسى؟

- لن تكون هذه هي المرة الأولى التي تنسى فيها شيئاً يعود لنا، فالله يعلم كيف يعامل الأشخاص الذين ليس لديهم عربة.

---

(١) مثيل «سميّه» في رواية الأب غوريو، والمتواطىء مع الآنسة ميشونو، الذي يظهر بشكل غير متوقع هنا. لكن يبدو أن لكلابار العديم الكفاءة علاقات مع أشخاص مماثلين له.

- ردّت الزوجة المسكينة لتغيّر الحديث وتتجنب الافلات من تذمر كلابار: أخيراً، فأوسكار الآن في برسل، وسيكون سعيداً في تلك المنطقة، وفي ذلك المنتزه الجميل. .

أجاب كلابار: نعم انتظري الأخبار الطيبة، سيسبّب مشاجرة ما هناك.

- ألاتفتأ اذاً تبدي حقدك على هذا الولد المسكين؟ ماذا فعل لك؟ ايه! ياالهي، إن كنا في يوم سننعم باليُسر فربما سيكون ذلك بفضله، فهو صاحب قلب طيب. .

صرخ كلابار: عندما سينجح هذا الفتى في المجتمع ستكون عظامنا قد تحولت منذ مدة طويلة الى مكاحل. هل سيتغير اذاً؟ أنت لاتعرفين ابنك؛ إنّه متبّجح، كذاب، كسول؛ عديم الأهلية. .

قال الأم المسكينة، وقد طعنت في قلبها بهذه المهاترة التي سببتها لنفسها: لو تذهب لملاقاة السيد بواريه.

هتف كلابار: ولد لم يحصل يوماً على جائزة في دراسته!».

في نظر البورجوازيين، كان الحصول على جائزة في الصفوف الدراسية بمثابة تأكيد على مستقبل باهر ينتظر الولد. ردت الزوجة: «وهل حصلت أنت على جائزة ما؟ إن أوسكار كان صاحب الرتبة الرابعة في الفلسفة».

فرض هذا التأنيب الصمت للحظة على كلابار ثم استأنف: اضافة الى أن السيدة مورو تحبه كما تحبُّ دمَّلا، تعرفين أين؟! وستجرّب أن تنقل كرهه الى زوجها. . تتوقعين أن يغدو أوسكار وكيلاً في برسل؟ . . . لكن يجب أن يعرف مسح الأراضي؛ وأن يُلمَّ بالزراعة. .

- سيتعلّم.

هو؟ الهرّة! أراهن أنه إن استلم هذه المهمة، فلن يمرّ عليه أسبوع، دون أن يرتكب بعض حماقات، تدفع الكونت دي سريزي إلى طرده.

- ياإلهي، كيف يمكنك أن تنهال شؤماً على مستقبل فتى مسكين مليء بالمزايا الطيبّة، وهو بعذوبة ملاك، ويعجز أن يسبّب الأذى لأي مخلوق؟.

في تلك اللحظة، سمعت قرقعة سوط حوذيّ، وجلبة عربة تسير مسرعة؛ وكَدْفة حصانين يتوقفان أمام بوابة البيت، مما لم يألفه شارع سريزه، واندفع كلابار الى الخارج عند سماعه فتح النوافذ في الجوار، ثم هتف بصوت اختفت غبطته ضمن قلق حقيقي:

«لقد أعيد لك أوسكار مخفوراً! .

قالت الأم المسكينة وقد انتابتها رعشة هزّتها كما تهزّ ريح الخريف أوراق الشجر:

أوه! ياالهي، ماذا حدث له.

وصعد بروشون يتبعه أوسكار وبواريه.

كرّرت الأم مرة أخرى وهي تتوجّه الى خادم الاسطبل: ياالهي! ماذا حدث؟

- لاأعلم، لكن السيد مورو لم يعد وكيل برسل. ويقال إنّ السيد ابنك هو السبب، وقد أمر سيادة الكونت باعادته اليك، ومع ذلك فهوذا رسالة هذا المسكين السيد مورو، الذي تغير، ياسيدتي، بحيث يسبب الرعشة لمن يراه.

قالت الأم وهي تذهب لتلقي بنفسها على كرسي وتقرأ الرسالة المشؤومة:

«كلابار، قدّم كأسي خمر للحوذي، وللسيّد؟ ثم انجرت نحو سريرها وهي تقول:

«أوسكار، تريد اذاً أن تقتل أمك.. أبعد كل الذي أوصيتك به هذا الصباح..» لكنها لم تنه عبارتها، فقد غابت عن الوعي من شدّة ألمها.

بقي أوسكار واقفاً كالأبله، واستعادت السيّدة كلابار وعيها. عندما سمعت زوجها يصرخ بأوسكار وهو يهزه بذراعه: «ألا تجيب؟

قالت لابنها: اذهب أيّها السيد الى سريرك.

وقالت لزوجها: وأنت ياسيّد كلابار، اتركه هادئاً، لاتحوّله الى مجنون، لأنه متغيّر بشكل يدعو الى الخوف».

لم يسمع أوسكار عبارة أمه الأخيرة، اذ ذهب لينام، ما إن تلقى أمرها بذلك.

إن جميع الذين يتذكرون مرحلة مراهقتهم لايندهشون ان علموا أن أوسكار، بعد نهار مشحون بالانفعالات والأحداث، رقد كرقاد أهل الجنة، رغم فداحة أخطائه. وفي اليوم التالي لم يجد الطبيعةقد تغيّرت كما كان يعتقد، ودُهش لأنه شعر بالجوع، وهو الذي أحسّ في العشية أنه غير جدير بالحياة.

لم يتألم إلا معنوياً؛ وفي هذا العمر فان الانطباعات المعنوية تتابع بسرعة كبيرة بحيث أن احداها لاتضعف الأخرى أيّاً كان العمق الذي أثّرت فيه الأولى. وهكذا فإن نظام العقوبات الجسدية، رغم النقد العنيف الذي وجهه اليه الانسانيون في الأوقات الأخيرة، يبقى ضرورياً في بعض الحالات للأولاد؛ عدا عن أنه الأكثر تلاؤماً مع الطبيعة؛ فالطبيعة لاتلجأ لطريقة أخرى، فهي تستخدم الألم لتطبع ذكرى باقية لتعليماتها. فلو اقترن الخجل، العابر للأسف، الذي انتاب أوسكار في العشية، بعقوبة بدنية مارسها الوكيل، لكان الدرس كاملاً على الأرجح؛ فالرويّة التي تترافق مع التأديبات الواجب استخدامها هي أكبر دليل على عقمها، لأن الطبيعة لاتخطىء أبداً، بينما المهذب قد يشرد غالباً.

حرصت السيدة كلابار على أن ترسل زوجها الى خارج المنزل لتنفرد بابنها في ساعات الصباح. وكانت في حالة تستدر الشفقة، عيناها متورمتان من البكاء، ووجهها مجَهد من ليل دون رقاد، وصوتها ضعيف، وكل مافيها يستدعي الرأفة لما تعانيه من ألم مفرط لاتستطيع تحمله مرة ثانية. وبرؤيتها أوسكار يدخل أشارت اليه ليأتي ويجلس الى جانبها، وذكرته بلهجة ناعمة، لكنها نافذة، بحسنات

وكيل برسل. قالت لأوسكار إنّها منذ ست سنوات خاصة تعيش من احسانات لبقة من السيد مورو فوظيفة السيد كلابار التي يعود الفضل فيها للكونت دي سريزي، وكذلك المنحة النصفية التي أنهى بموجبها أوسكار دراسته ستتوقفان عاجلاً أو آجلاً. ولن يستطيع كلابار المطالبة بتقاعد لا من المالية ولا من البلدية فسنوات خدمته في كل منهما غير كافية لمنحه تقاعداً. فماذا سيحلّ بهما بعد أن يفقد السيد كلابار عمله؟

قالت: بالنسبة لي يمكنني أن أسهر على المرضى، أو أعمل خادمة في أحد بيوت النبلاء فأكسب عيشي وعيش السيد كلابار. أما أنت ياأوسكار فماذا ستفعل؟ ليس لديك ثروة، ويجب أن تكوّن واحدة لتتمكن من العيش. وليس أمامكم أيها الشباب إلا طرائق أربع كبرى: التجارة، والادارة، والمهن ذات الحظوة، والخدمة العسكرية.

وأي نوع من أنواع التجارة يتطلب رأس مال لايتوفر لدينا. وفي حال نقص رأس المال يقدّم الشاب تفانيه وقدراته، لكن التجارة تتطلب كتماناً كبيراً، وسلوكك بالأمس لايؤمّل بنجاحك فيها.

وللدخول في الادارة العامة يجب قضاء مدة تدريب دون أجر، والتمتع بحماية نافذة، وقد فقدت الحامي الوحيد لنا والأكثر نفوذاً من الجميع. ومع ذلك، ومع افتراض أنّك حائز على امكانات فائقة يتمكن بواسطتها الشاب من النجاح سريعاً سواء في التجارة، أو في الادارة، فمن أين يمكن الحصول على المال للعيش والاكتساء خلال الوقت الذي ينقضي في التأهل للعمل؟».

هنا انصرفت الأم كجميع النساء، الى تأوّهات لفظية: ماذا يمكنها أن تفعل، بعد أن حرمت من المساعدات العينية التي كانت ادارة برسل تتيح لمورو أن يرسلها لها؟ لقد هدر أوسكار ثروة حاميه.

بعد التجارة، والادارة، وهما طريقان لايمكن لولدها أن يفكر بهما لنقص الامكانات المتوفرة لها، تأتي المهن ذات الحظوة: كتابة العدل، القضاء،

المحاماة، تحضير الجلسات القانونية؛ لكن يجب دراسة القانون مدة ثلاث سنوات ودفع مبالغ كبيرة للتسجيل، وللامتحانات، وللأطروحات، وللشهادات؛ عدا مايلزمه العدد الكبير من الطامحين من التميّز بموهبة عالية، أخيراً فإن قضية تدريب أوسكار تبرز دوماً.

قالت مختتمة حديثها: أوسكار، أنت موضع فخري، وأمل حياتي، وقد ارتضيت شيخوخة تعسة مركزة كل أنظاري عليك مؤملة أن أراك قد اخترت المهنة المناسبة ونجحت فيها؛ وهذا الأمل منحني الشجاعة على تقبل الحرمان الذي عانيت منه خلال ست سنوات لتمكينك من مواصلة دراستك في الكلية، حيث تطلب ذلك امدادك بسبعمئة الى ثمانمئة فرنك سنوياً، رغم المنحة النصفية. والآن وقد تبخّرت آمالي فإن مصيرك يرعبني! لايمكنني أن أنتزع فلساً من راتب السيد كلابار من أجل ولدي. فماذا ستفعل؟ لست على هذه القوة في الرياضيات بحيث تدخل الى المعاهد العليا المتخصصة، ومع ذلك فمن أين نستمد مبلغ ثلاثة آلاف فرنك التي يتطلبها الانتساب كطالب داخلي اليها؟ هوذا الحياة على حقيقتها، ياولدي! إنك في الثامنة عشر، وأنت قوي البنية، وليس أمامك إلا التطوّع كجندي، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتؤمّن عيشك..».

لم يكن أوسكار يعرف حتى الآن شيئاً عن أمور الحياة، وكجميع الأولاد الذين تربوا دون علمهم بشقاء الأهل، كان يجهل ضرورة العمل على تكوين ثروة. وكلمة **تجارة** لاتحمل اليه أية فكرة، وكلمة **ادارة** لاتعني له شيئاً كبيراً، لأنه لايتصوّر النتائج:

كان يستمع اذا بمظهر المذعن، الذي يجرب أن يبدو مرتبكاً أمام تحذيرات أمه التي كانت تضيع في الفراغ. غير أن فكرة التطوّع كجندي، والدموع التي ترقرقت في عيني أمه دفعت الولد الى البكاء، وما أن رأت السيّدة كلابار خدي أوسكار تخدّدها العبرات حتى غدت دون قوة، وكجميع الأمهات في مثل هذه الحالة، راحت تبحث عن خاتمة الكلام الذي ينهي هذه الأنواع من الأزمات التي يعانين منها، كما يعاني أولادهن الآلام.

قالت: هيا اذا ياأوسكار عدني بالكتمان مستقبلاً، وعدم اطلاق الكلام على عـواهنه، وأن تكبح هذا الاعـتـداد الأحـمق بالنفس، وأن... الخ... الخ..

وعد أوسكار أمه بكل ماطالبته به من وعود، وبعد أن جذبته يرفق اليها انتهت الى تقبيله لمواساته عما أبدته من لوم له.

قالت: الآن ستستمع الى أمك، وستتبع آراءها، لأن الأم لايمكن أن تعطي إلا نصائح طيبة لابنها؛ سنذهب الى زوج عمتك كاردو، فهو آخر أمل لنا. إنّ كاردو مدين بفضل كبير لأبيك، بموافقته على تزويجه من أخته الآنسة هوسون مع دوطة تعتبر ضخمة في ذلك الزمن، مما أتاح لكاردو أن يحصل على ثروة كبيرة في تجارة الحرائر. وأنا أعتقد أنه سيضعك لدى السيد كاموزو، خليفته وصهره، في متجره في شاع بوردونه.. لكن قريبك كاردو، كما سترى، له أربعة أولاد، وقد منح مؤسسته المسماة كوكو دور لابنته البكر، السيدة كاموزو، واذا كان كاموزو يملك الملايين، فإن له أيضاً أربعة أولاد، من زوجتين، وهو بالكاد يعرف بوجودنا، وقد زوّج كاردو ابنته الثانية ماريان للسيد بروتز، الشريك في مؤسسة بروتز وشيفرفيل. كما أن مكتب ابنه البكر، كاتب العدل، قد كلّف أربعمئة ألف فرنك، كما أنه عمل على ادخال ابنه الثاني جوزيف كاردو شريكاً في متجر ماتيفا للمواد الكيميائية والصيدلانية؛ فنسيبك كاردو اذاً لديه أسباب كثيراً لعدم الاهتمام كثيراً بك، فأنت لاتزوره أكثر من أربع مرات في السنة، أما هو فلم يعد يزورني مطلقاً في الوقت الحاضر هنا، بينما كان يعرف جيداً كيف يكثر من زياراته لي، أثناء عملي لدى السيّدة والدة الامبراطور، ليحصل على طلبات صاحبات السمو الأميرات، وطلبات الامبراطور، وكبار رجال البلاط. إن آل كاموزو الآن تحولّوا الى متطرفين ملكيين[1]، وقد تزوّج ابن كاموزو، من زوجته

(١) كما غدا نوسنجن ملكياً في رواية «**الأب غوريو**». كذلك فإن السيدة كاموزو- زوجة قاضي التحقيق- ابن تاجر الحرير تدفع زوجها في رواية «**بهاء وتعاسة الغانيات**» الى خدمة السلطة عشية التنظيمات الدستورية.

الأولى- من ابنة حاجب الملك[1]! إن هذا العالم أحدب عندما ينحط لأنه يفقد استقامته! أخيراً فهذا التاجر الماهر، صاحب «الكوكون دور» له زبائنه في بلاط آل بوربون، كأمثالهم في البلاط الامبراطوري سابقاً. وغداً سنذهب الى زوج عمتك كاردو. وآمل أن تعرف كيف ستتصرف بلياقة، اذ أنني أكرر، إنّه أملنا الأخير.

كان السيد جان جيروم سفرين كاردو أرملاً منذ ست سنوات بعد أن فقد زوجته الآنسة هوسون- عمة أوسكار- التي منحها والدها المموّن، في زمن الأبهة، دوطة مئة ألف فرنك من الفضة، وكان كاردو المستخدم الأول في «الكوكون دور» أحد أقدم المحلات التجارية في باريس، واشترى هذا المحل في العام ١٧٩٣، في الفترة التي أفلست الضريبة القصوى[2] أصحابه الأصليين. وقد سمحت له دوطة الآنسة هوسون أن يجمع ثروة ضخمة خلال عشر سنوات؛ ولأجل أن يوطد لأبنائه مراكز مالية مرموقة خطرت له الفكرة العبقرية في أن يوظف لنفسه ولزوجته مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك في سندات دخل لمدى الحياة، مما منحه دخلاً سنوياً قدره ثلاثون ألف فرنك أما رؤوس أمواله فقد قسمها الى ثلاثة أقسام، قدر كل منها أربعمئة ألف فرنك وزّعها على أولاده الثلاثة، واعتبر متجر الكوكون دور يمثل هذه القيمة ومنحه دوطة لابنته البكر التي تزوجها كاموزو. وهكذا فإن كاردو العجوز السبعيني يمكنه أن ينفق دخله السنوي - وهو ثلاثون ألف فرنك كما أسلفنا- دون أن يضر بمصالح أبنائه الذين يكنّون له مودة لايشوبها أي جشع مادي.

كان النسيب كاردو يسكن في ضاحية بلفيل أحد هذه البيوت الأولى الواقعة في أعلى لاكورتيل[3]، وكان يشغل في الطابق الأول المطلّ على وادي السين شقة بأجرة ألف فرنك سنوياً، موجّهة نحو الجنوب، ذات حديقة واسعة خاصة

---

(١) هي الآنسة آملي تيريون في روايتي **حجرة العاديات القديمة**، **والنسيب بونس**.

(٢) هي ضريبة فرضتها السلطة الثورية على المواد التجارية الكمالية لتحدّ من المضاربة.

(٣) كان حي لاكورتيل مشهوراً بحاناته ذات الحدائق والمنتزهات التي يؤمها الباريسيون للتسلية.

بها، لايضايقه وجود ثلاثة أو أربعة مستأجرين آخرين في ذلك البيت الريفي الواسع، وقد ضمن بعقد أجار طويل الأجل أن يقضي بقية حياته في هذا المنزل، وهو يعيش ببعض التقتير تخدمه طاهية عجوز، والوصيفة القديمة للمرحومة السيدة كاردو اللتان تنتظر كل منهما دخلاً سنوياً قدره ستمئة فرنك بعد موته، مما يدفعهما لعدم سرقته، والعناية الفائقة به؛ خاصة وأن مامن رجل مثله قليل النكد وعديم الاهتمام بسفاسف الأمور.

بقيت هذه الشقة التي أثّثتها المرحومة السيدة كاردو على الحالة نفسها منذ ست سنوات، فالعجوز منشرح بهذا الوضع، وهو لاينفق أكثر من ألف إكو سنوياً، اذ أنه يتعشى في باريس خمس مرات في الأسبوع، ويعود الى المنزل كل مساء، عند منتصف الليل في عربة معتمدة من مكتب متمركز على حاجز لاكورتيل، وهكذا فالطباخة لاتنشغل إلا بوجبة الغداء التي يتناولها مبكراً في الحادية عشر، ثم يرتدي ثيابه ويتعطّر ويذهب الى باريس. ولئن كان من عادة البورجوازيين أن يخطروا أهل منزلهم عندما يتعشّون في المدينة، فإن الأب كاردو، يخطر منزله عند توقعه العودة للعشاء فيه.

هذا العجوز القصير القامة، البدين، القوي الجسم، الممتلىء صحة، محافظ باستمرار على كامل أناقته، جوارب حريرية سوداء، وسروال من حرير غير صقيل، وصدار مضلّع أبيض، وقميص برّاق، وسترة زرقاء زاهية، وقفازان من حرير بنفسجي، وأبازميم ذهبية تشد سرواله وحذاءه، وشعر مستعار مبودر ربطت نهايته بشريطة سوداء[1] ويتميز وجهه بحواجب كثة كالدغل تبرق من تحتها عينان سنجابيتان، وبأنف مربّع ثخين وطويل يمنحه مظهر كاهن مرتل قديم، وهذا الشكل يعبّر فعلاً عن صاحبه، فالأب كاردو ينتمي في الواقع الى سلالة أشباه جيرونت[2] الشديدي المرح التي تنقرض يوماً بعد يوم

---

(١) كان هذا هو الزي السائد للكهول في العام ١٨٢٠، وكان راغون في رواية «سيزار بيروتو» بزي مماثل.

(٢) جيرونت: هو نموذج العجوز الطيب المخدوع في مسرحيات القرنين السابع عشر والثامن عشر.

والتـي كانـت تضـحك أشـبـاه تـوركـاره[1] في روايـات ومسـرحيات القرن الـثامن عشر.

والعم كاردو إن رأى سيّدة هتف: ياللفاتنة الجميلة! وهو يتوقف بعربته ليقلّ النسوة اللواتي لامرافق لهن، ويضع نفسه تحت تصرفهن بطرائق فروسية؛ وفقاً لتعبيره. وهو يخفي تحت مظهره الهادىء، وجبينه الثلجي شيخوخة منصرفة الى المتعة فقط. وهو بين الرجال يمارس الأبيقورية صراحة، ويسمح لنفسه بدعابات فيها بعض الجرأة؛ ولم يجد في مغازلة صهره كاموزو للممثلة اللطيفة كورالي[2] أي سوء اذ أنه هو بالذات كان الحامي المقرب، سراً، للآنسة فلورنتين الراقصة الأولى في مسرح «الغيته». لكن من هذه الحياة، ومن هذه الآراء، لايظهر شيء في منزله ولافي سلوكه الخارجي؛ فالعم كاردو الرزين المهذب يبدو وكأنه بارد تقريباً لكثرة مايظهر من لباقة، حتى ليمكن لاحدى الورعات أن تسميه منافقاً. وهذا الانسان الفاضل يكره بصورة خاصة الكهنة؛ وهو يعتبر واحداً من هذه المجموعة الكبيرة من الحمقى المشتركين في صحيفة «الدستوري» ويهتم كثيراً بالمحرومين من مراسم الجنازة[3]؛ وهو مغرم بفولتير بالرغم من أنه يفضل بيرون، وڤاده، وكوله وبالطبع فهو شديد الاعجاب ببرانجه وهو يسميه ببراعة الكاهن الأكبر لمذهب ليزيت[4]. ولاشك أن ابنتيه السيدة كاموزو، والسيدة بروتز وولديه، سيحسّون أنهم يسقطون من عليائهم، وفقاً لتعبير شعبي، إن فُسِّر لهم ما يعني والدهم بالقول: «الغناء للأم

---

(١) توركاره: الخادم في مسرحية لزاج الذي يخدع سيده ويجمع ثروة ولكنه ينخدع من قبل مغامرين أشد مكراً منه.

(٢) ورد ذكر ذلك في القسم الثاني من رواية أوهام ضائعة

(٣) هم المحرومون كنسياً، والمنتحرون، والمبارزون وكان هذا أحد المواضيع الرائجة في عهد الملكية الثانية.

(٤) بيرون، وڤاده، وكوله: من الشعراء الزجالين- القوّالين Chansonniers الفكاهيين.

برانجه: (١٧٨٠-١٨٥٧) شاعر وزجّال والمقصود بليزيت في أشعاره: الفتاة الماجنة اللعوب.

غوديشون[1]». هذا العجوز الحكيم لم يصرّح أبداً عن سندات دخله لمدى الحياة لأولاده، وكانوا يعتقدون عند رؤيته يعيش بتقتير بأنه تجرّد من كل ثروته لأجلهم، ويضاعفون عنايتهم له وحنانهم عليه. وكان يقول أحياناً لولديه: احرصا على ثروتكما من الضياع فليس لدى شيء أقدّمه لكما». وكان صهره كاموزو المتصف بكثير من طباعه، والمطّلع نتيجة حبّه له، على خفايا تصرفاته الشخصية، هو الوحيد الذي يعرف سرّ الثلاثين ألف فرنك العمريَّة، وهو يقدّر عالياً فلسفة عمّه الذي يجد أن من حقّه بعد أن أمن مستقبل أولاد، وقام بواجباته بشكل تام نحوهم، أن ينهي بفرح بقية أيام حياته؛ وكان العم المالك القديم لمتجر الكوكون- دور يقول لصهره:

«أترى ياصديقي، كان بامكاني أن أتزوج ثانية، أليس كذلك؟ لكن امرأة شابة ستنجب لي أولاداً. . نعم إنني في عمر يمكن الانجاب فيه دائماً، وسأنجب إن تزوّجت!. . والواقع أن فلورنتين لاتكلفني أكثر مما تكلّف الزوجة؛ ولاتسبب لي الضجر، ولاتفكر أبداً بأن تحمل وتلد، ولن تشارككم أبداً في ماخلّفته لكم من ثروة». وكاموزو يرى أن الأب كاردو يجسد المعنى الأكثر رهافة للعاطفة العائلية، وهو ينظر اليه حمياً كامل الصفات ويقول عنه: «إنه عرف أن يوفق بين مصالح أبنائه والمسرّات التي يحقّ له الاستمتاع بها في شيخوخته بعد أن عانى كلّ هموم التجارة».

لم يكن آل كاردو، أو آل كاموزو، أو آل بروتز، يعرفون بوجود نسيبتهم السابقة السيدة كلابار، وقد اقتصرت العلاقات العائلية على تبادل بطاقات اعلام في حال وفاة أو زواج أو تهنئة برأس السنة الجديدة، ولم تتنازل السيدة كلابار عن أنفتها إلا لمصلحة ابنها أوسكار، وأمام صداقتها مع مورو الشخص الوحيد الذي استمر على الوفاء لها في أيام التعاسة. ولم تكن تزعج أبداً العجوز كاردو بوجودها أو بمطالبها، لكنها حافظت على علاقتها به أملاً يرتجى عند الحاجة؛

(١) عبارة تعني: اقامة حفلة لهو وسكر وعربدة.

فكانت تذهب لرؤيته كل ثلاثة أشهر، وتحدثه عن أوسكار هوسون، ابن أخ المرحومة المحترمة السيدة كاردو، وتأتي بأوسكار لزيارته ثلاث مرات خلال العطلة الصيفية، وفي كل زيارة، كان النسيب الطيب يدعو أوسكار للعشاء في «الكادران- بلو»[1] ثم ينهي السهرة وإياه في مسرح «الغيتة»[2] ويعيده في عربته الى شارع سريزه.

وفي احدى المرات اشترى له بزة جديدة كاملة، وقدّم اليه الكأس ولوازم المائدة الفضية التي يجب أن يتزوّد بها كل طالب داخلي الى الكلية، وجرّبت الأم أن تبرهن دائماً عن حب أوسكار لنسيبه الكريم وتذكره لأريحيته في إلباسه وفي هديته حتى بعد أن لم يبق من هذه البزّة إلا الصدار، لكن هذه الالتفاتات الصغيرة أضرّت بأوسكار أكثر مما خدمته لدى ثعلب عتيق بمثل دهاء كاردو، الذي لم يكن على هذا القدر الكبير من الحبّ لزوجته المرحومة، المرأة الطويلة القامة، المعروقة، الصهباء؛ كما أنّه يعرف الظروف التي دفعت المرحوم هوسون للزواج بوالدة أوسكار، ودون أن يبدي نحوها أي ازدراء، كان لايجهل أن أوسكار ولد بعد وفاة الزوج هوسون: وهكذا كان يبدو له أن ابن أخ زوجته غريب تماماً عن قرابته، ولم تتوقع والدة أوسكار هذه النظرة الشؤم ولم تتدارك هذه العيوب في الرابطة بين أوسكار ونسيبه، ولم توحي للتاجر بصداقة مع صغيرها منذ طفولته، وكجميع الأمّهات اللواتي يركّزن كل العواطف في الأمومة، لم تضع السيّدة كلابار نفسها موضع النسيب كاردو، واعتقدت أن عليه أن يهتم بشكل كبير بمثل هذا الولد اللطيف الذي يحمل أخيراً اسم عائلة المرحومة السيّدة كاردو.

كان السيّد كاردو يتنزّه في حديقته وهو ينتظر موعد الغداء بعد أن زيّنه حلاقه، عندما جاءت الخادمة لتعلن له: «سيدي، جاءت أم أوسكار، مع ولدها

---

(١) مطعم باريسي شهير كان يقع على زاوية جادة الكامبل مع شارع شارلو.

(٢) كان هذا المسرح في زمن الملكية الثانية في شارع الكامبل أيضاً.

نسيبك» قال تاجر الحرائر القديم وهو يحيي السيّدة كلابار ويلتف بمبذله من الحرير المضلّع الأبيض «عمت صباحاً، أيتها السيدة الجميلة» ثم تناول أذن أوسكار وأضاف: «إيه! إيه! إن صغيرك البطل يكبر».

قالت: لقد أنهى دراسته الثانوية، وهو يأسف لأن نسيبه العزيز لم يحضر توزيع الجوائز في كلية هنري الرابع، لأن اسمه قد أعلن، اسم هوسون الذي يحمله بجدارة، على ماآمل، نودي عليه..

قال العجوز القصير القامة وهو يتوقف: ياللشيطان! ياللشيطان!» ثم خرج يتمشى مع ضيفه على مصطبة تطلّ على أشجار البرتقال والآس والرمان وسأل «وعلام حصل؟ أجابت الأم باعتزاز: إنه المُقارب الرابع في الفلسفة.

- أوه! أمام هذا الجسور طريق طويل ليستدرك الوقت الضائع، فالانتهاء بمقاربة... ليس اكتشاف البيرو! ثم تابع: ستتغديان معي، أليس كذلك؟

أجابت السيدة كلابار: كما تريد، آه! ياسيدي الطيّب كاردو، أيّة غبطة للآباء والأمهات في أن يشق أبناؤهم طريقهم بنجاح في مستهل حياتهم.

وتوقفت لحظة ثم تابعت: بالنسبة لهذا المنظور، كما بالنسبة لكل شيء غيره، فإنّك من أسعد الاباء الذين أعرفهم... ففي عهدة صهرك الفاضل، وابنتك المحبوبة، بقي متجر الكوكون دور المؤسسة الأولى للحرائر في باريس، وهاهو ابنك البكر، منذ عشر سنوات، على رأس أحد أنجح مكاتب العدل في العاصمة، وقد تزوج من أمرأة موسرة؛ كما شارك ابنك الأخير في أحد أغنى بيوت العقاقير، أخيراً فلديك حفيدات لطيفات وهاأنت عميد أربع عائلات كبرى.. دعنا ياأوسكار، واذهب الى الحديقة، دون أن تعبث بالأزهار.

قال النسيب كاردو، وهو يبتسم لهذه التوصية، توجّه لأوسكار كطفل صغير: إنه في الثامنة عشر.

- للأسف! نعم، ياسيدي الطيّب كاردو، وبعد أن استطعت أن أصل به الى هذا العمر، لاأعوّج، ولاأعرج، بل صحيح الجسم والروح، وبعد أن ضحيت بكل شيء من أجل تعليمه، كم من المؤلم ألا أراه يشق الطريق الى مستقبل زاهر.

قال النسيب كاردو برياء مبطن بمظهر الطيبة: لكن هذا السيد مورو الذي حصلت بواسطته على نصف منحة لابنك في كلية هنري الرابع سيطلقه في طريق النجاح..

قالت: لكن السيد مورو يمكن أن يموت، أضف الى أنه اختلف دون مصالحة ممكنة مع معلّمه الكونت دي سريزي.

- يالشيطان! يالشيطان!.. اسمعي ياسيدتي، أراك تريدين أن تصلي..

قاطعت والدة أوسكار، بجرأة، العجوز الذي حبس شعور الضيق لمقاطعته في الكلام مراعاة للسيدة الجميلة التي قالت: كلا ياسيّدي، للأسف! أنت لاتعرف شيئاً عن قلق أمّ، اضطرّت منذ سبع سنوات أن تقطع لأجل ابنها، من راتب زوجها الذي لايتجاوز الف وثمانمئة فرنك، مبلغ ستمئة فرنك. نعم ياسيدي هذا هو كل دخلنا. وهكذا ماذا يمكنني أن أفعل من أجل ولدي أوسكار؟ إن السيّد كلابار يكره هذا الولد المسكين لدرجة يستحيل علي فيها أن أحتفظ به في المنزل. ألا يجب على امرأة بائسة، وحيدة في هذا العالم، في مثل هذه الظروف، أن تأتي لتستشير النسيب الوحيد لابنها تحت هذه السماء؟ أجاب العجوز كاردو: إنك على حق، أنت لم تحدثيني عن هذا أبداً فيما سبق..

تابعت السيدة كلابار بأنفة: آه! ياسيدي، إنك آخر من أسرُّله بشقائي.

فالخطأ يقع على عاتقي؛ اذ أنني ارتضيت بزوج يتجاوز في قصوره كل تصورّ. أوه! كم أنا تعيسة..

استأنف العجوز كلامه برزانة: اسمعي ياسيدتي، لاتبكي، فأنا أشعر بألم مروع لرؤية سيدة جميلة تذرف الدموع.. وبعد كل حساب، فابنك من عائلة هوسون، ولو كانت عزيزتي المرحومة على قيد الحياة لفعلت شيئاً اكراماً لاسم أبيها وأخيها..

هتفت أم أوسكار: كانت تكنُّ حباً كبيراً لأخيها.

استأنف العجوز كلامه: إنّ كل ثروتي قد منحتها لأبنائي، الذين لم يعودوا ينتظرون شيئاً مني فقد قسمت عليهم المليونين الذين أمتلكهما، لأنني أردت أن أراهم سعداء، وأصحاب ثروة في حياتي، ولم أحتفظ لنفسي إلا براتب عمري، ورجل بمثل سني حريص على عادات حياته.. ثم نادى أوسكار وأمسك بذراعه قائلاً: أتعرفين في أي طريق يجب أن تطلقي هذا الشاب القوي؟ دعيه يكمل دراسة الحقوق، سأدفع عنه رسوم التسجيل، ونفقات الأطروحة؛ ضعيه في مكتب أحد المحامين ليتعلم المرافعة، فإن سار بشكل حسن، وإن تميز في ذلك، وإن أحب هذه المهنة، وإن بقيت حياً فإن كل واحد من أبنائي يقرضه ربع نفقات افتتاح مكتب له في الزمن والوقت الملائمين، وسأقرضه قيمة كفالته، وليس عليك، خلال هذا الوقت، إلا اطعامه واكساؤه؛ سيعاني شيئاً من شظف العيش، لكنه سيختبر الحياة. إيه! إيه! لقد انطلقت من ليون بأربع لويسيات ذهبية منحتني إياها جدّتي، وجئت سيراً على الأقدام الى باريس، وهاأنا كما ترين. إن الصيام مفيد للصحة. ويا أيّها الشاب، عليك بالكتمان، والاستقامة، والعمل المتواصل، وستصل. إنّها لمتعة في أن يكوّن الانسان ثروة، واذا حافظ جيداً على أسنانه، فإنه يأكل منها وفق هواه في شيخوخته، وهو يغني، كما أغني من وقت لآخر، للأم غوديشون! تذكر كلماتي: الاستقامة، والعمل، والكتمان[1] قالت الأم: أتسمع ياأوسكار، ان زوج عمتك يلخص لك بكلمات ثلاث جميع نصائحي، ويجب أن تنقش بأحرف من نار الكلمة الأخيرة خاصة في ذاكرتك.

---

(١) الجدّ والطيش يسيران متوازيين في فلسفة العجوز كاردو البورجوازية.

أجاب أوسكار : أوه! لقد نُقشت .

- حسن ، اشكر مجدّداً نسيبك ، ألم تسمعه يكفل لك مستقبلك؟ يمكنك أن تغدو محامياً مرخصاً في باريس .

ردّ العجوز وهو يرى المظهر البليد لأوسكار : «إنّه يجهل كِبَر مستقبله ، فهو خارج من الكلّية» وتوقف برهة ثم تابع موجهاً كلامه لأوسكار : «اسمع ، أنا لست كثير الكلام ، لكن تذكّر أن الاستقامة في مثل عمرك لاتتوطّد إلا بمقاومة الاغراءات ، وهي في مدينة كباريس ، موجودة في كلّ خطوة تخطوها . فابق لدى أمك ، في منزل حقير ، واذهب مباشرة الى كليّتك ، ومنها عُد الى المكتب الذي تتمرّن به ، واعمل بجد مساءً وصباحاً ، وادرس لدى والدتك ؛ وكن في الثانية والعشرين كاتباً ثانياً ، وفي الرابعة والعشرين ، كاتباً أولاً . كن عالماً ، وبعد إن لم يعجبك العمل الحكومي ، فيمكنك أن تعمل في مكتب ولدي ، الكاتب العدل ، وتغدو خليفة له . . وهكذا فالعمل والصبر والكتمان والاستقامة هي أعلام هدايتك .

هتفت الأم كلابار وهي تتناول يد النسيب كاردو وتشدُّ عليها بحركة تتناسب مع حيوية شبابها : وأسأل الله أن يمدّ في عمرك ثلاثين سنة أيضاً ، لترى ابنك الخامس يحقق كلّ ماتنتظر منه .

قال العجوز الطيب وهو يقود أوسكار من أذنه : هيا الى الغداء .

كان العم كاردو خلال الغداء يلاحظ ابن أخ زوجته خفية ، وقد لاحظ أنه قليل الخبرة بأمور الحياة ، فقال للسيدة كلابار بعد الغداء ، مشيراً الى أوسكار ومودعاً : «أرسليه لي بين وقت وآخر ، وسأدرّبه لك» .

هدأت هذه الزيارة مخاوف المرأة المسكينة ، التي لم تكن تؤمّل تحقيق مثل هذا النجاح ؛ واستمرت خلال خمسة عشر يوماً تخرج مع أوسكار ، تتجوّل

وإياه، وتراقبه بشكل شبه صارم، وهكذا بقي الحال حتى نهاية شهر تشرين أول. وفي ذات صباح أبصر أوسكار الوكيل المرعب الذي فاجأ العائلة المسكينة في منزلها في شارع سريزه، وهم يتغدون سلطة سردين وخسّ مع كأس حليب كتحلية.

قال مورو معلناً للسيدة كلابار التغيّر الطارىء على علاقاتهم نتيجة خطأ أوسكار: إننا نقيم في باريس، وحياتنا فيها مختلفة عما عرفناه، في برسل، ولكن سيتحسن الوضع، فأنا شريك مع الأب ليجه والأب مارغرون دي بومون، ونعمل في تجارة الأملاك، وقد بدأنا بشراء أرض برسان من جديد. وأنا مدير هذه الشركة التي تعمل برأسمال مليون فرنك، لأنني رهنت أملاكي للحصول على قرض؛ وعندما نجد صفقة أقوم أنا والأب ليجه بدراستها ولكل من شريكيّ ربع الأرباح، ولي النصف، اذ أنني متفرغ كلياً لهذا العمل، وهكذا فأنا في تنقل دائم؛ وزوجتي تعيش في باريس، بشكل متواضع في ربض رُول. عندما نحقق بعض الانجازات، وعندما لانجازف إلا بالأرباح، وإن رأينا مايسرُّ في أوسكار، فربّما عمدنا الى استخدامه لدينا.

قالت السيدة كلابار: هيّا، ياصديقي، إن المصيبة التي حلت بك، نتيجة رعونة ولدي المسكين، ستكون دون شك سبباً لحصولك على ثروة معتبرة، اذ كنت في الواقع تدفن امكاناتك وطاقتك في برسل..

ثم قصّت نبأ زيارتها للنسيب كاردو لتظهر لمورو أنّها مع ابنها لن يكونا بحاجة في المستقبل لطلب مساعدته.

استأنف الوكيل السابق حديثه: «إن العجوز الطيّب على حق، ويجب توجيه أوسكار في ذلك الطريق بيد من حديد، وسيغدو بكل تأكيد كاتب عدل أو محامياً مرخّصاً. آه! لديّ مكان مناسب لأوسكار، فالتعامل مع تاجر عقارات أمر هام، وقد حدثت عن محام مرخص اشترى مكتباً عارياً، أي دون زبائن، وهو شاب صلب كعمود من حديد، شديد في عمله كحصان، في فعالية متواصلة،

اسمه دروش، وسأسلمه جميع قضايانا بشرط أن يدرّب أوسكار، وسأعرض عليه أن يأخذه لقاء تسعمئة فرنك، سأدفع منها ثلاثمئة، وهكذا لن يكلّفك ولدك إلا ستمئة فرنك، وسأزكيه بالشكل المناسب لدى مدربه وإن أراد هذا الشاب أن يغدو رجلاً فيجب أن يتحمل مقرعة هذا المعلم الصارم، اذ سيخرج من تحت يده كاتب عدل، أو محامياً مرخصاً أو محامياً مرافعاً.

قالت الأم: هيّا ياأوسكار، اشكر هذا الانسان الطيب السيد مورو، مالك تقف جامداً! ليس للشباب الذين يرتكبون الحماقات مثل هذا الحظ في مصادفة أصدقاء يهتمون بمستقبلهم بعد أن تكبّدوا منهم العناء..

قال مورو وهو يصافح أوسكار: إن أفضل وسيلة للتصالح معي هي أن تعمل بجدّ متواصل، وأن تسلك سلوكاً حسناً..

بعد نحو عشرة أيام. قدّم الوكيل السابق أوسكار للمحامي دروش المستقرّ حديثاً في شارع بيتزي[1] في شقة واسعة في نهاية فناء ضيق، ذات أجر رخيص نسبياً. كان دروش شاباً في السادسة والعشرين من العمر[2]، تربّى بقسوة من قبل أب شديد الصرامة، وكان أهله في حالة فقيرة، فعاش في شروط مقاربة لعيشة أوسكار، لذلك فقد اهتم به، إنما بمثل الاهتمام الذي يبدو من شاب تميز بالصرامة في تربيته وعمله، وهكذا فإن مظهر هذا الشاب المعروق الهزيل، ذي السحنة المشوّشة، والشعر القصير المقصوص كالفرشاة، المقتضب في كلامه، النافذ العين بحيوية غامضة، أرعب أوسكار المسكين.

قال المحامي المرخّص، وهو غارق في كرسيه، خلف مكتب تراكمت عليه الأوراق كالجبل، مخاطباً السيد مورو: «نحن هنا نعمل ليلاً ونهاراً، لكننا لن نقتله لك ياسيد مورو، إنما يجب أن يسير وفق خطواتنا، ثم نادى على كاتبه الأول

---

(١) هو شارع قريب من الشاتله في ذلك الحين، وقد اختفى حالياً بعد تطويل شارع الريفولي.

(٢) وفقاً لالتاروش في كتاب «لوحات جديدة عن باريس» يجب أن تمرّ فترة تدريب عشر سنوات ليتمكن المحامي المتدرب من فتح مكتب باسمه كمحام مرخص، وفي قصة الكولونيل شابر كان دروش كاتباً خامساً، مما يعني أنه قفز بنجاح باهر وفي سن مبكرة الى الشهرة.

الذي ظهر وريشة الكتابة في يده بالرغم من أن اليوم كان يوم أحد؛ وقال له: «سيد غودشال، هوذا الصانع القضائي الذي حدثتك عنه، وهو أثير لدى السيد مورو، سيتعشى معنا، وسيقيم في السقيفة الصغيرة المجاورة لغرفتك[1]، ستقدر له الوقت اللازم لذهابه الى معهد الحقوق[2] والعودة منه، بحيث لايضيع خمس دقائق، وستشرف على دراسته للقانون، وعلى مواظبته المنتظمة على الدروس بحيث يغدو قوياً في اختصاصه، وهذا يتطلب أن تعطيه مؤلفات للقراءة. أخيراً يجب أن يكون تحت ادارتك المباشرة، وسأشرف عليه بدوري بحيث نجعل منه، كما جعلت من نفسك، كاتباً أولاً ماهراً في اليوم الذي سيقسم فيه اليمين كمحام».

ثم التفت الى أوسكار قائلاً: «اذهب مع غودشال ياصديقي، سيرشدك الى مكان إقامتك، وستأتي بحوائجك اليه».

وتابع دروش الكلام متوجهاً بقوله الى مورو: «أترى غودشال؟ إنه فتى مثلي، لايملك شيئاً، وهو أخ مارييت[3] الراقصة الشهيرة التي تجمع له مايشتري مكتباً خلال عشر سنوات؛ إن جميع كتبتي من الشباب الجادّين الذين يجب ألا يعدّوا إلا على أصابعهم العشر ليجمعوا ثروة، وهكذا فأنا وكتبتي الخمسة نعمل بقدر اثني عشر شخصاً! وخلال عشر سنوات سيكون لي أحسن الزبائن في باريس. هنا نحن هواة أعمال وزبائن، وقد بدأ هذا يظهر للناس. أخذت غودشال من مكتب زميلي درڤيل، ولم يكن إلا كاتباً ثانياً منذ خمسة عشر يوماً؛ لكننا تعارفنا في ذلك المكتب الكبير، وغودشال يقبض في مكتبي ألف فرنك اضافة الى السكن والاطعام. إنه فتى يستحق ذلك، فهو لايكلّ، وأنا أحب هذا

---

(١) هذا يذكر بالعلاقات العائلية القائمة بين المعلم والعاملين لديه كما في قصة «مجد وشقاء».

(٢) سبق لبلزاك أن انتسب لمعهد الحقوق وتدرّب في أحد المكاتب.

(٣) تظهر مارييت غودشال في قصة المتصيّدة خليلة لفيليب بريدو تمدّه بالمال، كما ينفق عليها ويحميها الدوق دي موفرينيوز.

الشاب! اذ عرف كيف يعيش بستمئة فرنك فرنسي مثلي عندما كنت كاتباً[1]. وماأريده خاصة استقامة دون أيّة شائبة، وعندما تمارس هنا رغم الفقر، يغدو المتدرب رجلاً. وعند أقل خطأ يمسُّ الاستقامة، يُطرد الكاتب من مكتبي.

قال مورو: هيّا، إنّ الفتى في مدرسة جيدة.

خلال سنتين كاملتين، عاش أوسكار في شارع بيتزي، في عرين الجَدَل، فإن أمكن تطبيق هذا التعبير غير الدارج على مكتب فهو أكثر ماينطبق على مكتب دروش حيث المراقبة دقيقة وماهرة، وهي مراقبة ألزمت على أوسكار في أوقاته وأعماله مزيداً من التقشف حتى غدت حياته وسط باريس أشبه بحياة راهب في دير.

في الساعة الخامسة صباحاً، في جميع الفصول، كان غودشال يستيقظ، وينزل مع أوسكار الى المكتب توفيراً لاشعال النار شتاء، وكانا يجدان دائماً المعلم قد سبقهما الى العمل. وكان أوسكار يقوم بتحضير نسخ عن العقود، ويراجع دروس المعهد التي يحضرها بنسب كبيرة، فغودشال والمعلم كانا يرشدان تلميذهما في أغلب الأوقات الى المؤلّفات التي يجب مراجعتها والصعوبات الواجب تذليلها، فلايترك أوسكار مادة في القانون إلا ويعمقها ليرضي بذلك غودشال ومعلمه، كلا من جهته، اذ أنهما كانا يجريان له امتحانات تحضيرية أكثر صعوبة وطولاً من امتحانات معهد الحقوق. وعندما يعود من المحاضرات حيث يبقى قليلاً من الوقت، يتخذ مكانه في المكتب حيث يعمل، وكان يذهب أحياناً الى قصر العدل، وهو أخيراً تحت اشراف غودشال الرهيب حتى موعد العشاء. وكان عشاء كل عامل في المكتب مماثلاً لعشاء المعلم: قطعة كبيرة من اللحم وصحن من البقول، وصحن سلطة، ثم قطعة جبن في النهاية.

---

(١) لكن دروش سبقه في الترقية، فقد كان غودشال كاتباً ثالثاً في مكتب درفيل عندما كان دروش خامساً.

وبعد العشاء يعود غودشال وأوسكار الى المكتب ليعملا فيه طيلة السهرة. وكان أوسكار يذهب مرة في الشهر يتعشى عند نسيبه كاردو، ويقضي يوم الأحد لدى والدته، وكان مورو يمر بين وقت وآخر من أجل أعماله الى المكتب، ويصحب عندئذ أوسكار للعشاء في الباليه رويال ثم يقضيان السهرة في أحد المسارح، وكان غودشال ودروش يلومون أوسكار بشدة لما يبديه من ضعف تجاه الأناقة بحيث لم يعد يفكر بالزينة.

كان غودشال يقول له: «يجب أن يملك الكاتب الجيد سترتين سوداوين (إحداهما جديدة والأخرى أقدم منها) وبنطالاً أسود، وجوارب سوداء، وحذاءً، أما الجزمة فتكلف غالياً ولايفكر الكاتب باقتنائها إلا عندما يغدو محامياً مرخصاً. وعلى الكاتب ألا ينفق سنوياً أكثر من سبعمئة فرنك، ويمكن له ارتداء قمصان جيدة من قماش خشن. آه! عند الانطلاق من الصفر للوصول الى الثروة يجب الاقتصار على ماهو ضروري، انظر السيد دروش، إنه فعل كما نفعل وهاهو قد وصل الآن.

كان غودشال يعطي من نفسه قدوة، وإن كان ينادي بالمبادىء الأكثر تقيداً بالشرف والكتمان والاستقامة فإنه كان يمارسها دون تشدّق، كما يتنفس وكما يسير. كانت هي التصرّف الطبيعي لروحه، كما أن التنفس والمشي حركتان طبيعيتان للأعضاء. إذ بعد ثمانية عشر شهراً من استقرار أوسكار في المكتب، ظهر للمرّة الثانية خطأ بسيط في حساب صندوق الكاتب الثاني في المكتب، فما كان من غودشال إلا أن قال له أمام الجميع: «ياعزيزي غوده اذهب من هنا من تلقاء نفسك، كي لايقال أن المعلم طردك. فأنت إما غافل وإما غير مستقيم وأخف هذين العيبين لايحتمل هنا. لن يدري المعلم بما فعلت، هذا كل ماأستطيع أن أخدم به رفيقاً».

غدا أوسكار في العشرين من العمر كاتباً ثالثاً في مكتب الاستاذ دروش، وإن كان لم يكسب شيئاً حتى الآن، فإنه مؤمّن في سكنه وطعامه، اذ كان يقوم

بمهام كاتب ثان، فدروش يشغل كاتبين معلّمين، وكان الكاتب الثاني مرهقاً تحت ضغط كثرة الأعمال. وبوصول أوسكار الى نهاية السنة الثانية في الحقوق أصبح أكثر قوة من المجازين، وكان يقوم بمهام المكتب في قصر العدل بذكاء، ويرافع في بعض الأمور المستعجلة. أخيراً كان غودشال ودروش مسرورين منه؛ إنما وبالرغم من أنه غدا متعقلاً بوعي تقريباً، فقد كان يظهر نزوعاً للمتعة، ورغبة في التألّق، يكبتهما النظام القاسي والعمل المتواصل في تلك الحياة؛ وقد سرّ تاجر العقارات من نجاح الكاتب فتخلّى عن قسوته، وعندما اجتاز أوسكارفي شهر تموز ١٨٢٥ امتحاناته الأخيرة بنجاح وبكرات بيضاء[1]، قدّم له مورو مبلغاً يمكنه من التأنق في لباسه، وأعدّت السيّدة كلابار، السعيدة والمعتزة بولدها، جهازاً بهياً للمجاز المستقبلي والمرشح لوظيفة كاتب ثان؛ ففي العائلات الفقيرة، تتمثّل الهدايا دائماً في أشياء مفيدة، وقد احتل أوسكار هوسون مع بدء عمله الجديد في شهر تشرين الثاني غرفة الكاتب الثاني الذي حلّ محله أخيراً، وحدّد له راتب ثمانمئة فرنك مع السكن والطعام. كما أن النسيب كاردو، الذي حضر خفية يستقصي المعلومات عن ابن أخ زوجته لدى دروش، وعد السيدة كلابار بأن يجعل أوسكار في موقع المفاوض على مكتب إن استمر على هذا الحال.

رغم هذه الظواهر الكثيرة التعقل، كان أوسكار هوسون يتعرّض لصراعات داخلية قاسية، وتخامره في بعض اللحظات فكرة ترك حياة هي معاكسة بشكل مباشر لذوقه وطبعه؛ إنه يجد سجناء الأشغال الشاقة أسعد منه، ويحسّ أن هذا النظام بمثابة قيد حديدي يشدّ على خناقه فتخالجه الرغبة في أن يهرب ويجوس في الشوارع متشبهاً بعض الشباب المتأنقين، وتنتابه أحياناً حركات هوجاء تجذبه نحو النساء، لكنه يتعقّل، إنّما مع احساسه بتقزز عميق من الحياة. كان صامداً باتخاذه غودشال قدوة، لكنه منقاد أكثر منه مندفعاً من تلقاء ذاته،

(١) كان تصويت الممتحنين «بكرات بيضاء» يعبر عن رضاهم التام عن المستوى العلمي للمتقدم.

على البقاء في هذا المسلك الصعب. وكان مبدأ غودشال، الملاحظ لأوسكار، ألا يعرّض تلميذه للاغراءات، وكان الكاتب في أغلب الأحيان يبقى دون دراهم، أولا يمتلك إلا القليل بحيث لايتمكن من الانصراف لأي اسراف. وفي هذه السنة الأخيرة فإنّ غودشال الطيب شهد مع أوسكار خمس أو ست حفلات تسلية مسدّداً عنه النفقة المترتبة عن ذلك، لأنه أدرك وجوب ارخاء الحبل قليلاً لهذا الجدي المربوط، وهذه الحفلات الماجنة، كما سمّاها الكاتب الأوّل الصارم، ساعدت أوسكار على تحمُّل هذا الوجود؛ فهو لايشعر إلا بقليل من السلوى لدى نسيبه كاردو، وبأقل من ذلك لدى أمّه التي تعيش بشكل أكثر تقتيراً من دروش، ولايمكن لمورو أن يرفع الكلفة مثل غودشال مع أوسكار، وربّما كان هذا الحامي المخلص لهوسون الشاب يستخدم غودشال للكشف لهذا الفتى المسكين عن خفايا الحياة. وقد انتهى أوسكار، بعد أن غدا رزيناً متروياً، وباحتكاكه بقضايا المجتمع، الى تقدير مدى الخطيئة التي ارتكبها خلال رحلته المشؤومة في عربة الكوكو، لكن كتلة نزواته المكبوتة، ونزق الشباب، مازال بامكانهما التأثير عليه، إنّما كلّما ازداد معرفة بالعالم وقوانينه، ازداد وعيه؛ ويكفي ألا يغيب عن أنظار غودشال، ليأمل مورو بأنه يقود ابن السيدة كلابار في طريق الصلاح.

سأل تاجر العقارات، بعد عودته من رحلة أبعدته لعدة أشهر عن باريس: «كيف حال أوسكار؟» أجاب غودشال: دائماً بكثير من الغرور، لقد قدمت اليه ثياباً أنيقة، وبياضات متزمة، فهو أشبه في صدار قميصه بصراف في البورصة، وهكذا فإن تلميذي الشاب الغندور[1] يذهب يوم الأحد الى حدائق التويلري باحثاً عن المغامرات. ماذا تريد؟ إنه شاب وهو يلح عليّ لأعرفه على أختي، التي سيلقى لديها مجتمعاً شهيراً: ممثلات، وراقصات وشباباً متأنقاً يلتهم ثروته...

(١) الغندور أو الغطرس: المتباهي بنفسه تعبير يطلق على الشاب ذي الأناقة السمجة، ، وقد أطلقه الأب غرانده على ابن أخيه شارل في رواية «أوجيني غرانده».

ليس لديه روح المحامي المرخّص، وأنا خائف عليه. مع أنه يتكلّم جيّداً، ويمكنه أن يكون محامياً مرافعاً، فهو يدافع بترتيب جيّد في بعض القضايا..

في شهر تشرين ثاني ١٨٢٥، وفي الفترة التي استلم فيها أوسكار هوسون عمله ككاتب ثان، وكان يستعد للدفاع عن أطروحته للحصول على الاجازة، انتسب الى مكتب دروش كاتب رابع ليملأ الفراغ الناتج عن ترقية أوسكار.

كان اسم هذا الكاتب الرابع فردريك مارست، وهو يتهيّأ للقضاء، وقد أنهى سنته الثالثة في دراسة الحقوق. وهو وفقاً للمعلومات المتجمعة لدى «شرطة» المكتب، ابن مدلّل للسيّدة مارست أرملة تاجر أخشاب موسر، وقد ورث عن عم عازب توفي حديثاً إرثاً يدرّ عليه دخلاً سنوياً بقدر اثني عشر ألف فرنك سنوياً؛ وحضر هذا البديل المقبل الى مكتب دروش تحثه رغبة حميدة في معرفة مهنته بأدق تفاصيلها، وفي نيته أن يدرس الاجراءات حتى يكون قادراً على أن يملأ مكان الكاتب الرئيس خلال سنتين. وهو مزمع على اجراءات تدريبه كمحام في باريس ليكون قادراً على ممارسة المنصب الذي لن يرفض لشاب غني، وكان كل طموحه أن يرى نفسه، في الثلاثين من العمر، نائباً عاماً في احدى المحاكم. وبالرغم من أن فردريك هذا هو ابن عم جورج مارست، مخادع رحلة بِرسل الذي لم يعرف أوسكار كنيته اذا لم يتم تصريحه بها إلا أمام مورو، فإن اسم فردريك مارست لم يعن له شيئاً قال غودشال على الغداء موجهّاً كلامه لجميع الكتبة: «أيها السادة، أنبئكم بوصول متدرب قضائي جديد، وبما أنه غني جداً؛ فإننا سنجعله يدفع، على ماآمل، ثمن حفلة سخية للترحيب به..

قال أوسكار وهو ينظر الى فتى المكتب: أحضر السجل، ولنلتزم بالرصانة، تسلق الفتى كالسنجاب خزانة الأدراج ليتناول سجلاً وضع على الرف الأخير لتتجمع عليه طبقات الغبار.

قال فتى المكتب وهو يظهر السجّل: «لقد تسربل بالغبار».

لنشرح أية دعابة مستمرة يولّد هذا السجّل الممارس في معظم المكاتب القضائية.

من الأقوال المأثورة في القرن الثامن عشر: مامن شيء يعادل ولائم غداء الكتبة وعشاء متعهدي الضرائب، ووجبة آخر السهرة لدى النبلاء. ويبقى هذا صحيحاً بالنسبة لمن قضى سنتين أو ثلاثاً من حياته في دراسة أصول المحاكمات لدى محام مرخص، وكتابة العدل لدى معلم موثّق. ففي حياة الكتبة، حيث يُعمل كثيراً، تشتهى الملذات بمزيد من الشوق يتناسب مع ندرتها، لكن تتذوق بكثير من المتعة المخادعة فيها، وهذا ما يفسّر الى حدّ ما تصرّف جورج مارست في عربة بييروتن؛ فالكاتب الأكثر كآبة تتنازعه الحاجة الى التهريج والتهكم، والغريزة التي تنتابه تنّمي فيه مخادعة ومزاحاً، تسحر رؤيتها بين الكتبة، ولامثيل لها إلا بين الرسامين؛ فالمرسم والمكتب في هذا المجال يتفوقان على الممثلين الهزليين؛ وبشراء دروش لرخصة مكتب جديد بدأ إن صح القول سلالة جديدة؛ فهذه المؤسسة قطعت استمرارية العادات المتعلقة بالوافد الجديد؛ فالمكتب بكامله جديد لم يسبق أن أُعدّت فيه أيّة وثائق ذات طابع رسمي، وقد وضع فيه دروش مناضد جديدة، وحافظات أوراق ووثائق بيضاء مؤطّرة بالأزرق جديدة كلياً، وجاء كتبته من مكاتب مختلفة سابقة، دون روابط فيما بينهم، بل يمكن القول إنهم دهشوا لاجتماعهم في مكان واحد؛ لكن غودشال الذي أجرى تدريباته الأولى في مكتب الاستاذ درڤيل العريق لم يكن ليفوته التقليد الثمين المتعلق بالوفادة والمتعلّق بغداء يعدُّه الكاتب الجديد لقدامى المكتب؛ والحال أن أوسكار كان أولّ متدرب جديد خلال الستة أشهر من افتتاح مكتب دروش، وقد حضر في مساء يوم شتاء تصرّف فيه الأعمال باكراً، وفي فترة يبحث فيها الكتبة عن شيء من الدفء قبل الانصراف؛ وابتكر غودشال اعداد ما يسمى السجّل العتيق للتدرّب القضائي الثلاثي الميول، العريق في القدم، الذي أنقذ من عواصف الثورة ووصل من النائب العام في الشاتله، بوردن، السلف غير المباشر لسوفانيست المحامي المرخص الذي استلم دروش مكتبه. وبدىء بالبحث لدى

تجار الأوراق القديمة عن سجل تعود أوراقه الى القرن الثامن عشر، قد جلّد كما ينبغي برقٍ يُقرأ عليه قرار من المجلس الأعلى. وبعد أن وجد هذا السجّل عرّضه للغبار وللموقد، ولدخان المدفأة، وللمطبخ، بل ترك مدة فيما يسميه الكتبة «حجرة التداول»[1] الى أن تلّطخ بعفن يفتن جامعي العاديات القديمة، وامتلأ بشقوق ذات قدم وحشي، وتآكلت زواياه حتى ليبدو أن الجرذان قد استمتعت بقرضها؛ واصفرّت حافته بشكل مدهش، وبعد أن وصل السجّل الى هذه الحالة، اليكم بعض استشهادات تعبّر للأكثر بلادة عن الغرض الذي خصّه به مكتب دروش، بعد أن مُلئت صفحاته الستون الأولى بالمحاضر المزيّفة. فقد كتب على الورقة الأولى مايلي:

باسم الأب، والابن، والروح القدس، آمين. في هذا اليوم عيد سيدتنا القديسة جنڤيڤ، شفيعة بَاريس، التي وضع تحت حمايتها منذ العام ١٥٢٥ كتبة هذا المكتب: نحن -الموقعين أدناه- الكتبة وصغار الكتبة في مكتب المحامي الاستاذ جيروم -سباستيان بوردن، خليفة المرحوم غِربْه النائب العام السابق في الشاتله، نعترف بضرورة ابدال السجل وأرشيف تسميات الكتبة في هذا المكتب المجيد، العضو المتميز في مملكة الكتبة، هذا السجّل الذي امتلأ نتيجة صكوك الأعزاء أسلافنا المحبوبين، وبعد أن التمسنا من أمين محفوظات القصر أن يضمّه الى أمثاله من سجلات المكاتب الأخرى، توجهنا جميعاً الى دير سان سِڤِرن للاحتفال بتدشين سجلنا الجديد.

بناء عليه، نوقع جميعاً: مالن الكاتب الرئيس. غريڤن الكاتب الثاني. أتناز فِرّه: كاتب، جاك هوّه: كاتب، رينيو دي سان جان دانجلي: كاتب، بيدو: فتى المكتب، الساعي.

في العام ١٧٨٧ بعد ميلاد مخلصنا.

---

(١) هي دون شك المرحاض حيث يتأخر الكتبة الكسالى عمداً طلباً للراحة من بعض المشقة.

بعد سماع القداس انتقلنا الى منتزه لاكورتيل، وبنفقات مشتركة نعمنا بوجبة غداء لم تنته إلا في الساعة السابعة صباحاً.

كتب هذا النص بأسلوب القرن الثامن عشر، وبشكل خارق يحفّز خبيراً على التأكيد بأنّه وثيقة تعود الى ذلك القرن[1]، وقد أعقبه سبعة وعشرون محضراً عن حفلات استقبال تعود آخرها الى سنة ١٧٩٢ المشؤومة.

بعد فجوة زمنية استمرت أربعة عشر عاماً؛ توبع السجّل بتسميةبوردن محامياً مرخّصاً في محكمة الصلح الأولى لمقاطعة السين، وهوذا التعليق المشير الى اعادة انشاء مملكة الكتبة والى أشياء أخرى:

إنّ الله، بواسع رحمته، أراد رغم الأعاصير المروّعة التي عصفت على أرض فرنسة، وقد غدت امبراطورية كبيرة، أن تُحفظ الوثائق الثمينة لمكتب محاماة الاستاذ بوردن الشهير؛ ونحن كتبة الاستاذ الكبير الكفاءة، الجزيل الاحترام. الموقّعين، لانتردّد في أن ننسب هذه الصيانة الخارقة، بينما فقد العديد من السندات، والصكوك، والامتيازات، الى حماية القديسة جنفييف شفيعة هذا المكتب، وأيضاً الى الاجلال الذي يكنّه آخر النواب العامين ذوي الأروقة الطيّبة لكل مايتعلق بالعادات والتقاليد، ولدى الارتياب في معرفة نصيب القديسة جنڤييف والاستاذ بوردن في هذه الأعجوبة؛ اعتمدنا التوجّه الى سان ايتين دومون لحضور القداس في مذبح تلك القديسة الراعية التي ترسل لنا العديد من الخراف لجزّها ولاقامة وليمة غداء لمعلّمنا مؤملين أن يسدّد نفقاتها.

الموقّعون: وانيار الكاتب الأول، بوادڤن: الكاتب الثاني

بروست: كاتب، برينيوله: كاتب، درڤيل: كاتب، اوغوستن

كوره: فتى المكتب الساعي

عن المكتب، في ١٠ تشرين ثاني ١٨٠٦.

---

(١) بل إنّه في إملائه يعود الى ماقبل ذلك، وقد سبق لبلزاك أن استعمل هذا الأسلوب في «قصص ماجنة».

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي يسجّل الكتبة الموقّعون هنا امتنانهم لمعلمهم الفاضل الذي أمتعهم بما لذّ وطاب في مطعم السيد رولان، شارع هازار، ومن خمور مختارة من مقاطعات بوردو، وشمبانية، وبورغوني، وأطباق متميزة شهية، منذ الساعة الرابعة بعد الظهر حتى السابعة والنصف، أعقبتها القهوة، والمثلجات والمشروبات الكحولية بغزارة، لكن وجود المعلم لم يسمح بإنشاد التسابيح بأغاني الكتبة. ومامن كاتب يتجاوز حدود النشوة المحببة، لأن المعلم المقدّر، والمحترم والأريحي وعد بمصاحبة كتبته لرؤية تالما في مسرحية بريتانيكوس[1] التي تُمثّل على مسرح «التياتر الفرنسي».

العمر المديد للاستاذ بورن! وليغمر الله بأفضاله المعلم المحترم! وليهيء له فرصة بيع مكتبه المجيد بسعر مرتفع! وليرسل له الزبائن الأغنياء بقدر مايتمنى! ولتسدّد فواتير حساباته ياقوتاً أحمر على يده! ونسأل الله أن يكون معلمونا القادمون على شاكلته! وأن يبقى دائماً محبوباً من كتبته، حتى بعد أن ينتقل الى جوار ربّه.

يلي ذلك ثلاثة وثلاثون محضراً عن احتفالات الكتبة، تتميز بخطوط وأخبار متنوعة، وعبارات، وتواقيع، ومدائح للمآكل الشهية والخمور تبدو وكأن كتابة هذه المحاضر الرسمية قد سجّلت ووقّعت، والكؤوس مرفوعة والحفلة قائمة.

أخيراً ففي حزيران ١٨٢٢ موعد أداء قسم دروش، وُجد هذا النصّ الدستوري:

---

(١) تالما (فرنسوا جوزيف) (١٧٦٣ - ١٨٢٦) ممثل فرنسي، هو المفضل لدي نابوليون، مثل بصورة خاصة الشخصيات التاريخية.

بريتانيكوس: مأساة لراسين (١٦٦٩) تظهر النزاع على السلطة بين نيرون ووالدته أغريبين وهي مستوحاة من المؤرخ تاسيت(٥٥-١٢٠) ويبدو أن بلزاك كان معجباً بهذه المسرحية، اذ سبق أن ذكر في قصة «الكولونيل شابر» ذهاب كتبة درڤيل لمشاهدة تالما في دور نيرون.

أنا الموقّع، فرنسوا- كلود- ماري غودشال المكلّف من الاستاذ دروش لأداء المهام الشاقة للكاتب الأولّ في مكتب يجب ترغيب الزبائن به؛ وبعد أن عرفت من الأستاذ درڤيل، الذي خرجت من مكتبه، بوجود سجّلات شهيرة للتدرب القضائي الثلاثي الميول العريق في القدم، وهي ذائعة الصيت في قصر العدل، رجوت معلمنا اللطيف أن يطلبها من سلفه، اذ من المهم العثور على هذه الوثيقة التي تحمل تاريخ السنة ١٧٨٦ الملحقة بوثائق أخرى، مودعة في القصر العدلي شهد لنا على وجودها السيدان تراس ودوكلو[١] الموثّقان، ويمكن بواسطتها العودة الى العام ١٥٢٥، والعثور فيها على معلومات تاريخية ذات قيمة كبيرة تتعلق بتقاليد الكتبة ومآكلهم المفضلة.

وبعد أن تبيّنت صحة هذا الاستقصاء، أمكن للمكتب في هذا اليوم الحصول على السجّل المتضمن هذه الشهادات المتعلقة بإجلال أسلافنا المستمر للقنينة الربّانية والمآكل الشهية.

وبناءً على ماذكر، ولاعطاء القدوة للخلف، ولمواصلة سلسلة الأزمنة والأقداح فقد دعوت السادة: دوله: الكاتب الثاني، وڤاسال الكاتب الثالث، وهريسون وغرندمن الكاتبين ودومه فتى المكتب الساعي، الى الغداء يوم الأحد القادم في مطعم «الحصان الأحمر»[٢] على رصيف ضفة سان برنار حيث سنحتفل بحيازة هذا السجّل الحاوي على شُرعة ولائمنا المفتخرة.

«هذا الأحد، ٢٧ حزيران، تم احتساء اثنتي عشر زجاجة من مختلف الخمور المشتهاة. وتناول بطيختين صفراوين، ومعجنات مشربة بالعصير

(١) يشير كلوزو وڤالنسي في مؤلفهما (باريس «الملهاة الانسانية») عن وجود هذا الموثق فعلاً وهو رئيس القسم القضائي في قصر العدل، وهو شارل- جاكه دوكلو وقد تعرف عليه بلزاك لدى غويونه- مرفيل وأطلق عليه اسم جاكه في رواية فراجوس.

(٢) يذكر ليون غوزلان في كتابه (بلزاك في خفّين) تشكل جمعية كتاب في مطعم الحصان الأحمر يتلخص نظامها المعدّ بمبادرة من بلزاك «الفرد يعمل للمجموع، والمجموع يعاضد الفرد».

الروماني[1]، وشرائح من فتيلة العجل، ورقائق محشوة بالفطر. وقد وضعت الآنسة مارييت أخت الكاتب الأول، وهي عنصر بارز في الأكاديمية الملكية للموسيقى والرقص، تحت تصرف المكتب بطاقات دعوة للمقاعد الأمامية في عرض هذا المساء، مما أوجب اثبات هذه الأريحية في السجّل اضافة الى تقرير ذهاب الكتبة شخصياً لشكر هذه الآنسة، والتصريح لها بأنّها في حال وسوسة الشيطان لها بأول قضية فإنها لن تدفع إلا المصاريف.

«نودي بغودشال زهرة كتبة المحامين، والفتى الطيّب بصورة خاصة. ونرجو لانسان يعامل هذه المعاملة الطيبة أن يصل بسرعة الى التفاوض على شراء مكتب خاص به» انتشرت الى جانب ذلك بقع من النبيذ، والمعجنات، وتأشيرات تواقيع تشبه شرر الأسهم النارية. ولادراك مسحة الحقيقة التي عُرف كيف يُدفع بها هذا السجّل يكفي العودة الى محضر استقبال أوسكار.

«بتاريخ هذا اليوم الاثنين ٢٥ تشرين الثاني ١٨٢٢[2]، وبعد جلسة عُقدت البارحة في شارع سريزه في حيّ الأرسنال، لدى السيدة كلابار، والدة المرشّح القضائي أوسكار هوسون، نحن- الموقعين- نصرّح بأن وليمة الاستقبال تجاوزت ماكنا ننتظر، وقد تألفت من فجل أسود ووردي، ومخلّل خيار، وسردين، وزيتون، وزبدة كمقبلات. ثم طبق أرز شهي يشهد على الاهتمام الأمومي لأننا عرفنا فيه طعم الدجاج، وباعتراف المضيفة تبين أنّه ركام مكمورة أعدت باتقان من قبل السيّدة كلابار في قدر سلاقة لايمكن أن يتمّ بهذه المهارة إلا في المطبخ العائلي.

وأيضاً: كانت المكمورة محاطة ببحر هلام معدّ من قبل الأم.

---

(١) المقصود «القانون الروماني» في تورية له بكلمة «عصير».

(٢) في ذلك التاريخ كان بلزاك المنطلق في الحياة الأدبية بجهد لإنجاح روايتين له نشرهما لدى بوله تحت اسم مستعار هو هوراس دي سان أوبن، وهما «نائب الآردن» «والمعمر المئوي» وكان قد تخلى عن التدرب القضائي، ولعله في هذه الأسطر، يتخيّل ماكانت عليه حياته لو بقي كاتباً لدى موثق عقود.

وأيضاً: وجد طبق من لسان العجل محضّر بالبندورة، لم نقف أمامه جامدين.

وأيضاً: فاكهية* من الكرز بطعم يدفع الى الاعتقاد بأن الملائكة كانت تسهر عليها.

وأيضاً: قرص من اللوز والسكر مع قشدة شوكولاته.

وأيضاً: تحلية اضافية من أحد عشر طبقاً شهياً عرفنا فيها رغم حالة السُكر التي وضعتنا فيها ست عشرة زجاجة من الخمور المختلفة فاكهية درآق ذات مذاق رائع عجيب.

بزّت خمور روسيون وشاطىء الرون مثيلاتها من شامبانية وبورغونية، كما أن زجاجة من كحول ماراسكا وأخرى من مشروب الكرز أنهتا اغراقنا- رغم القهوة اللذيذة- في انخطاف نشوة سكر، حسب من جرآئها أحدنا وهو السيد هوسون أنه مايزال في شارع التامبل بينما كنا في غابة بولونية، كما أن جاكينو ساعي المكتب الصغير الذي لايتجاوز الرابعة عشر من العمر راح يغازل بورجوازيات في السابعة والخمسين معتقداً أنهن فتيات ماجنات؛ مما يوجب الاثبات.

«إن في مجموع أنظمة جمعيتنا قانوناً يجب التقيد به تماماً، هو أن يُترك للمرشحين لحظوة رتبة الكتّاب تقديرُ مايجب ابداؤه من كرم في حفلة الاحتفاء بهم يتناسب مع ثروتهم؛ اذ من المعلوم للجميع أن مامن شخص يرهن نفسه لتميس[1] وهو صاحب دخل كبير، وأن كل كاتب مقيد بقسوة من أبيه وأمه، وهكذا فلنسجل بمزيد من الثناء تصرف السيدة كلابار، الأرملة بعد زواجها الأول من السيدة هوسون، والد أوسكار الحائز على الشهادة، ولنقل إنها جديرة

(*) الفاكهية: فواكه مطبوخة مع السكر.

(١) تميس THEMIS: هي ربّة العدالة في الميتولوجية اليونانية وابنة أورانوس وغالا

بهتاف التكريم الذي أطلق خلال التحلية. وقد وقعنا على هذا جميعاً. ثلاثة كتبة أخذوا بهذه المخادعة، وتمّت ثلاث ولائم حقيقية أشير اليها في هذا السجّل المهيب.

في يوم وصول المتدرّب الجديد الى المكتب، يقوم الفتى الساعي بوضع سجل الوثائق الثلاثي الميول، العريق في القدم، ويستمتع الكتبة بمشهد تغيّر سحنة الوافد الجديد وهو يتأمل هذه الصفحات المضحكة، وبين الكؤوس يدرك كل محتفى به سرّ هذه الفكاهة المكتبية، ويوحي اليه هذا الكشف، كما يؤمَّل، الرغبة في مخادعة الكتبة الوافدين مستقبلاً.

يمكن لكلّ شخص أن يتصوّر سحنة كلّ من الكتبة الأربعة، عند عبارة أوسكار وقد غدا بدوره مخادعاً: «الى الأمام بالسجّل!».

بعد عشر دقائق من هذا الهتاف، تقدّم شاب وسيم، طويل القامة، مليح الوجه؛ وسأل عن السيد دروش، وقال دون أي تردد للكاتب الأول غودشال:

«أنا فردريك مارست؛ جئت لأشغل عمل الكاتب الثالث.

قال غودشال لأوسكار: سيد هوسون، أرشد السيد الى مكانه وأطلعه على عادات العمل لدينا.

في صباح اليوم التالي وجد الكاتب السجّل موضوعاً بشكل مستعرض على لافتته، وبعد أن تصفّح الورقات الأولى منه بدأ بالضحك، ولم يوجّه أي دعوى للمكتب، وأعاد وضعه أمامه. قال في اللحظة التي توجّه فيها للخروج نحو الساعة الخامسة: «أيّها السادة، لي ابن عم، هو الكاتب الأوّل لدى الموثّق الأستاذ ليوبولد هانكن، وسأستشيره فيما يجب علي عمله بشأن وفادتي.

هتف غودشال: يبدو لي أنه ليس مبتدئاً، قاضي المستقبل هذا، فقد عقد علينا الأمر قال أوسكار: سنلسعه.

في اليوم التالي، وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر، رأى أوسكار الكاتب

الأول للاستاذ هانكن يدخل، وعرف فيه جورج مارست، فهتف بمرح: «هيه! هوّذا صديق علي باشا.

أجاب جورج متذكراً أوسكار: عجباً، هاأنت هنا ياسيدي السفير.

سأل غودشال جورج: إيه! أنتما اذاً متعارفان؟

قال جورج: أعتقد جيداً، أجرينا حماقة مشتركة منذ أكثر من سنتين.. نعم، خرجت من مكتب كروتا لأدخل في مكتب هانكن، بسبب تلك القضية بالضبط..

هتف غودشال: أية قضية؟

أجاب جورج عقب اشارة من أوسكار: أوه! لاشيء، أردنا مخادعة عين من أعيان فرنسة، فانقلب الأمر علينا.. آه هكذا اذاً! تريدون ابتزاز ابن عمي.. قال أوسكار برصانة: نحن لانبتزّ أحداً، هوّذا شرعتنا». وقدّم له السجل الشهير على الصفحة التي سجّل عليها قرار استبعاد متمرّد، أجبر بسبب شحّه على أن يترك المكتب في العام ١٧٨٨.

رد جورج وهو يشير الى هذه الوثائق المضحكة: أعتقد جيداً أنكم تريدون قضم جزرة، أرى جذورها هنا، لكنني أنا وابن عمي غنيان وسنقيم لكم حفلة، لم تشهدوا مثلها من قبل، ستحرّض خيالكم على مثل هذه المحاضر. موعدنا غداً الأحد في «صخرة كانكال»[1]، الساعة الثانية، بعد ذلك سأصحبكم لإتمام السهرة لدى المركيزة لاس فلورنتيناس كابيرولوس حيث سنلهو، وستجدون هناك نخبة نساء المجتمع الراقي. ثم أضاف بعجرفة موثق: «هكذا ياسادة المحكمة الابتدائية، كونوا مهذّبين، واعرفوا كيف تتحملون آثار الخمر كنبلاء عصر الوصاية..».

---

(١) مطعم شهير في شارع مونتورغوي، ورد ذكره مراراً في «الملهاة الانسانية».

هتف الكتبة بصوت واحد: مرحى! براڤو.. حسناً، فيڤا. يحيا آل مارست!

هتف فتى المكتب بدوره: مارّه بونتن[1]!

خرج المعلم من مكتبه على هذه الضجة متسائلاً: «ماالأمر؟» ثم أردف عند رؤيته لجورج: «آه! هذا أنت، ياجورج، جئت تفسد كتبتي» ثم نادى أوسكار وعاد وإياه الى المكتب، وفتح صندوقه وهو يقول: «خذ، هذه خمسمئة فرنك، اذهب الى قصر العدل واسحب من قلم النسخ حكم ڤاندنس على أخيه، يجب تبليغه هذا المساء، إن أمكن، وعدت سيمون بمكافأة عشرين فرنكاً؛ انتظر الحكم إن لم يكن جاهزاً، ولاتسمح بالتسويف، لأن درڤيل قادر لمصلحة زبونه، أن يضع أمامنا العصيّ في الدواليب، والكونت فليكس دي ڤاندنس أقوى من أخيه السفير[2] زبوننا، وهكذا فلتكن عيناك مفتوحتين جيداً وعند أقل صعوبة عُد لاعلامي».

انطلق أوسكار وفي نيته أن يبرع في هذه المنازعة الصغيرة وهي القضية الأولى التي يكلّف بها بعد استلامه مهام الكاتب الثاني.

بعد مغادرة جورج وأوسكار، جرّب غودشال أن ينتزع من كاتبه الجديد حقيقة المزحة الكامنة وراء اسم المركيزة لاس فلورنتيناس كابريولوس، لكن فردريك، وبكل هدوء أعصاب ورزانة نائب عام، استمرّ في الخدعة التي بدأها ابن عمه؛ وحمل بطريقة اجابته وتصرفاته، جميع العاملين في المكتب على الاعتقاد بأن المركيزة لاس فلورنتيناس أرملة نبيل اسباني يغازلها ابن عمه، وهي مولودة في المكسيك وابنة مولّد أبيض، وأن هذه الأرملة الشابة الغنية تتميز بعفوية وخفّة النساء المولودات في مثل تلك الأقاليم.

---

(١) ماره بونتن: سهل مستنقعي في ايطالية، إنما قد يشير هتاف الفتى الى أن اسم مارست يمكن أن يلفظ «مارّه».

(٢) ربط مع رواية «الزنبقة في الوادي» ومع «ابنة لحواء» التي تدمج فليكس في الحياة الباريسية وتهيء له ثأراً من أخيه شارل الأثير.

قال بصوت منخفض مستشهداً بأغنية برانجه الشهيرة: «إنّها تحبّ الضحك، والشراب، والغناء على شاكلتنا!»[١].

ثم أضاف: «إن جورج غني جداً، اذ ورث عن أبيه الأرمل دخل ثمانية عشر ألف فرنك سنوياً، تضاف الى الاثني عشر ألف فرنك التي تركها عمنا لكل منا، فدخله اذاً ثلاثون ألف فرنك سنوياً؛ وقد سدّد ديونه، وسيترك كتابة العدل، وهو يأمل أن يغدو المركيز دي لاس فرونتيناس، لأن الأرملة الشابة مركيزة مسماة من ملكها ولها الحق في أن تمنح لقبها لزوجها».

لئن بقي الكتبة في حيرة كبيرة حول صحة وجود المركيزة ومكانها، فإن المنظور المضاعف لغداء في «صخرة كانكال»، وأمسية مطابقة للزي الحديث غمرهم بفرح عارم، ومع كل تحفظاتهم المتعلّقة بالإسبانية، تركوا أمر «الحكم النهائي» عليها للحظة التي سيمثلون بها أمامها.

لم تكن المركيزة لاس فلورنتيناس كابريولوس إلا الآنسة آغات- فلورنتين كابيرول[٢] الراقصة الأولى في مسرح غيته، التي يغني لديها النسيب كاردو أغنية «الأم غوديشون» فبعد سنة من خسارة المرحومة السيّدة كاردو التي يسهل التعويض عنها، صادف التاجر المحظوظ فلورنتين عند خروجها من معهد كولون[٣] لتعليم الرقص، فجذبه جمال هذه الزهرة الايقاعية، وكانت فلورنتين آنذاك في الثالثة عشر من العمر، وتبعها التاجر المعتزل حتى شارع باستورل، حيث سرّه أن يعرف أنَّ الحلية المستقبلية للباليه هي ابنة بوّابة بسيطة، فنصب نفسه حامياً للفنون

---

(١) هفوة من بلزاك، هذا المقطع لأغنية تعود للقرن الثامن عشر، لكن برانجه وضع على نسقها في العام ١٨٢٠ أغنية «ربّات الجحيم».

(٢) لم يبتكر بلزاك هذا الاسم، الذي سبق أن أورده أيضاً في قصة «وريثة بيراغ» (١٨٢٢) وهو يعود لجان كابيرول خادم عائلتهم عند الاقامة في فيلباريسيس.

(٣) اسم عائلة من الراقصين ومعلمي الرقص وقد كان المذكور هنا يدير مدرسة للرقص في الأوبرا من العام ١٨٠٨ الى ١٨٣١ تميزت بشهرة كبيرة.

يكتشف موهبة فتية للمسرح، وخلال خمسة عشر يوماً، كانت الأم وابنتها تستقران في شارع كروسول تتمتعان برفاهية متواضعة فراعي الفنون هذا، وفق التعبير الشائع، هذا الميسين[1] السخي، جعل هاتين المخلوقتين شبه مجنونتين غبطةً، وهو يقدم لهما شقة يفرشها بأثاث من الأكاجو والطنافس، والسجّاد ومستلزمات المطبخ، ويوظِف لهما خادمة، ويخصِّص مئتين وخمسين فرنكاً لنفقاتهما الشهرية.

وبدا الأب كاردو، وقد سرّح شعره كجناحي حمامة[2]، شبه ملاك، وعومل كما يجب أن يعامل ولي النعمة، وكانت تلك الفترة بالنسبة للعجوز المتصابي **العصر الذهبي**، خلال ثلاث سنوات، بلغ الحذق بمُنشد الأم غوديشون منتهاه في صيانة الآنسة كابيرول وأمها في هذه الشقة الصغيرة على بعد خطوتين من المسرح، ثم قدّم لمصونته، حبّاً بالرقص الايقاعي، ڤستريس[3] مدرباً لها، وهكذا أسعده أن يرى في العام ١٨٢٠، فلورنتين تقوم بخطواتها الراقصة الأولى في باليه مشجاة استعراضية بعنوان **خرائب بابل**[4] وكانت فلورنتين آنذاك تدرج في ربيعها السادس عشر، وبعد فترة من تلك البداية، غدا الأب كاردو بالنسبة لربيبته العجوز الشحيح؛ لكنه أدرك بحسن تقديره أن راقصة في مسرح «الغيته» يجب أن تظهر بمستوى لائق، وهكذا رفع معونته الشهرية الى خمسمئة فرنك؛ واذا كان لم يعد ملاماً، فإنّه غدا على الأقلّ **صديقاً لمدى حياته**، وأباً ثانياً؛ وكان هذا هو **عصره الفضي**.

من ١٨٢٠ الى ١٨٢٣ اكتسبت فلورنتين الخبرة التي تحظى بها جميع

---

(١) ميسين (٦٩-٨ ق.م) فارس روماني، كان صاحب حظوة لدى القيصر، استغلها لرعاية الآداب والفنون، وكان ڤيرجيل وهوراس ممن تمتعوا بحمايته.

(٢) تسريحة تردّ خصلات الشعر الطويلة من جانبي الرأس على القحف الأصلع، وقد استخدمها الفارس دي فالوا أيضاً في قصة «العانس».

(٣) فستريس (١٧٦٠-١٨٤٢) راقص في الأوبرا من ١٧٧٢-١٨١٦ وأستاذ في الكونسرفاتوار.

(٤) مشجاة لبيكزِ ركور مثلت بدءاً من العام ١٨١٠ في «الغيته».

الراقصات في التاسعة عشر والعشرين من العمر، وغدت صديقاتها ماربيت وتوليا، الراقصتان الأوليتان الشهيرتان في الأوبرا، وفلورين؛ ثم كورالي المسكينة، التي فتنت باكراً بالفنون، والحبّ، وكاموزو[1]. وبما أن الأب كاردو قد تقدم في العمر خمس سنوات اضافية، فإنّه قد وصل الى تسامح هذه النصف أبّوة التي يحسُّ بها الشيوخ نحو المواهب الشابة التي تعهدوها والتي يعتبرون تفوّقها نجاحاً لهم. زد على أنّه أينَ وكيف يمكن لرجل في الثامنة والستين من العمر أن يجد وداً مماثلاً. ويعثر على شابة مثل فلورنتين تعرف جيّداً عاداته ويستطيع أن يغني عندها مع أصدقائه «أغنية الأم غوديشون»؛ وهكذا وجد الأب كاردو نفسه تحت نير نصف زوجي يتعرَّض من خلاله لقوة لاتقاوم. كان هذا هو **عصره البرونزي**.

خلال سنوات العصر الذهبي والعصر الفضي الخمسة، اقتصد كاردو تسعين ألف فرنك، فهذا العجوز، الممتلىء خبرة، توقّع أن تبلغ فلورنتين سن الرشد بوصوله الى سن السبعين، وستبدأ على الأرجح عملها في الأوبرا، وستطمح الى اظهار ترف الراقصة الأولى، وقبل موعد السهرة التي سبق الاشارة اليها بعدة أيام، أنفق الأب كاردو خمسة وأربعين ألف فرنك ليوطد مكانة فلورنتين التي أخذ لها الشقة القديمة حيث حقّقت المرحومة كورالي السعادة لكاموزو. وفي باريس توجد شقق ومنازل كالشوارع لها قدرها. وقد قامت الراقصة الأولى في مسرح «الغيته» بعد أن اغتنت مائدتها بفضيّات رائعة باقامة حفلات عشاء عامرة، وكانت تنفق ثلاثمئة فرنك في الشهر على زينتها، ولاتخرج إلا في عربة فخمة، ترافقها وصيفة، ولديها طاهية، وفتى خدمة.

أخيراً فهي تطمح الى رتبة البداية في الاوبرا؛ وكان متجر الكوكون دور، تقديراً منه لمالكه القديم، يقدم أجمل محتوياته للآنسة كابيرول ليحظى برضاها؛

---

(١) المعني بالفنون (موهبتها في المسرح)، وبالحب (غرامها بلوسيان) أما كاموزو (فهو الخليل الذي يرعاها وينفق عليها) انظر قصة «رجل كبير من المقاطعات في باريس» في ثلاثية (أوهام ضائعة).

كما كان قبل ذلك بثلاث سنوات يشبع رغبات كورالي، إنّما دائماً دون علم ابنة الأب كاردو، اذ أن الأب والصهر كانا يتفاهمان بشكل يدعو الى الاعجاب للمحافظة على أدب التصرف في قلب العائلة، فالسيدة كاموزو لاتعلم شيئاً عن مجون زوجها، ولاعن طبائع أبيها، والروعة التي تفجّرت اذاً في شارع فندوم، لدى الآنسة فلورنتين، من شأنها أن ترضي الممثلين الثانويين الأكثر طموحاً. وبعد أن كان كاردو السيّد خلال سبع سنوات شعر أنّه يُجرُّ بقاطرة ذات نزوة لا حدّ لاستطاعتها. لكن العجوز المسكين يحبُّ! وهو يأمل في أن تطبق فلورنتين أجفانه عند موته، وقد أخذ في اعتباره أن يوصي لها بمئة ألف فرنك. وكان هذا هو عصره الحديدي.

كان جورج مارست الفتى الوسيم، ذو دخل الثلاثين ألف فرنك سنوياً، يتودّد الى فلورنتين. وجميع الراقصات يطمحن الى أن يحبِبْن كما يحبُّهن حُماتُهن. وحلم الراقصة أن يكون لها شاب يصحبها في النزهة، ويرتب لها جولات ممتعة في الريف، ونزوة الراقصة الأولى، رغم ترفعها، هي دائماً هوى يكلّف بعض النفقات للمخلوق البشري السعيد المختار: حفلات العشاء في المطاعم، والمقاصير في المسارح، والعربات للذهاب الى المناطق المجاورة لباريس والعودة منها، والخمور الشهية المستهلكة بافراط، فحياة الراقصات أشبه بحياة المصارعين سابقاً[1].

كان جورج يلهو لهو الشباب المنتقلين من العهدة الأبوية الى الاستقلال التام، وجاء موت عمّه مضاعفاً ثروته تقريباً، مما غيّر أفكاره، فعندما لم يكن دخله يتعدّى ثمانية عشر ألف فرنك سنوياً تركها له أبوه وأمه، كانت رغبته في أن يكون موثّقاً، لكنه، وفقاً لكلمة ابن عمه لكتبة دروش، يجب أن يكون مغفلاً ليستمر في وضعه السابق بعد الثروة التي حصل عليها، اذاً فالكاتب الأول يحتفل

---

(١) الراقصات المعرضات للهلاك على حلبة الحياة الباريسية ومسارحها يعشن كما كان يعيش مصارعو روما قديماً.

بيوم حريته الأول بهذا الغداء المعتمد أيضاً في ذات الوقت كوليمة حفاوة بابن عمه. وكان فردريك أكثر تعقلاً من جورج فاستمر على تصميمه العمل في وزارة العدل. وكما أن شاباً وسيماً بمثل نضج وحنكة جورج يمكنه بيُسر أن يتزوّج مولّدة غنية؛ أمكن، وفقاً لقول فردريك لرفقاء المستقبل، للمركيز دي لاس فلورنتيناس كابيرولوس، في أواخر أيامه، أن يختار زوجة له فتاة جميلة بدلاً من فتاة نبيلة. ولما كان كتبة دروش ينتمون جميعاً الى عائلات فقيرة، ولم يسبق لهم معاشرة الطبقة الراقية، فقد اختار كل منهم أجمل مالديه من ثياب، وانتظر بفارغ صبر رؤية المركيزة المكسيكية دي لاس فلورنتيناس كابيرولوس.

قال أوسكار لغودشال وهو ينهض صباحاً: «ياحسن الحظّ في طلبي لسترة، وبنطال، وصدار جديدة، وزوج من الأحذية؛ وفي أن أمي العزيزة أعدّت لي جهازاً جديداً بمناسبة ترقيتي للعمل ككاتب ثان! إنّ لديّ الآن ستة قمصان ذات صُدرة مزينة ومن القماش الجيّد، من بين الإثني عشر قميصاً التي أعدّتها لي . . . سنظهر على مايرام! آه! لو يتمكن أحدنا أن ينتزع المركيزة من جورج مارست هذا . . .

هتف غودشال: ياللمهمة الجليلة لكاتب لدى الاستاذ دروش! . . . أنت اذاً لاتكبح أبداً غرورك، أيّها الولد؟

قالت السيدة كلابار وقد أتت تحمل لابنها ربطات عنق مما أتاح لها الاستماع لملاحظة الكاتب الأول: آه! ياسيدي، لتكن مشيئة الله في أن يهدي أوسكار للعمل بموجب آرائك الطيبة، وأنا أقول له دون انقطاع: تشبّه بالسيد غودشال: اعمل بنصائحه!

أجاب الكاتب الأول: إنه يتحسّن ياسيدتي، ولكن يجب ألا تبدر منه مثل الرعونة التي ارتكبها البارحة كي لايفقد ثقة المعلم به. فالمعلم لايتصوّر أبداً عدم النجاح. وقد أعطى لابنك كقضية أولى تبليغ قرار حكم في دعوى ميراث يتنازع عليه أخّان من كبار النبلاء، لكن أوسكار استسلم للتسويف والخديعة مما أغضب

الاستاذ. وكل ماأمكنني اصلاحه من هذه الحماقة، هو ذهابي منذ الساعة السادسة هذا الصباح، الى كاتب المحكمة، والحصول على وعدٍ باستلام نسخة عن قرار الحكم غداً في الساعة السابعة والنصف صباحاً .

هتف أوسكار: آه! غودشال، إنك صديق حقيقي، وأقبل على الكاتب الأول، ومتقدّمه، يهزّ يده مصافحاً وشاكراً.

قالت السيدّة كلابار: آه! ياسيّدي، كم تكون الأم سعيدة عندما تعلم أن لابنها صديقاً مثلك. ويمكنك أن تعتبر أنني أكنّ لك عرفاناً بالجميل لاينتهي إلا مع حياتي.

ثم توجّهت الى ابنها قائلة: أوسكار، احذر جورج مارست هذا، لقد سبّب لك فيما مضى أول مصيبة تعرضت لها في حياتك.

سأل غودشال: ماهي اذاً؟

شرحت الأم الساذجة باختصار للكاتب الأول الحادثة التي حصلت لابنها المسكين في عربة بيروتن.

قال غودشال: «إنني واثق أنّ هذا المهذار قد أعدّ لنا مقلباً على طريقته للسخرية بنا هذا المساء.. أنا لن أذهب الى المركيزة دي لاس فلورنتيناس، فأختي بحاجة لي من أجل وضع شروط لارتباط جديد لها؛ وسأترككم عند التحلية؛ لكن كن متيقظاً ياأوسكار. قد تُعرض عليكم المقامرة، فلايجب لمكتب دروش التراجع، خذ العب بالمشاركة بيني وبينك».

ومدّ هذا الفتى الطيب يده الى كيسه وأعطى أوسكار، الذي استنفد كل دراهمه تقريباً بين الخياط والحذاء مبلغاً من المال، وهو يقول: هوذا مئة فرنك، إنّما كن حذراً، فكرّ ألا تتجاوز في لعبك مبلغ مئة فرنكاً؛ لاتأخذنك نشوة اللعب، أو الافراط في الشراب. قسماً! إن للكاتب الثاني مكانته، فلايجب أن يقامر مجازفاً بالاستدانة، ولاأن يتجاوز حداً معيناً في كل شيء؛ بمجرّد الوصول

الى مقام الكاتب الثاني، يجب الطموح الى منصب المحامي المرخّص، وهكذا لاإفراط في الشراب، ولامجازفة في المقامرة، مع المحافظة على لباقة مناسبة، هوذا قاعدة سلوكك، ولاتنس أن تعود عند منتصف الليل، اذ عليك أن تكون غداً في قصر العدل عند السابعة صباحاً من أجل نسخة قرار التبليغ. ليست التسلية محظورة إنّما الالتزام بالواجب متقدّم على كل شيء.

قالت السيدة كلابار: أسمعت ياأوسكارأترى مدى تسامح السيد غودشال، وكيف يعرف التوفيق مابين متعة الشباب ومسؤوليات مركزه الوظيفي.

بقيت السيدة كلابار، عند مجيء الخياط والحذّاء لرؤية أوسكار، منفردة للحظة مع الكاتب الأول، وأعادت له المئة فرنك التي منحها لولدها وهي تقول: آه! أيهاّ السيد فلترافقك تبريكات أم في كل مكان، وفي كلّ أعمالك.

ثم غمرت السعادة الأم وهي ترى ولدها بأحسن هندام، وكانت قد حملت اليه ساعة ذهبية اشترتها من مدّخراتها مكافأة على سلوكه.

قالت له: ستسحب على قرعة التجنيد خلال ثمانية أيام، ولما كان من الواجب الاحتياط خشية وقوعك على رقم حظ سيء، ذهبت لرؤية زوج عمتك السيد كاردو، وهو مسرور جداً منك، ومعتز بوصولك الى مركز كاتب ثان وأنت في العشرين من العمر، ومن نجاحك في امتحانات معهد الحقوق، ووعد بتقديم المال اللازم لشراء بديل للخدمة عنك. ألا تشعر بالغبطة لرؤية مايلقى السلوك الطيب من جزاء حسن؟ إن كنت تعاني حالياً من الحرمان، فكّر بسعادة إمكان حصولك على مكتب محام مرخّص خلال خمس سنوات وتصوّر، ياصغيري العزيز، مدى ما ستضيفه من سرور على أمك..

كان وجه أوسكار قد بدا عليه شيء من النحول بسبب الدراسة، واتخذ مظهره بسبب الاعتياد على مواصلة العمل تعبيراً يدلّ على الرصانة، بعد أن اكتمل نموه، ونمت لحيته، وحلت الرجولة محلّ اليفاع، ولم تستطع الأم أن تخفي اعجابها بابنها وقبلته بحنان وهي تقول له: «رفّه عن نفسك، لكن تذكّر

تحذيرات هذا الشاب الطيب السيد غودشال. آه! عجباً، كدت أنسى! هي ذي هدية صديقنا مورو، محفظة جميلة.

- إنني بحاجة ماسّة اليها، خاصة وأن المعلم سلّمني خمسمئة فرنك لاستخلاص هذا الحكم اللعين لفاندنس على أخيه، وأنا لاأريد أن أترك هذا المبلغ في غرفتي.

قالت الأم مذعورة: هل ستحمله معك؟ وماذا ستفعل إن فقدت هذا المبلغ؟ أليس الأفضل أن تعهد به للسيد غودشال؟

هتف أوسكار موافقاً على رأي أمه: «غودشال؟».

لكن غودشال، كجميع الكتبة يوم الأحد، كان حرّ التصرف في استخدام وقته كما يحلو له بين العاشرة صباحاً والثانية بعد الظهر، لذا غادر المقرّ.

راح أوسكار، بعد أن تركته أمه، يتسكّع في الجادّات، منتظراً موعد وليمة الغداء، وكيف لايحلو له التنزّه بمثل هذا الهندام الأنيق الذي يتزين به بسرور واعتزاز، ويتذكره جميع الشباب الذين قاسوا من الحرمان في مطلع حياتهم؟

صدار جميل من كشمير بأساس أزرق، وشال، وبنطال من كشمير أسود ذي طيّات، وسترة سوداء جيدة التفصيل، وعصا ذات قبضة فضية مذهبة اشتراها من مدخراته أشاعت كلها فرحاً متوقعاً لدى هذا الفتى المسكين الذي كان يفكر بما ارتداه يوم سفره الى برسل، متذكراً الأثر الذي أحدثه جورج عليه. كان أوسكار يترقّب يوماً عامراً بالملذات، خاصة وأنه سيحتكُّ مساء بالوسط الراقي لأول مرة! ولنعترف! يمكن لكاتب محروم من المسرّات، وهو يتلهف منذ زمن طويل الى شيء من الفجور، أن تجمح به غرائزه المستثارة، بحيث تنسيه نصائح غودشال الحكيمة، وتوصيات أمه الرشيدة، ومما يخجل الشباب أن النصائح والتوصيات لاتنقصهم أبداً؛ وأوسكار عدا عما تلقاه في الصباح من تحذيرات، كان يحسُّ في

ذاته بنفور من جورج، ويشعر بالخزي أمام شاهد حادثة قصربرسل، عندما ألقى به مورو في صالته على قدمي الكونت دي سريزي.

إن للأخلاق قوانينها، وهي محتومة، ومن يستخفُّ بها يلقى دائماً العقاب، وأحدها يذعن له حتى الحيوان، دون نقاش، ودوماً، وهو قانون يأمرنا بأن نتجنب من أساء الينا مرة عن قصد أو دون قصد، بارادته أو مضطراً، فالمخلوق الذي أصابنا بضرر أو كدر هو مصدر شؤم لنا، وأيّاً كان مقامه أو درجة ارتباطنا معه، يجب الابتعاد عنه، لأن الحظ العاثر هو الذي يضعه في طريقنا. وبالرغم من أن الايمان المسيحي يرفض هذا السلوك، فإن اطاعة هذا القانون الرهيب ضرورة اجتماعية ووقائية. وابنة جاك الثاني[1] التي خلعت والدها عن عرشه قد سببت له، قطعاً، أكثر من جرح قبل انتزاعها الملك منه، ويهوذا وجّه للسيد المسيح طعنة ما بالتأكيد قبل أن يخونه. إن في داخلنا شعوراً داخلياً هو احساس الروح التي تستشعر الكارثة؛ والاشمئزاز الذي نحسّ به تجاه كائن الشؤم هذا، هو نتيجة ذلك الانذار، واذا كان الايمان الديني يأمرنا بعدم الإذعان اليه، فالاحتراس واجب، ومن الضروري الاصغاء الى صوته.

هل يمكن لأوسكار ذي العشرين ربيعاً أن يتحلى بهذا القدر من الحكمة؟!

للأسف عندما دخل في الساعة الثانية والنصف الى صالة مطعم صخرة كانكال، حيث وجد، عدا رفاقه الكتبة، ثلاثة مدعوين، وهم نقيب سابق في سلاح الخيالة، اسمه جيرودو؛ وفينو وهو صحفي يمكنه تقديم المساعدة لفلورنتين من أجل دخول الأوبرا، ودوبرويل المؤلّف صديق توليا احدى منافسات ماريت في الأوبرا؛ أحسّ الكاتب الثاني بضغينته الخفية تخبو عند أوّل مصافحة، وعند

---

(١) جاك الثاني (١٦٣٣-١٧٠١) ملك انكلترة، واسكوتلندة، وايرلندة، خلع عن العرش من قبل ابنته ماري الثانية ستيوارت (١٦٦٢-١٦٩٤) زوجة غليوم الثالث دي ناسو، أمير أورانج والحاكم الاقليمي لهولندا.

أوّل الميول لتبادل الأحاديث بين الشباب أمام مائدة لاثني عشر مدعواً جُهزت بكل عناية، كما أن جورج أبدى كل ملاطفة لأوسكار.

قال له: «إنّك اتبعت الدبلوماسية الخاصة، اذ أي فرق بين السفير والمحامي المرخص؟ إنّه بمثل الفرق الفاصل بين الأمة والفرد. فالسفراء هم المحامون المرخصون لدى الشعوب! اذا كان بامكاني أن أقدّم لك أية خدمة، فتعالَ لمقابلتي.

- قال أوسكار: الواقع، إنني أستطيع أن أعترف لك اليوم بأنك كنت السبب في إلحاق أذى كبير بي...

- قال جورج بعد أن استمع الى سرد عن المحنة التي لحقت بالكاتب، باه! إن السيّد دي سريزي هو من أساء التصرف. وامرأته؟ لاأتمنى أن تكون زوجة لي. إن الكونت استطاع أن يصل الى منصب وزير دولة، وعين من أعيان فرنسة؛ لكنني لاأرغب مقابل ذلك أن يكون لي جلده المحمر، إنه ضيّق الأفق، وأنا أسخر منه الآن».

استمع أوسكار بسرور حقيقي الى هزء جورج من الكونت دي سريزي، لأن هذا يخفّف، بطريقة مامن فداحة غلطته، وشارك في الرأي الحقود الكاتب السابق للموثّق الذي كان يستمتع بالتنبوء للطبقة النبيلة بما تحلم البورجوازية بإلحاقه بها من مصائب تحققت في العام ١٨٣٠[1].

بدأت الوليمة في الساعة الثالثة والنصف، ولم تقدّم التحلية إلا في الثامنة، مما يعني أنّ كل طبق استغرق ساعتين؛ مامن أحد يمكنه أن يأكل هكذا إلا الكتبة؛ وللمعدة بين سن الثامنة عشرة والعشرين قدرة يعجز الطب عن تفسيرها، وكانت

---

(١) يتخذ بلزاك هنا موقفاً مناصراً للحزب الملكي. والواقع أن ثورة ١٨٣٠ أسست النظام الذي تحلم به البورجوازية، وأن الشعب كان مجرد أداة فيها.

الخمور تليق بمكانة بورل الذي حل في تلك الفترة محلّ بالين[١] أول مؤسس للمطاعم الباريسية التي اشتهرت برهافة وكمال مطبخها في العالم أجمع.

بديء بوضع المحضر الرسمي لهذه الوليمة البَلَشصّرية[٢] مع التحلية بمطلع لاتيني هذا نصه: «وسط الأقداح المذهبة للمطعم المشهور عامة باسم صخرة كانكال. .» وبعد هذا المطلع، يمكن لكل شخص أن يتخيّل الصفحة الجميلة التي أضيفت الى هذا السجل الذهبي لحفلات غداء الكتبة القضائيين.

اختفى غودشال بعد أن وقّع تاركاً المدعوين الأحد عشر يُنشطون من قبل النقيب السابق للحرس الامبراطوري، ويستسلمون للخمور، والأنخاب، والمشروبات الكحولية الملائمة لتحلية وليمة اختتمت بأهرامات من الثمار والبواكير تشبه مسلات طيبة[٣]؛ وفي الساعة العاشرة والنصف، وصل الفتى ساعي المكتب الى حالة لاتسمح له بالبقاء، فوضعه جورج في عربة، وأعطى الحوذي عنوان أمه، ومنحه أجرة المشوار، وتشاور عندئذ المدعوون العشرة المنتشون مثل بيت ودونداس[٤]، في الذهاب سيراً على الأقدام عبر الجادات، نظراً لجمال الطقس، الى منزل المركيزة دي لاس فلورنتيناس كابيرولوس، حيث سيلتقون عند منتصف الليل مع نخبة من الطبقة الراقية، وكانوا كلهم على ظمأ لاستنشاق الهواء النقي ملء الرئتين، إنما باستثناء جورج وجيرودو، ودو بروبل وفينو[٥]، المعتادين على حفلات السكر الباريسية، لم يكن أحد قادراً على

---

(١) كان بالين مؤسس مطعم صخرة كانكال، وخلفه بورل.

(٢) نسبة الى بَلَشصَّر ملك بابل في القرن السادس ق. م الذي تنبأ له دانيال بزوال ملكه على يد الفرس، بعد أن أقام حفلة سكر شرب فيها بآنية الهيكل.

(٣) طيبة: عاصمة مصر القديمة، اشتهرت بما عثر فيها من مسلات، وبمعبدي الكرنك والأقصر.

(٤) وليم بيت (١٧٥٩-١٨٠٦) رجل دولة بريطاني، كان رئيس للوزراء قاد الصراع ضد فرنسة ونابوليون. وهنري دونداس من وزرائه في الفترة (١٧٩١-١٧٩٤) واشتهر الاثنان بشغفهما بالمآدب العامرة والخمور الجيدة.

(٥) ارتباط مع جماعة «العيّاشين» في «الملهاة الانسانية» لكنهم دون أولئك الذين ذكروا في «جلد الحبب».

المشي، فأرسل جورج في طلب ثلاث عربات من أحد المؤجّرين، وأقل مدعويه في نزهة لمدة ساعة عبر الجادات الخارجية، بدءاً من مونمارتر حتى حاجز تُرون، والعودة عن طريق برسي، وأرصفة ضفة النهر والجادات حتى شارع ڤندوم.

كان الكتبة مازالوا يحلقون في سماء عامرة بالنزوات، رفع السكر هؤلاء الشباب اليها، عندما أدخلهم مضيفهم الى وسط صالون فلورنتين، هناك كانت تتألق أميرات المسرح اللواتي أُنبئن مسبقاً، دون شك، بمزحة فردريك، فرُحن يتسلين بتقليد النساء النبيلات؛ وهن يتناولن المرطبات، وكانت الشموع تسكب الأنوار وهي تلتهب ضمن الشمعدانات الكبيرة؛ وخدم توليا، والسيدة دو ڤال نوبل، وفلورين، وكلّهم في بزّات رسمية يدورون بالحلويات على صوان من فضة. والستائر وهي من تحف الصناعة الليونية مربوطة بأحزمة ذهبية تبهر الأنظار، وأزهار السجاجيد تشبه روضة، والصمديات المترفة، والطُرف ترفرف أمام أعين الناظرين.

للوهلة الأولى، وفي الحالة التي صوّرها جورج، اقتنع الكتبة، وخاصة أوسكار، بأنهم في حضرة المركيزة دي لاس فلورنتيناس كابيرولوس. وكان الذهب يلتمع على موائد القمار الأربع المقامة في غرفة النوم، وفي الصالة انصرفت السيّدات الى لعبة واحد وعشرين[1]، يديرها ناتان المؤلف الشهير.

بعد أن سار الكتبة على غير هدى، ثملين، وشبه نائمين، في الجادات الخارجية، استيقظوا اذا في قصر آرميد[2] حقيقي. بقي أوسكار منذهلاً كلياً، بعد أن قدّمه جورج الى المركيزة المزعومة، فهو لم يتعرّف على راقصة الغيته في تلك المرأة، ذات الثوب الارستقراطي العاري الصدر والكتفين، الزاخر

(١) لعبة مقامرة تشبه البكرا، لكن أفضل الأرقام هو الرقم (٢١).

(٢) آرميد: احدى بطلات اورشليم المحرّرة (١٥٩٥) ملحمة الشاعر الايطالي تاسو (١٥٤٤-١٥٩٥) وقد خبّأت رينو في حدائق قصرها الغناء بعيداً عن أنظار جيش الصليبيين.

بالمنمنمات، الشبيهة باحدى صور دفتر التذكارات[1]، وقد استقبلته برقة وأسلوب لامثيل لهما في ذكريات أو تخيلات كاتب منغلق في عزلة قاسية؛ وبعد أن تأمّل باعجاب تلك الشقة والنساء الجميلات الموجودات فيها اللواتي تبارين في اظهار زينتهن لتدشين تلك الشقة الرائعة؛ اقتيد من قبل فلورنتين نحو مائدة لعبة الواحد وعشرين.

قالت المركيزة المزعومة: «تعال لأقدّمك الى مركيزة آنغلاد، احدى صديقاتي . . . » ورافقت أوسكار المسكين الى الفاتنة فاني بوبره، التي حلّت منذ سنتين محلّ المرحومة كورالي في مشاعر ودّ كاموزو، وكانت هذه الممثلة الشابة قد حازت على شهرة في دور مركيزة في ميلودراما مُثلت في بورت- سان مارتن وهي بعنوان «عائلة آنغلاد»[2] قالت فلورنتين: «اليك ياعزيزتي، هاأنا أقدّم لك هذا الفتى اللطيف الذي يمكن أن تشاركيه في اللعب.

ردّت الممثلة، وهي تتأمل أوسكار وقد استقبلته بابتسامة ساحرة: آه! ياللمناسبة اللطيفة، إنني أخسر، لكننا سنقامر مناصفة، أليس كذلك؟

قال أوسكار وهو يجلس قرب الممثلة الجميلة: سيدتي المركيزة، إنّني رهن اشارتك، قالت: ضع نصيبك من المال، هوذا نصيبي: آخر مئة فرنك، ستحمل لي الحظ الطيب، وسنلعب شراكة». وأخرج أوسكار من حقيبته مئة فرنك من قطع ذات المئة فلس قدّمها بخجل لاختلاط هذه الإكوات الحقيرة بالقطع الذهبية.

خلال عشر دورات خسرت الممثلة المئتي فرنك[3].

---

(١) دفتر التذكارات: KEEPSAKE دفتر مزخرف برسوم جميلة كان يهدى تذكاراً في فرنسة في عهد الرومنسيين.

(٢) مشجاة لفورنيه وفردريك بدىء بتمثيلها في بورت- سان مارتن في العام ١٨١٦.

(٣) يعتبر المبلغ كبيراً فأوسكار كان يدفع في البدء لتعلم المهنة ولقاء السكن والاطعام ٩٠٠ فرنك سنوياً وبعد سنتين كان يتلقى راتباً سنوياً ٨٠٠ فرنك.

هتـفت: هيّـا، يالسـوء الحظ، لكن دوري في اسـتـلام البنك، سنبـقى شريكين، أليس كذلك؟.

ونهضت فاني بوبره وتحولّت جميع أنظار من على المائدة اليها والى الكاتب الشاب الذي لم يجرؤ على الانسحاب والتصريح بأنه لايملك مالاً للعب، وثقل لسانه الملتصق بسقف حلقه، وغاب صوته.

قالت الممثلة للراقصة: «اقرضيني خمسمئة فرنك؟».

حملت فلورنتين خمسمئة فرنك للممثلة بعد أن أخذتها من جورج الذي كان يلعب بروية وقد أبعد الورق غير الملائم للمرة الثامنة في لعبة التبعيدة[١].

همست الممثلة في اذن أوسكار: إن صاحب البنك[٢] يربح دائماً، هوّذا ناتان قد ربح ألف ومئتي فرنك، فيجب ألا نظهر الضيق».

سيدرك الأشخاص أصحاب القلوب الكبيرة، والخيال، والمراس؛ كيف فتح أوسكار محفظته، وكيف أخرج منها الورقة النقدية ذات الخمسمئة فرنك، وراح ينظر الى ناتان، المؤلف الشـهـيـر، الذي اسـتـأنف اللعب مع فلورين بمراهنات كبيرة ضد البنك.

هتفت فاني بوبره، وهي تشير الى أوسكار ليجمع المئتي فرنك التي تحداها بها ناتان وفلورين وخسراها: «هيا، ياصغيري، اجمعها».

لم تكن الممثلة توفر فكاهاتها وسخرياتها على أولئك الذين يخسرون، وكانت تحمس اللعب بمزحات ماجنة وجدها أوسكار غريبة جداً؛ لكن الفرحة

---

(١) هي لعبة مقامرة- تشـبه لعبة البـوكر حالياً- يحق للاعـب فيها إن ارتضى الخـصم تبديل الأوراق غير الملائمة له، وهي تتم بين لاعبين ويحق لمراهنين من خارج مائدة اللعب المشاركة في الرهان مع أحدهما.

(٢) صاحب البنك يلعب ضد مجموع اللاعبين وفي حال تساوي نقاطه مع نقاط لاعب فهو الرابح، كما أن من حقه في حال جودة ورقه أن يطلب مضاعفة الرهان.

خنقت ردود فعله، اذ أن الدورين الأولين حققا له ولشريكته ربحاً قدره ألفا فرنك؛ وخالجته رغبة بالتظاهر بوعكة صحية ألمت به، والانسحاب تاركاً شريكته، لكن «الشرف» ثبّته في مكانه، ومرّت ثلاثة أدوار انتزعت أرباحهما كلّها، وأحسّ أوسكار بالعرق البارد في ظهره، وصحا تماماً من سكرته، وجاء دوران آخران خطفا الألف فرنك المشتركة، وأحسّ أوسكار بجفاف في حلقه، وابتلع ثلاثة كؤوس من البنش المثلّج، الواحد بعد الآخر. واقتادت الممثلة الكاتب المسكين الى غرفة النوم، وهي تحدثه بكلام فارغ، وهنا شعر بفداحة خطئه، وبدا له وجه دروش وكأنه في حلم، فانزوى على طنفسة عثمانية جميلة في ركن عاتم ووضع منديله على عينيه، وراح يبكي بصمت. لاحظت فلورنتين هذا الوضع المتسربل بالألم، المكتسي طابعاً صادقاً، مما يجذب انتباه الممثلة المقلّدة الصامتة، فأسرعت نحو أوسكار، وأبعدت منديله عن وجهه، ورأت دموعه، فاقتادته الى غرفة الجلوس، وسألته: «مابك ياصغيري؟»

عند هذا الصوت، وهذا السؤال، أحسّ أوسكار بطيبة أمومية في نبرة هذه الفتاة الطيبة فأجاب: خسرت خمسمئة فرنك عهد بها إليّ معلمي لأسحب غداً نسخة عن خلاصة حكم، ولم يبق أمامي إلا أن ألقي بنفسي في النهر، فأنا غارق في العار.

قالت فلورنتين: هل أنت أحمق؟ ابق هنا، سأجلب لك ألف فرنك، فجرّب أن تستعيد فلوسك؛ لكن لاتجازف إلا بخمسمئة فرنك، لتحافظ على مال معلمك. إن جورج يلعب التبعيدة بمهارة، فراهن معه...

ارتضى أوسكار وهو في الوضع البائس الذي وصل اليه اقتراح ربة البيت، وقال في نفسه: «آه! لاتظهر هذه البادرة إلا من المركيزات... جميلة، ونبيلة، وغنية، ياالحظ جورج السعيد!».

وتلقى من فلورنتين الألف فرنك ذهباً، وراح يراهن على لعب مخادعه.

وكان جورج قد أبدل ورقه للمرة الرابعة دون أن يراهن، وعندما جلس أوسكار الى جانبه، نظر اللاعبون بسرور الى قدوم هذا المراهن الجديد، وبغريزة المقامرين انضموا جميعاً الى جانب جيرودو، الضابط الامبراطوري السابق.

قال جورج: أيها السادة، ستلقون جزاء عن ردتكم، وأنا أشعر أن الحظ مؤات لي. هيا، ياأوسكار، سنتغلب عليهم.

خسر جورج وشريكه خمس مرات على التوالي. وبعد أن بدّد أوسكار ألف فرنك، انتابه سعار المقامرة، وأراد أن يمسك ورق اللعب بنفسه، وبتأثير مصادفة تكاد تكون عامة لدى من يقامرون لأول مرة، ربح؛ لكن جورج أدار رأسه بنصائحه: كان يطلب منه أن يطرح بعض الأوراق، بل كان ينتزعها غالباً من يديه، بحيث أن صراع هاتين الارادتين، وهذين الالهامين، أضرّ برمية الحظ، وهكذا فعند الساعة الثالثة صباحاً، وبعد عودة المال مرات، ثم ضياعه، وأرباح غير متوقعة، وتعاطي البُنْش باستمرار، لم يبق مع أوسكار إلا مئة فرنك، وأحس بثقل في رأسه ودوار، فنهض وسار بضع خطوات ليتهالك في غرفة الجلوس على ديوان وقد أطبق النعاس جفونه وراح في نوم عميق.

قالت فاني بوبره لأخت غودشال التي وصلت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل: «مارييت، لو تجيئين غدا مساء للعشاء هنا، سيكون كاموزو والأب كاردو، وسنعمل على اغاظتهما؟

هتفت فلورنتين: كيف؟ لكن عجوزي الصيني لم يعلمني.

ردت فاني بوبره: من المتوقع أن يأت هذا الصباح لاعلامك بأنه سيأتي ليغني «أغنية الأم غوديشون» هذا أقل مايجب لاستهلال شقته، يالهذا الرجل المسكين!

- تابعت فلورنتين: فليأخذه الشيطان مع حفلات سكره، هو وصهره؛

إنّهما أسوأ من قاضيين، أو من مديري مسرح. بعد كل حساب، يمكن أن نتناول عشاءً جيداً هنا ثم التفتت الى المغنية الأولى في الأوبرا قائلة: مارييت، تعالي مع دوقك دي موفرنييوز فكاردو يوصي دائماً على العشاء لدى شيڤه، وسنضحك، سنرقصهم كسمندل الماء!»

عند سماع اسمي كاردو وكاموزو، بذل أوسكار جهداً ليقهر سلطان النوم، لكنه لم يتمكن إلا من تمتمة كلمة غير مفهومة سقط بعدها مجدّداً على وسادة الحرير.

قالت فاني بوبره لفلورنتين ضاحكة: هوذا، لديك ذخيرة لليلتك!

التفتت فلورنتين الى مارييت قائلة: أوه! ياللفتى المسكين، إنه سكران من البنش، ومن القنوط. هو الكاتب الثاني في المكتب الذي يعمل فيه أخوك، وقد خسر المال الذي أودعه إياه معلمه من أجل مهام تعود للمكتب، وأراد أن ينتحر، فأعرته ألف فرنك، لكنّ هذين الخبيثين فينو وجيرودو ربحاه منه، ياللفتى البريء!

قالت مارييت: لكن يجب إيقاظه، فأخي لايتهاون في الواجب، وكذلك معلمه.

قالت فلورنتين: أوه! أيقظيه إن استطعت وخذيه معك، ثم أسرعت الى الصالة لتودع الزوّار المغادرين.

بدىء بعد ذلك برقص فولكلوري تعبيري، استمر حتى الفجر، عندها أوت فلورنتين الى سريرها متعبة، وقد نسيت كلياً أوسكار، الذي لم يفكر به أحد وهو مستمر في نومه العميق.

نحو الساعة الحادية عشر صباحاً، استيقظ الكاتب على صوت رهيب عرف به صوت نسيبه كاردو، فظن أن بامكانه الخلاص من هذه الورطة بالتظاهر بالنوم، وغمر وجهه بوسائد المخمل الأصفر الجميلة التي قضى عليها ليلته.

قال العجوز المحترم: «في الواقع ياصغيرتي فلورنتين ليس من الحكمة ولا اللطف أن تقضي ليلة البارحة في حفلة سكر بعد أن رقصت في مشجاة «خرائب بابل»! أتريدين أن تضيعي نضارتك؟ دون الأخذ بالاعتبار أن من الجحود فعلاً أن تدشّني هذا المنزل الجميل مع غرباء دون علمي! . . . ومن يعلم ماذا حصل؟

- هتفت فلورنتين: أيّها الغول العجوز، أليس معك مفتاح للدخول في أي وقت وكل لحظة إلى هذا المنزل؟ وبلغت بك القساوة أن توقظني في الساعة الحادية عشر! . . لاحظ كاردو بتواضع: إنّها الحادية عشر والنصف، تيتين، وقد نهضت باكراً لأوصي لدى شيفه على عشاء يليق ببطريرك . . إنّهم أتلفوا سجاجيدك، أي بشر كانوا لديك البارحة اذاً؟ . .

ليس لك أن تشكو منهم، فغاني بوبره أخبرتني أنك ستأتي مساء هذا اليوم مع كاموزو، ولأدخل السرور الى نفسك، دعوت توليا، ودو برويل، وماريت والدوق دي موفرينيوز، وفلورين، وناتان. وهكذا سيكون بصحبتكما أجمل خمس مخلوقات رؤيت تحت أضواء مسرح! وسنرقصكما بخطوات أخف وأنعم من ريح غربية!

هتف الأب كاردو: إنّ ممارسة مثل هذه الحياة قتل للنفس! وكم من الأقداح المكسورة! ياللخسارة! إن مظهر الردهة يثير الارتعاش . . ».

في تلك اللحظة توقّف العجوز الظريف منذهلاً وشبه منبهر كعصفور فاجأته أفعى، اذ لاحظ المظهر الجانبي لجسم شاب يرتدي حلةً سوداء، قابعٍ في غرفة الجلوس.

قال أخيراً: «آه! ياآنسة كابيرول! . .

سألت: وماذا، بعد؟»

وحولّت الراقصة نظرها في الاتجاه الذي ينظر فيه الأب كاردو؛ وعندما

تعرّفت علي الكاتب الثاني انتابتها موجة ضحك عارمة لم تقتصر على زيادة ذهول العجوز لكنها أرغمت أوسكار على إظهار نفسه عندما أمسكت به فلورنتين من ذراعه وهي تتفجر بالضحك من جديد لرؤية سحنتي العجوز والشاب المنسحقي القلب في تواجههما وصراخ العجوز: أنت! أنت هنا ياابن أخي؟ . .

هتفت فلورنتين، وقد عاودتها موجة الضحك: «آه! هذا ابن أخيك؟ إنّك لم تذكر لي أبداً وجود ابن الأخ هذا». ثم التفتت الى أوسكار الجامد كالحجر وقالت: «إذن لم توقظك مارييت وتأخذك معها؟»

واستأنفت: «ياللفتى المسكين! ماذا سيحل به؟».

عقَّب العجوز كاردو بحنق: «فليحلّ به مايستحق ومشى نحو الباب ليخرج. نادته فلورنتين: لحظة، بابا كاردو، يجب أن تنقذ ابن أخيك من المأزق الذي وقع فيع بغلطة مني؛ اذا أنه قامر بخمسمئة فرنك تعود لمعلمه وخسرها هذا عدا ألف فرنك أعطيته إياها علّه يعوّض بها خسارته.

- أيّها التعس، خسرت ألف وخمسمئة فرنك في المقامرة؟ وأنت في هذا العمر! هتف أوسكار المسكين وقد أغرقته هذه الكلمات في لجّة الوضع الرهيب الذي هو فيه، وجثا على ركبتيه أمام نسيبه وضم يديه متضرّعاً: «أوه! يازوج عمتي! يازوج عمتي! لقد ضعت وتلّطخت بالعار. . . لن يرحمني دروش! فالأمر يتعلّق بموضوع هام يرتبط بكرامته. كان يجب أن أذهب هذا الصباح لاستخلاص حكم فاندنس ضد أخيه! ماذا حدث؟ وماذا سيحلّ بي؟ أنقذني اكراماً لذكرى أبي وعمتي! . . تعال معي الى مكتب السيد دروش، اشرح له ذلك، جد لي ذريعة! . . » قيلت هذه الكلمات عبر الدموع وشهقات النحيب التي تحنن تمثال أبي الهول وسائر أوابد صحراء أقصر مصر.

هتفت الراقصة وقد أبكاها الموقف: «وبعد، أيّها العجوز الشحيح، أتترك نسيبك يغرق في العار، وهو ابن الرجل الذي يعود اليه الفضل في تحقيق ثروتك، اذ أن اسمه أوسكار هوسون! أنقذه، وإلا ستتبرأ منك تيتين سيّداً لها!

سأل العجوز: ولكن كيف وُجد هنا؟

- إيه! لينسى الساعة التي يجب عليه أن يذهب فيها لأخذ صورة الحكم التي تحدث عنها، ألا تستنتج أنه كان ثملاً، وأنه سقط هنا من الإعياء والنعاس؟ . إن جورج وابن عمه فردريك قد أقاما وليمة لكتبة دروش في صخرة كانكال، البارحة».

- نظر الأب كاردو الى الراقصة متردداً، فصرخت: «كفى اذاً، أيّها القرد العجوز لو أن الأمر غير ذلك، أما كان بامكاني أن أضعه في مخبأ لايرى فيه؟!».

التفت كاردو الى نسيبه قائلاً: «خذ، هوذا خمسمئة فرنك، أيّها التافه!

هذا كلّ ماستحصل عليه مني؛ اذهب ورتب الأمر مع معلمك إن استطعت؛ وسأسّدد عنك الألف فرنك التي أعارتك إياها الآنسة، لكنني لاأريد أن أسمع عنك بعد الآن أيّ خبر».

هرب أوسكار كي لايستمع الى المزيد، لكنه ما أن أصبح في الشارع حتى حار الى أين يتوجّه.

إنّ المصادفة التي تضيّع الأشخاص، والمصادفة التي تنقذهم أبديتا جهوداً مع أوسكار وضده في تلك الصبيحة الرهيبة، لكن الحظ خانه أمام معلّم لايتراجع تجاه قضية تخرقُ تعليماته فيها. اذ بعودة مارييت الى منزلها، ذعرت لما يمكن أن يحصل لربيب أخيها، فكتبت لغودشال كلمة أرفقت بها ورقة نقدية ذات خمسمئة فرنك. منبئة أخاها بسُكر أوسكار وماأعقبه من مصائب، وأوت هذه الفتاة الطيبة الى سريرها بعد أن أوصت خادمتها بأن تأخذ هذه الرزمة الصغيرة الى مكتب دروش قبل السابعة صباحاً. كما أن غودشال عند نهوضه في الساعة السادسة صباحاً، وعندما لم يجد أوسكار، خمّن كل شيء، وأخذ خمسمئة فرنك من مدّخراته. وهرع الى رئيس قلم المحكمة طالباً قرار الحكم ليتمكن من تقديم نسخة عنه للتبليغ والتوقيع من دروش قبل الساعة الثامنة، أما دروش الذي ينهض دائماً

في الساعة الرابعة، فكان في مكتبه في الساعة السابعة، وعندما لم تجد خادمة ماريت أخا سيدتها في سقيفته، نزلت الى المكتب حيث استقبلها السيد دروش، وكان طبيعياً أن تسلّمه الرزمة، وعندما سألها المعلم: «أهي لأمر يتعلق بالمكتب»؟ أجابت: ألا ترى ياسيدي؟» وفتح دروش الرسالة وقرأها وعندما رأى الورقة النقدية فيها دخل الى حجرته الخاصة وقد تملكه الغضب على كاتبه الثاني، ومنها سمع غودشال يملي في الساعة السابعة والنصف على مساعده صورة تبليغ الحكم، وبعد لحظات دخل غودشال الطيب مزهواً الى حجرة معلمه فسأله «أهو أوسكار الذي ذهب هذا الصباح الى سيمون؟.

أجاب غودشال: نعم ياسيدي.

رد المحامي: من أعطاه اذاً المال اللازم؟

قال غودشال: أنت ياسيدي، وفي يوم السبت.

هتف دروش: اذاً فهي تمطر أوراقاً نقدية ذات الخمسمئة فرنك. انظر ياغودشال إنك فتى طيب، لكن هوسون الغرّ لايستحق مثل هذه الأريحية؛ إنني أكره الحمقى، وأكره أكثر من ذلك الأشخاص الذين يرتكبون الأخطاء رغم الرعاية الأبوية» وسلّم غودشال رسالة ماريت والورقة المالية التي أرسلتها وهو يقول: أرجو المعذرة لفضّ الرسالة، فقد ذكرت لي خادمة أختك، إنّها لأمر يتعلق بالمكتب.

اصرف أوسكار .

قال غودشال: يا للفتى التعس المسكين، إنني أرثي له. هذا السافل الكبير جورج مارست هو جنيّه الكريه، فيجب أن يهرب منه كهربه من الطاعون، لأنني لا أعرف ما سيحدث له إن التقى به مرة ثالثة.

سأل دروش: كيف ذلك؟».

قصّ غودشال باختصار مخادعة رحلة برسل.

قال المحامي : « آه ! لقد ذكر لي جوزف بريدو تلك المهزلة في حينها وإلى هذا اللقاء ندين بمراعاة الكونت دي سريزي من أجل السيد أخيه» .

في تلك اللحظة وصل مورو إلى المكتب ، إذ أن له مصلحة هامة في ميراث آل فاندنس ، فالمركيز يريد أخذ أملاك فاندنس مجزّأة ، وأخوه الكونت يعارض ذلك . وبوصوله تعرّض تاجر العقارات لأوّل نيران الشكاوي الحقّة ، والتكهنات المشؤومة التي أجَّجها دروش ضد كاتبه الثاني السابق ، مما أنتج لدى المحامي الأكثر حماساً لهذا الفتى المسكين ذلك الرأي بأن غرور أوسكار غير قابل للإصلاح .

قال دروش : اجعلوا منه محامياً مرافعاً ، وما عليه إلا أن يقدّم أطروحته ، وفي تلك المهنة ، قد تغدو عيوبه مزايا ، إذ أن حبّ الذات يحرّك ألسنة نصف المحامين المرافعين» .

سبق تلك الفترة أن ألمَّ المرض بكلابار ، وانشغلت زوجته بالعناية به ، وهي مهمة شاقّة ، وواجب لا يلقى أيّ عرفان بالجميل ؛ فقد كان هذا المستخدم يعذّب تلك المخلوقة المسكينة ، التي كانت حتى ذلك الحين تجهل الهموم طيلة اليوم ، وقد جعله الشقاء حانقاً مداجياً . كان يبهجه أن يدقّ إسفيناً فولاذياً في الركن الحسّاس من قلب تلك الأم ، وقد خمّن بطريقة ما تخوّفات المستقبل ، وسلوك أوسكار والعيوب التي يوحيها لتلك الأم المسكينة . والواقع أن أمّاً تتلقى من ولدها صدمة ، كتلك الناتجة عن حادثة برسل ، تكون في توترات دائمة ، وبالطريقة التي كانت تزدهي بها بأوسكار ، في كل مرّة يحقق نجاحاً ، أدرك كلابار مدى قلق الأم الخفي ، وكان يحاول إثارته في كل مناسبة .

كانت تقول في نفسها : أخيراً فإن أوسكار غدا أفضل مما كنت آمل ، ولم يكن ما جرى خلال رحلة برسل إلاّ تناقض شباب غير منطقي ، من هم الشباب الذين لا يرتكبون أخطاء؟ يا للفتى المسكين! إنه يتحمّل بشجاعة الحرمان الذي لم يكن ليعرفه

لو بقي والده البائس على قيد الحياة. ولقد أراد له الله أن يعرف التحكم بأهوائه!»
الخ...

والحال بينما كانت النكبات تتوالى في شارع ڤندوم وشارع بتيزي، كان كلابار جالساً قرب النار، ملتفاً بمبذل رديء، ينظر إلى امرأته المنشغلة أمام مدفأة غرفة النوم تحضّر في آن واحد الحساء ومنقوع ساخن لكلابار، ووجبة غداء لها.

قالت: «يا إلهي، أريد أن أعرف كيف انتهت ليلة البارحة؟ فأوسكار قد تغدى في صخرة كانكال، وذهب في المساء لقضاء السهرة لدى مركيزة...

ردّ كلابار: أوه! اطمئني، فعاجلاً أو آجلاً، سينكشف السرّ الخفي، هل تعتقدين بوجود هذه المركيزة؟ إن شاباً تنتابه الأهواء، ويستبد به الميل، بعد كل حساب، للإنفاق، كأوسكار، يحلم بالمركيزات أحلاماً تتطلب جيوباً عامرة بالذهب! وسيأتيك ذات صباحاً ليرتمي بين ذراعيك غارقاً في الديون...

هتفت السيدة كلابار: إنّك لاتعرف إلا أن تختلق مايقنطني، كنت تشكو من أن ابني يقضي على رواتبك. وهو لم يكلفك شيئاً في يوم ما. هو ذا سنتان تنقضيان، وليس لك أيّة ذريعة لتتكلم بسوء عن أوسكار، إنه الآن كاتب ثان؛ وزوج عمته، والسيد مورو يتكفلان بكل شيء، وقد غدا صاحب راتب ثمانمئة فرنك سنوياً؛ إن كنا نأمل بعيش لائق في آخر أيامنا فبفضل هذا الابن العزيز.

إن حكمك في الحقيقة جائر...

رد المريض بحدّة: تسمين توقعاتي جوراً.

في تلك اللحظة قرع جرس الباب بعنف، وهرعت السيّدة كلابار الى فتحه، وبقيت في الغرفة الأولى مع مورو، الذي جاء يلطف وقع عمل أوسكار الطائش الجديد على الأم المسكينة..

هتفت السيدة كلابار منتحبة: كيف؟، أخسر دراهم المكتب؟!

هتف كلابار الذي ظهر كالطيف على باب الصالة بعد أن جذبه الفضول إليه: هيه! أما قلت لك هذا؟!.

سألت السيّدة كلابار وقد جعلها الألم لا تحسّ بوخزة كلابار: ولكن ماذا سنفعل من أجله؟.

أجاب مورو: لو كان ابناً لي، لأرسلته بكل هدوء ليسحب القرعة، فإن أتى برقم رديء، فلن أدفع لإنسان أي مبلغ ليحلّ محله في الخدمة العسكرية، هذه هي المرة الثانية التي يرتكب ابنك حماقة فيها بسبب الغرور؛ وبعد، يمكن للغرور، على الأرجح أن يوحي إليه بأعمال مأثورة تُرغِّب به في ذلك المجال. كما أن ست سنوات من الخدمة العسكرية ستزيل طيشه وتمنحه الرزانة؛ وبما أن ليس عليه إلا تقديم أطروحته فإنه لن يكون تعيساً في أن يجد نفسه محامياً مرافعاً في السادسة والعشرين من العمر، إن أراد الاستمرار في مهنة المحاماة بعد أداء ضريبة الدم، وفق التعبير الشائع. هذه المرّة على الأقلّ سيكون العقاب قاسياً، وسيكتسب الخبرة، ويتعوّد على الإنضباط، فتدرّبه الحياة قبل تدريبه في قصر العدل.

قالت السيّدة كلابار: إن كان هذا قرارك بالنسبة لابن، فإنني أرى أن قلب الأب لا يشبه أبداً قلب الأم، أينتهي ابني أوسكار جندياً؟.

-أتفضلين أن تريه يلقي بنفسه في السين بعد ارتكاب عمل مشين؟ لم يعد بإمكانه أن يكون محامياً مرخصاً، أترينه أكثر رصانة ليكون محامياً مرافعاً؟ وبانتظار سنّ التعقّل ماذا سيحلّ به؟ إن نظام الجنديّة يقوّمه كعنصر أرعن ويحفظه لك...

-ألا يمكنه أن يذهب إلى مكتب آخر؟ فنسيبه كاردو سيدفع عنه بالتأكيد تعويض بديل يقوم بالخدمة العسكرية عنه، وهو بدوره سيهديه رسالته عرفاناً بجميله». في تلك اللحظة، سُمعت ضجّة عربة تحمل أثاث أوسكار، وتعلن عن وصول الشاب التعس الذي لم يتأخر عن الإقبال إليهم.

هتف كلابار: «آه! أهذا أنت يا روح أمك؟».

عانق أوسكار والدته، ومدّ يده إلى مورو، لكن هذا رفض مصافحته، فردّ أوسكار على هذا الازدراء بنظرة ملأها التأنيب جرأة لم تُعهد فيه سابقاً، والتفت الفتى وقد غدا رجلاً إلى زوج أمه وقال: «اسمع يا سيّد كلابار، إنّك تنكّد عيش أمّي المسكينة وتذيقها المرّ، وهذا حقّك، فهي لسوء حظّها زوجتك. أما أنا، فشيء آخر! سأبلغ سن الرشد خلال بضعة أشهر، والحال أن ليس لك أي حقّ عليّ حتّى وأنا ما أزال قاصراً، إذ لم يُطلَب منك أن تفعل شيئاً لي، وبفضل هذا السيّد الماثل أمامك، لم أكلّفك دانقاً، ولا يتوجب عليّ أي عرفان بالجميل نحوك؛ وهكذا دعني بسلام.».

عند سماع كلابار هذا التعنيف انسحب إلى كرسيه قرب النار، فمحاكمة الكاتب الثاني، والغضب المستعرّ في نفس شاب بلغ العشرين من العمر بعد أن تلقى درساً من صديقه غودشال، فرضا نهائياً الصمت على حماقة هذا المريض.

ثم التفت أوسكار إلى مورو وقال: إن تدريباً كنتَ ستنوءُ تحته لو كنت في مثل سني، جعلني أرتكب خطأً اعتبره دروش جسيماً وهو ليس إلاّ هفوة. إنني ألوم نفسي لأنني حسبت فلورنتين راقصة«الغيته» مركيزة وحسبت ممثلات سيدات نبيلات، أكثر من ندمي على خسارة ألف وخمسمئة فرنك، وسط حفلة فجور صغيرة، كان كل الناس فيها حتى غودشال في كروم الخالق، هذه المرة، على الأقلّ، لم أسبب الأذى إلا لنفسي، وها أنا قد أُدِّبت. فإن أردت مساعدتي، يا سيّد مورو، فإنني أعاهدك على أن تكون السنوات الست الواجب بقائي فيها كاتباً قبل استحقاقي فتح مكتب ستمرّ دون...

قاطع مورو: توقّف هنا، إن لدي ثلاثة أولاد، ولاأستطيع الالتزام بشيء...

قالت السيّدة كلابار لولدها وهي ترمي مورو بنظرة عتب: حسن، حسن، لدينا نسيبك كاردو.

ردّ أوسكار: لم يعد كاردو نسيباً لي» وقصّ على أمه ما حدث في شارع ڤندوم.

شعرت السيّدة كلابار أن ساقيها تخوران تحت ثقل جسمها فتهالكت على كرسي في قاعة الطعام كالمصعوقة وقالت: «جميع المصائب تأتي دفعة واحدة!...» وغابت عن الوعي.

حمل مورو الأم المسكينة بين ذراعيه ونقلها إلى السرير في غرفة النوم وبقي اوسكار ساكناً بدوره كالمصعوق.

قال له تاجر العقارات عند عودته: «ليس أمامك إلا الجنديّة، إذ يبدو لي أن هذا الأبله كلابار لن يعيش أكثر من ثلاثة أشهر، وليس لدى أمك أي دخل؛ ألا يجب عليّ أن أحتفظ لها بهذه الدراهم القليلة التي يمكنني أن أتخلى عنها؟ هوذا ما كان متعذراً عليّ قوله أمام أمّك. ستكسب عيشك كجندي، وتتهيّأ لك الفرصة للتفكير بالحياة كما هي بالنسبة للأولاد الذين لا ثروة لهم.

قال أوسكار: يمكنني أن أسحب رقماً يعفيني من الخدمة.

ردّ مورو: وبعد ذلك؟ إن والدتك قد قامت بواجباتها كأمٍّ نحوك: يسّرت لك التعليم، ووضعتك على الطريق القويم، وقد خرجت منه، ماذا ستحاول أن تعمل؟ لا يمكنك البدء بشيء دون مال. أنت تدرك هذا الآن؛ ولست الرجل الذي يخوض معترك الحياة بثوب خَلِق، وارتداء سترة حمّال أو عامل يدوي. كما أن أمك تحبّك حتى العبادة، فهل تريد أن تقتلها؟ إنّها ستموت إن رأتك تصلُ إلى هذا الدرك».

جلس أوسكار، ولم يستطع حبس دموعه، وتركها تسيل بغزارة، أدرك الآن هذه اللغة التي لم تكن مفهومة لديه عند غلطته الأولى.

قال مورو دون أن يقدّر مدى القسوة العميقة في عبارته: «على الأشخاص الذين لا مال لديهم أن يكونوا كاملين!.

أجاب أوسكار: لن يبقى قدري غامضاً مدة طويلة، سأتهيأ لسحب رقم القرعة بعد غد، وحتى ذلك الحين، سأصل إلى قرار حول مستقبلي.».

ترك مورو، الآسف رغم موقفه القاسي، عائلة شارع سريزه في قنوط. وبعد ثلاثة أيام وقع أوسكار في القرعة على الرقم سبعة وعشرين[1]، ولمصلحة هذا الفتى المسكين، تجرأ الوكيل السابق لبرسِل على الذهاب إلى السيد الكونت دي سريزي ليطلب منه توصية لإدخال أوسكار في سلاح الفرسان، والحال أن ابن وزير الدولة كان قد دخل في هذا السلاح بعد أن تخرج من معهد البوليتكنيك، وكان له حظوة تسميته ملازماً في فرقة الفرسان التي يقودها الدوق دي موفرينيوز. وهكذا حظي أوسكار في بؤسه على بارقة السعادة في أن تتم التوصية به من الكونت دي سريزي؛ ليدخل في ذلك الفوج المرغوب مع الوعد بأن يُرقّى إلى محاسب تجهيزات خلال سنة. ووضعت المصادفة الكاتب السابق تحت إمرة ابن السيد دي سريزي.

بعد أن أصاب الوهن السيّدة كلابار، لعدّة أيام، لشدّة تأثّرها من هذه المصائب، استسلمت لضنى نهشات تبكيت ضمير، تنتاب الأمّهات اللواتي شاب سلوكهن السابق بعض الطيش، فنزعن في كهولتهن إلى الندم. ونسبت ما تعانيه من شقاء في زواجها الثاني، والمصائب التي انتابت ابنها، إلى انتقام الله الذي يجعلها تكفّر عن أخطاء الشباب ومُتَعه. وسرعان ما أيقنت بهذه الفكرة. وذهبت الأم المسكينة، لأول مرة منذ أربعين عاماً، إلى الوكيل الاسقفي في كنيسة سان بول، الأب غودرون، تعترف فنصحها بممارسة العبادة والصلوات، وأمكن لهذه الروح التي تعاني مثل هذه المعاملة القاسية، وتكنّ مثل هذا الحب لولدها، بكل بساطة، أن تغدو ورعة وأرادت أسبازي[2] حكومة المديرين السابقة أن تكفّر عن خطاياها،

(١) رقم سيّء إذ أنّ الأرقام الصغرى هي التي يُساق أصحابها للخدمة في الجيش.

(٢) أسبازي: إحدى جميلات القرن الخامس ق. م كانت صديقة لبركلس.

لتحلّ نعَم الله على رأس ابنها المسكين أوسكار، فانصرفت إلى ممارسة أعمال الورع والتقوى الأكثر حرارة، وظنت أنها نعمت بعطف السماء بعد أن نجحت بإنقاذ السيد كلابار، الذي استعاد صحته بفضل عنايتها، ليعود إلى تعذيبها؛ لكنها رأت في طغيان تلك الروح المحدودة براهين تفرضها اليد السامية التي تداعب وهي تعاقب، وأوسكار يتصرَّف على أكمل وجه، بحيث غدا في العام ١٨٣٠ رقيباً أولاً في كتيبة الفيكونت دي سريزي، مما كان سيعطيه رتبة ملازم ثان في أفواج الصف، أما فوج الدوق دي موفرنييوز فهو ملحق بالحرس الملكي. وكان أوسكار هوسون آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر، وبما أن الحرس الملكي يعسكر دائماً في باريس، أو ضمن دائرة لا تتعدَّى أبعد نقطة فيها ثلاثين فرسخاً عن باريس، فإنه كان يأتي بين وقت وآخر لرؤية أمّه، ويُسِرُّ لها بآلامه، لأنه على درجة من الوعي تجعله يدرك بأنه لن يكون ضابطاً في يوم ما. في تلك الحقبة، كانت الرتب في سلاح الفرسان تؤول إلى ثاني الأولاد في العائلات النبيلة، والأشخاص الذين لا يبدأ اسمهم بالأداة «دي» لا يترقون إلا بصعوبة. لذلك كان كل طموح أوسكار يتلخّص في أن يترك الحرس الملكي، ويلتحق بأحد أفواج الصف لينال رتبة ملازم ثان. وفي شهر شباط ١٨٣٠، حصلت السيدة كلابار بواسطة الأب غودرون، الذي أصبح كاهن سان بول، على توصية من زوجة ولي العهد، وبذلك رقي أوسكار إلى ملازم[1]. بالرغم من أنّ أوسكار الطموح يبدو ظاهرياً مخلصاً بشدّة إلى البوربونيين، فإن الكاتب السابق، في صميم قلبه، كان مع الليبراليين، وهكذا فإنه خلال ثورة تموز ١٨٣٠ انضمّ إلى الشعب؛ وكان لهذه الردّة أهمية تعود إلى المناسبة التي تمّت فيها، مما وجّه الانتباه العام إلى أوسكار. وفي تعظيم الانتصار خلال شهر آب سمّي أوسكار ملازماً أولاً، ومنح وسام جوقة الشرف، وأُلحق

---

(١) تحوّل هام، فلو بقي أوسكار في الحرس الملكي الذي قاتل ضد «الثائرين» لما تمكن أن ينضمّ إلى الشعب كما ذكر فيما بعد، إذ أن فيالق «الصف» كانت أقرب إلى الليبراليين.

كمرافق للافاييت الذي منحه رتبة نقيب في العام ١٨٣٢، وعندما عُزل هاوي أحسن الجمهوريات [١] من قيادة الحرس الوطني للمملكة، سمي أوسكار هوسون الذي اعتُبِر إخلاصه نوعاً من التعصب للعائلة المالكة الجديدة [٢]، قائد سريّة أرسلت إلى أفريقية عند الحملة الأولى على الجزائر التي قادها الأمير الملكي [٣]؛ وكان الفيكونت دي سريزي عقيد ذلك الفوج. وخلال معركة «المقطع» [٤] حيث وجب التراجع أمام الانتصار العربي، بقي الفيكونت دي سريزي جريحاً تحت حصانه القتيل؛ وخاطب أوسكار عند ذاك سريته بقوله: «أيّها السادة، إنّها دعوة إلى الموت، لكن يجب ألا نتخلى عن عقيدنا...» وهجم على رأس كتيبته تتبعه سريته مندفعة بحماسة قائدها، وتمكن أن يصل إلى الفيكونت الجريح حيث أردفه على حصانه، وهرب به بأقصى سرعة من ميدان المعركة، ورغم أن هذه العملية الجريئة تمّت وسط فوضى رهيبة، فإنه تلقى ضربتي يطقان على ذراعه اليسرى. وكوفىء تصرّف أوسكار الرائع بمنحه صليب ضابط في جوقة الشرف وترفيعه إلى رتبة عقيد؛ وبذل عنايته الأكثر إخلاصاً للفيكونت دي سريزي الذي حضرت أمّه لأخذه، ثم توفي بعد ذلك من جراء جراّحه، كما هو معروف في طولون؛ ولم تفرّق الكونتة دي سريزي بين ابنها ومن خلصه من أيدي العرب، واعتنى به بعد

---

(١) تلميح إلى كلمة لافاييت الشهيرة التي ألقاها على الجماهير عندما سمي لويس فيليب قائداً عاماً لجيوش المملكة في ٢٩ تموز ١٨٣٠ وقال فيها من أعلى شرفة قصر البلدية في باريس: «ها هي أحسن الجمهوريات!».

(٢) هي عائلة بوربون -اورلئان التي لم يملك منها سوى لويس- فيليب بعد ثورة تموز ١٨٣٠ وحتى قيام الجمهورية الثانية في العام ١٨٤٨. ولويس فيليب هو ابن فيليب- المساواة الذي كان نائباً في الجمعية التأسيسية وصوت بالموافقة على إعدام الملك لويس السادس عشر نسيبه، لكن هذا لم ينجه من المقصلة في العام ١٧٩٣، لكن الليبراليين ناصروا فيما بعد ولده.

(٣) هو دوق أورليان وريث العرش. لكنه لم يرث ولم يملك.

(٤) «المقطع» منطقة مستنقعية تتألف من التقاء نهري السيغ والهبرة جنوب مدينة «وهران» في الجزائر، جرت فيها معركة بتاريخ ٢٨ حزيران ١٨٣٥ انتصر فيها الأمير عبد القادر على الجنرال تريزل، وكان لهذا الانتصار دوي كبير في حينه.

ذلك بكلّ إخلاص، وكان أوسكار قد جرح جرحاً بليغاً في ذراعه اليسرى، رأى على إثره الجراح الذي أحضرته الكونتة لابنها ضرورة قطعها. وغفر الكونت دي سريزي لأوسكار حماقته في رحلة برسل، بل واعتبر نفسه مديناً له عندما دُفِن ابنه، وهو وحيده، في المذبح المقام في قصر برسل.

بعد انقضاء مدة طويلة من الزمن على معركة «المقطع» أمكن للمارّة أ ن يروا عجوزاً ترتدي السواد وهي تتأبط ذراع رجل في الرابعة والثلاثين من العمر يبدو جلياً أنه ضابط متقاعد فقد ذراعه في الحرب وكسب وُريدة جوقة الشرف التي يزين بها عروة سترته. وكانا يقفان تحت البوابة الكبرى لفندق «الأسد الفضي» في شارع ضاحية سان دنيس، ينتظران دون شك انطلاق عربة السفر. من المؤكّد أنّ بييروتن، صاحب سفريات وادي الواز الذي كان يصل إليه ماراً بسان-لو-تافرني، وليل-آدم حتى بومون، صعب عليه أن يتعرّف في هذا الضابط ذي اللون البرونزي على الفتى أوسكار هوسون الذي أقلّه سابقاً إلى برسل، كما أن السيدة كلابار، وقد غدت أخيراً أرملة تتعذّر معرفتها كابنها. وكلابار، أحد ضحايا محاولة اغتيال الملك التي دبّرها فيّشي، خدم امرأته في مماته أكثر من خدمته لها في حياته، فبالطبع كان هذا العاطل عن العمل، المتسكع، واقفاً في جادة التامبل ليشاهدموكب الملك الاستعراضي عندما فجّرت تلك الآلة الجهنمية[1] فكان أحد ضحاياها؛ فكان نصيب أرملته المسكينة الورعة بموجب القانون الصادر بعدها بالتعويض على العائلات الضحايا، تقاعداً لمدى الحياة مقداره ألف وخمسمئة فرنك سنوياً.

كانت العربة التي تجرّها أربعة جياد رمادية مرقطة من مفاخر النقليات الملكية، وهي تتألف من قسم داخلي مستدير، وطابق أعلى، وهي تشبه تماماً

(١) في ٢٨ تموز ١٨٣٥، قام المتآمر الكورسيكي جيوزيب فيشي(١٧٩٠-١٨٣٦) بمحاولة اغتيال الملك لويس فيليب في استعراض مقام في جادة التامبل بتفجير آلة جهنمية، وبلزاك بتضمينه روايته وجود كلابار الشخص التافه بين الضحايا، أراد السخرية من ذلك العهد الملكي.

العربات المسماة جندولات التي تزاحم حالياً عربات السكة الحديديةعلى طريق ڤرساي؛ فهي قويّة وخفيفة في آن معاً، بدهان صقيل وترتيب أنيق، عدا عن أنها مبطنة بجوخ ناعم أزرق، ومزينة برسوم مغربية وبوسائد من جلد أحمر؛ وكانت سنونوة الواز[1] تتسع لتسعة عشر راكباً. أما بييروتن، فرغم أنه الآن في السادسة والخمسين من العمر، فإنّه لم يتغيّر كثيراً بمعطفه الذي يقي به بزّته السوداء، وغليونه المشتعل دوماً وهو يرقب ساعيين في بزّة رسميّة يرتّبان مختلف الرزم وحاجيات المسافرين في عربته.

سأل السيدة كلابار وأوسكار وهو يرمقهما بنظراته كرجل يحاول استعادة ذكرى معارفه السابقين: «هل لكما مقاعد محجوزة سابقاً».

أجاب أوسكار: نعم، مكانان في الداخل باسم بل-جامب[2] خادمي، وقد حجزهما البارحة مساءً.

قال بييروتن: آه! إن السيّد هو جابي بومون الجديد، إنّك تحل محل ابن أخ السيد مرغرون..

ردّ أوسكار: وهو يضغط على ذراع أمه التي أرادت الكلام: «نعم». إذ أن الضابط بدوره، هذه المرّة، أراد أن يبقى مجهولاً لبعض الوقت.

في تلك اللحظة، ارتعش أوسكار وهو يسمع صوت جورج مارست يصرخ من الشارع: «بييروتن، هل بقي لديك مقعد لراكب؟

أجاب بحدّة صاحب سفريات وادي الواز: يبدو لي أن بإمكانك أن تناديني سيّد بييروتن دون أن تخلع فكك.

لم يكن أوسكار ليستطيع التعرف على المخادع الذي كان شؤماً عليه مرتين، لولا نبرة صوته. فجورج غدا شبه أصلع، لم تبق إلا عدّة خصل من الشعر فوق

---

(١) السنونوة: هو اسم عربة إيونفيل في رواية السيّدة بوفاري(١٨٥٧) لغوستاف فلوبير.

(٢) جندي سابق ممن خدموا تحت إمرته في الجزائر، على الأرجح

أذنيه شعثّها بعناية ليخفي ما أمكن من عري قحف رأسه، وسمنة سيئة الوضع على بطن كمثري الشكل، مما يفسد النسب المنسجمة الأنيقة للشاب الوسيم السابق؛ فغدا مقززاً تقريباً في شكله وتصرفه. فجورج يعلن عن نكبات الحب[١] وحياة الفجور المستمر بلون غُدَّة وردية، وبقسمات متضخمة شبه خمرية؛ وقد فقدت عيناه هذا البريق، وتلك الحيوية المتميزين لنضارة الشباب، التي تمتلك العاداتُ الحكيمة المجدّة القدرة على المحافظة عليها؛ كان جورج في هندام الرجل المهمل لمظهره، فهو يرتدي بنطالاً مدعوكاً تضم أسفل ساقيه رانة من طراز يتطلب جزمة برّاقة، بينما كانت جزمته ذات النعل الثخين وسخة، ينوف قدمها عن تسعة أشهر منتعلة في باريس مما يعادل ثلاث سنوات في مكان آخر، وصداراً حائل اللون، ورباط عنق عقُدَ بتباه بالرغم من أنه منديل قديم؛ كل هذا يشير إلى فاقة خفيّة يعاني منها متأنّق سابق، أخيراً بدا جورج في تلك الساعة المبكّرة في سترة بدلاً من أن يكون في معطف، مما يشكّل دليلاً على بؤس حقيقي! هذه السترة، التي شهدت أكثر من حفلة رقص، مرت كصاحبها من الرخاء الذي كانت تمثّله سابقاً إلى عمل يومي، فدروز الجوخ السوداء ابيضّت خيوطها، والياقة مزيّتة، والإهتراء حَوَّلَ طرفي الكمين إلى شرشرة كأسنان الذئب. وتجرأ جورج مع ذلك أن يثير الانتباه بقفّازين أصفرين[٢] متسخين في الواقع، على أحدهما يرتسم بالسواد خاتم يحمل اسم صاحبه. وحول رباط العنق، المارّ من حلقة مذّهبة متكلّفه، تنفتل سلسلة من حرير بصورة شَعَرْ تنتهي على الأرجح بساعة، بينما تكشف قبعته رغم بعض تفاخر في وضعها، أكثر من جميع هذه الأعراض، عن بؤس رجل لا تسمح حالته والإكتفاء بما يتيسّر لديه بأن يستغني عن ستة عشر فرنكاً لصانع قبعات. كان الخلّ الاثير السابق لفلورنتين يهزّ بيده عصا ذات قبضة مفضضة محفورة، لكنّها معوّجة

(١) يبدو أن بلزاك يلمّح إلى أن جورج قد أصيب بأمراض زهريّة.

(١) عنصر آخر من تدهور الحالة، فالقفاز الأصفر يميز المتأنّقين المغرورين.

بشكل مربع، وبنطاله الأزرق، وصداره من النسيج الاسكوتلندي، وربطة عنقه من الحرير الأزرق السماوي، وقميصه من الكاليكوت القطني المضلّع بخطوط وردية تعبّر وسط هذا الدمار عن رغبة في الظهور؛ بحيث أن هذه المفارقات لا تشكل فقط منظراً يلفت الانتباه وإنّما هي درس وعبرة أيضاً.

قال أوسكار في نفسه: «هذا هو جورج، وما انتهى إليه؟ الرجل الذي تركته بدخل ثلاثين ألف فرنك سنوياً!.

رد جورج ساخراً: سيّد دي بييروتن هل بقي لديك مكان في قسم العربة المقفل؟.

-كلا، فهذا القسم محجوز لعين من أعيان فرنسة، صهر السيد مورو، السيد البارون دى كاناليس[1] وزوجته وحماته، ولم يبق لدي إلا مكان في الداخل.

أجاب جورج وقد تذكّر حادثة السيد دي سريزي: يا للشيطان! يبدو أن أعيان فرنسة يسافرون تحت ظل جميع الحكومات في عربات بييروتن. سآخذ المحل الداخلي». وألقى على أوسكار وعلى الأرملة نظرة فاحصة لكنه لم يعرف الابن ولا الأم. فأوسكار صبغته شمس أفريقية بلون برونزي، وبدا شارباه بشكل كثّ، وعارضاه رحبين كثيفين، ووجهه متغضّن بقسمات بارزة تتناسق مع شكله العسكري، ووريدة وسام الضابط، والذراع المقطوعة، وقسوة البزّة؛ كل ذلك ضلّل ذكريات جورج، إن بقيت لديه ذكرى ما عن ضحيته السابقة. أما السيّدة كلابار التي لم يرها جورج إلا للمحة سابقاً، فإن عشر سنوات انقضت عليها في حياة الورع الأكثر التزاماً حولّتها كلياً، بحيث أنّ ما من أحد يتصوّر أن هذا النموذج المشابه لراهبة رمادية يخفي إحدى فاتنات العام ١٧٩٧.

---

(١) هكذا فإن كاناليس الشاعر العاطفي المزيّف، الرومنسي، المدافع عن العرش والكهنوت ينتهي إلى التحالف مع البورجوازية، ويتزوج ابنة مورو الغني بعد أن فاتته دوطة مودست مينيون (انظر رواية مودست مينيون).

ووصل عجوز ضخم، بثياب بسيطة إنّما بطريقة موسرة، عرف فيه أوسكار الأب ليجه، وكان يمشي ببطء وتثاقل؛ وحيّا بألفة بييروتن الذي بدا بمظهر الاحترام الواجب في كل مكان، لأصحاب الملايين.

هتف جورج: « هيه! إنّه الأب ليجه! الذي يبدو عليه أكثر فأكثر مظهر المتفوّق.

سأل الأب ليجه بلهجة جافة: « من لي الشرف بالتكلم معه؟ .

-كيف؟ ألا تتذكّر العميد جورج، صديق علي باشا؟ سبق أن سلكنا معاً هذا الطريق، يوماً، مع الكونت دي سريزي المسافر آنئذ متخفياً».

إحدى الحماقات الأكثر شيوعاً لدى الأشخاص الهابطين هي رغبتهم في التعرف على الأشخاص، واستغرابهم عدم تعرف الناس عليهم.

أجاب تاجر العقارات العجوز، وقد غدا مليونيراً مضاعفاً: « تغيّرت كثيراً.

قال جورج: كل شيء يتغيّر، انظر إن كان نُزُل الأسد الفضي، أو عربة بييروتن يشبهان ما كانا عليه منذ أربعة عشر عاماً.

-أجاب السيد ليجه: إن بييروتن الآن يملك لوحده مكتب نقليات وادي الواز، ويسيَّر عليه عربات جميلة، إنّه أحد بورجوازيي بومون وهو يدير فندقاً تنطلق من أمامه العربات، وله ابنة وزوجة ليستا من الحمقى.

ونزل من الفندق عجوز في نحو السبعين من العمر وانضم إلى المسافرين الذين ينتظرون لحظة صعودهم إلى العربة.

قال ليجه: «هيا إذا، بابا ريبر، لم نعد ننتظر إلا رجلك الكبير.

قال وكيل الكونت دي سريزي وهو يشير إلى جوزيف بريدو: هاهو».

لم يتمكن جورج ولا أوسكار أن يتعرّفا على الرسّام الشهير، إذ أنه بدا بذلك الوجه المتعب الشهير[1]، وعبّر في تصرفه عن الثقة بالنفس التي يمنحها

(١) هنا أيضاً يفكر بلزاك بدلاكروا.

النجاح . كان معطفه الأسود مزداناً بشريطة جوقة الشرف، ويدلّ هندامه المتقن على أنه مدعو إلى أحد الاحتفالات الريفية .

في تلك اللحظة، خرج من مكتب بني في المطبخ القديم للفندق كاتب يمسك بيده ورقة، ووقف أمام العربة الفارغة ونادى : السيد والسيدة دى كاناليس : ثلاثة أمكنة .

ثم توجّه إلى الداخل وصاح : السيد بل- جامب : مكانان . - السيد دي ريبر، ثلاثة أمكنة . والتفت إلى جورج قائلاً : ما اسمك أيّها السيد؟ .

أجاب الرجل بصوت منخفض خائر القوى : جورج مارست .

ذهب الكاتب نحو البناء المقبب حيث تجمّع أمامه بعض أبناء الريف، والمرضعات، وأصحاب الحوانيت الذين جاؤوا مودّعين، وبعد أن أجلس المسافرين الستة في أمكنتهم نادى على أربعة من الشباب بأسمائهم فصعدوا على مقاعد الطابق الأعلى، وقال معطياً الأمر بالانطلاق : «تحرّكوا ... » وجلس بييروتن إلى جانب سائقه، الشاب ذي السترة المميزة الذي صرخ بدوره لجياده : «اجرِ» .

انطلقت العربة تجرها الخيول الأربعة المشتراة من روا فصعدت خبباً سفح ضاحية سان دنيس، ولكن ما أن اجتازت سان-لوران حتى جرت كعربة البريد حتى سان دنيس في أربعين دقيقة، ولم تتوقف أمام نزل التلموز، وأخذت عن يسار سان دنيس طريق وادي مونمورنسي .

عند ذلك الانعطاف قطع جورج الصمت الذي لزمه المسافرون، وبعضهم يلاحظ بعضهم الآخر؛ فقال وهو يخرج ساعته الفضية : إن السير الآن أسرع مما كان عليه منذ خمسة عشر عاماً، أليس كذلك؟ أيّها الأب ليجه .

أجاب المليونير : هل تتكرّم بمناداتي السيد ليجه؟! .

هتف جوزيف بريدو : ولكن هذا هو مهذار رحلتنا الأولى إلى برسل، وبعد هل قدت معارك جديدة في آسية وأفريقية، وأمريكة؟ .

رد جورج : عجباً! لقد صنعت ثورة تموز ، وهذا يكفي ، لأنها دمّرتني ...

قال الرسّام : آه ! صنعت ثورة تموز ، لا يدهشني هذا ، لأنني ما أردت أبداً أن أصدق ما قيل لي من أنها قامت من جرآء ذاتها .

قال السيد ليجه وهو ينظر إلى السيد ريبر : يالصُدَف التلاقي! انظر بابا ريبر ، هوّذا كاتب الموثّق الذي يعود إليه الفضل ، دون شك ، لاستلامك إدارة أملاك بيت سريزي ...

قال جوزيف بريدو : ينقصنا ميستيغري الشهير الآن باسم ليون دي لورا ، وذلك الفتى الذي بلغ به الحمق أن يحدث الكونت عن مرضه الجلدي الذي انتهى إلى الشفاء منه .

قال ريبر : وينقصنا أيضاً السيد الكونت .

قال جوزيف بريدو بأسى : أوه! أعتقد أن آخر رحلة يقوم بها ستكون من برسل إلى ليل-آدم ليشهد احتفال زواجي .

أجاب ريبر العجوز : إنّه ما يزال يتنزه مستقلاً عربته في رياض قصره .

سأل ليجه : ألا تتردّد عليه امرأته؟ .

قال ريبر : مرة في الشهر ، إنّها تؤثر دائماً باريس ، وقد زوّجت في شهر أيلول الماضي نسيبتها ، الآنسة دي روفر ، التي تكنّ لها كل مودتها ، إلى شاب بولوني غني جداً هو الكونت لاجنسكي[1] .

سألت السيدة كلابار : ولمن ستعود أملاك السيد دي سريزي؟ .

أجاب جورج : إلى زوجته التي ستدفنه . فالكونتة ما تزال في أحسن حال بالنسبة لامرأة في الرابعة والخمسين من العمر ، فهي دائماً أنيقة ، وتوهِم على البعد ... قال ليجه عندئذ ، وقد بدا عليه أنه يريد أن ينتقم من هذا المهذار : ستوهمك زمناً طويلاً .

---

(١) انظر قصة الخليلة المزعومة .

ردّ جورج: إنني أحترمها، لكن بالمناسبة، ماذا حلّ بالوكيل الذي صرف في ذلك الوقت؟.

ردّ ليجه: مورو؟ إنّه الآن نائب الواز.

قال جورج: آه! إنّه المركزي الشهير! مورو دي الواز.

تابع ليجه: نعم، السيّد مورو دي الواز؛ اشتغل أكثر مما اشتغلت في ثورة تموز، وتم له شراء أرض بوانتل الرائعة بين برسل وبومون.

قال جورج: أوه! إلى جانب تلك التي كان يديرها لدى معلمه القديم، لاتعبّر إلا عن ذوق سيّء.

قال السيد دي ريير: لا تتكلم بصوت عال، لأن السيّدة مورو وابنتها البارونة دى كاناليس، وكذلك صهرها الوزير السابق هم في مقصورة العربة.

-أيّة دوطة أعطى إذا لابنته ليزوّجها لخطيبنا الكبير؟.

قال الأب ليجه: شيء ما يقرب من مليونين

قال جورج بصوت منخفض وهو يبتسم: إنّه شره للملايين، إذ بدأ بجمعها وهو في برسل.

هتف أوسكار بحدة عند ذاك: لا تتفوّه بكلمة أخرى تسيء للسيد مورو، يبدو لي أنك قد لقنت درساً للصمت في العربات العامة».

نظر جوزيف بريدو إلى الضابط المقطوع اليد لشوان ثم هتف: «ليس السيّد سفيراً، لكن وُريدة وسامه تشير إلى أنه شقّ طريقه بنبل، كما أن أخي[1] والجنرال جيرودو نوّها به في تقاريرهما.

هتف جورج: أوسكار هوسون! الواقع لولا صوتك لما أمكنني التعرف عليك.

---

(١) فيليب بريدو كوّن لنفسه اسماً ومكانة في الجزائر.

سأل ريبر: آه! إن السيّد هو الذي انتزع بجرأة الفيكونت جول دي سريزي من ميدان المعركة مع العرب، وأمّن له السيد الكونت استلام جباية بومون، بانتظار ضمان تحصيل الضرائب في بونتواز؟.

رد أوسكار: نعم يا سيدي.

قال الرسّام الكبير: وبعد، يا سيدي، يسرُّني أن تشرفني بحضور حفل زواجي في ليسل- آدم.

سأل أوسكار: ومن ستتزوّج؟.

أجاب الرسّام: الآنسة ليجه، حفيدة السيّد دى ريبر، إنّه زواج رغب السيد الكونت دى سريزي أن يهيئه لي، وأنا كفنان أدين له بفضل كبير، وقد أراد قبل أن يموت أن يهتم بمستقبل حياتي الذي لم أكن أفكّر به كثيراً.

قال جورج: الأب ليجه تزوّج إذاً...

أجاب السيد دي ريبر: ابنتي ودون دوطة.

-وهل له أولاد؟.

ردّ الأب ليجه: ابنة، وهذا كاف لرجل عاش في السابق أرملاً و دون أولاد، وسيكون لي الآن، كشريكي مورو، صهر ذو شهرة.

سأل جورج وقد اتخذ مظهراً يتجلى فيه الاحترام تقريباً للأب ليجه: أما زلت تسكن في ليل آدم؟.

- نعم، اشتريت كاسان[1].

قال جورج: الواقع إنني سعيد لأنني أجريت جولتي هذا اليوم في وادي الواز، ويمكنكم أن تقدموا لي خدمة أيها السادة.

---

(١) لفتة تستحق الإعجاب في إطار عالم بلزاك، فالمنتزه الشاعري الذي تطرّق إليه في وان كلور وفيزيولوجية الزواج، والذي أحبّ بلزاك حباً كبيراً التنزّه فيه غدا ملكاً للبورجوازيين، ومثله كنز بونس بعد ذلك بخمس سنوات.

قال السيد ليجه: في أي مجال؟.

قال جورج: آه! إنني أعمل في «الإسبرانس» وهي شركة تشكلّت حديثاً وسيصدّق نظامها وتُشهر بأمر ملكي. وهذه المؤسسة ستعطي خلال عشر سنوات مهوراً للشابات، وتقاعداً لمدى العمر للعجائز، وتسدّد نفقات تعليم الأولاد، أخيراً إنّها تتكفّل بكل ما يحقق الحظ الطيب لكل الناس ...

قال الأب ليجه مبتسماً: إنني أصدق ذلك، بكلمة مختصرة، إنك سمسار تأمينات.

-كلا يا سيدي، إنني المفتش العام، وأنا مكلّف باختيار المراسلين والوكلاء للشركة في كلّ فرنسة، وأنا أدير العمل بانتظار اختيار الوكلاء، إذ أن هذا الأمر حسّاس بقدر صعوبة إيجاد وكلاء شرفاء...

قال أوسكار لجورج: ولكن كيف إذاً أضعت ما يدرُّ عليك دخل ثلاثين ألف فرنك؟.

أجاب الكاتب السابق للموثّق بجفاءٍ الكاتب السابق للمحامي المرخّص: كما أضعت ذراعك!.

ردّ أوسكار بسخرية ممزوجة بحدّة: إذا فقد قمت بعمل مأثور ضحيت فيه بثروتك؟.

-عجباً! إنّني للأسف قمت بكثيرٍ، كثير جداً... من المآثر، بحيث أعرض بعضاً منها الآن للبيع ...».

كانت العربة قد وصلت إلى سان لور تافرني ونزل جميع الركاب للاستراحة ريثما يتمّ تبديل أحصنة العربة.

نظر أوسكار بإعجاب إلى الحيوية التي يبديها بيبروتن، وهو يفصل سيور الجرّ من النواظم، بينما كان سائقه يفكّ مقاود الخيول عن عارضة العريش.

فكّر في نفسه: «هذا المسكين بييروتن بقي مثلي، لم يتقدّم كثيراً في الحياة؛ أما جورج فقد حلّ به الشقاء، بينما جميع الآخرين حققوا ثروات بفضل المضاربة، أو الموهبة.

ثم قال بصوت عال وهو يلامس كتف صاحب العربة: لنتغد هنا سوية يا بييروتن!.

رد بييروتن" لكنني لست السائق.

سأل العقيد هوسون: لكن من أنت إذاً؟.

أجاب بييروتن: إنني المالك.

قال أوسكار وهو يشير إلى أمّه ودون أن يتخلى عن مظهر الحامي: هيّا، لا تَغْتَظ من أصحاب قدماء، ألا تتذكّر السيّدة كلابار؟.

كان من الممتع لأوسكار أن يقدّم أمه لتبادل التحية مع بييروتن، عندما بدت في تلك اللحظة السيدة مورو دي لواز وهي تنزل من المقصورة وتنظر بازدراء لأوسكار ولأمه عند سماع هذا الاسم.

قال بييروتن: يقينا! ياسيدتي، لم أكن لأستطيع التعرّف عليك ولا عليك ياسيدي؛ إذ يبدو أن الحرارة قاسية في أفريقية؟ ...».

كان هذا النوع من الشفقة الذي أبداه أوسكار نحو بييروتن آخر خطأ يسببه الغرور لبطل هذا المشهد وقد عوقب عليه، إنّما بطريقة سارّة وإليكم كيف تمّ ذلك:

بعد شهرين من استقرار أوسكار في بومون-سور-واز، راح يتودّد إلى الآنسة جورجيت بييروتن ذات دوطة المئة وخمسين ألف فرنك، وتزوّج ابنة مالك سفريات الواز في نهاية شتاء العام ١٨٣٨.

منحت مغامرة رحلة برسل مزيّة الكتمان لأوسكار، ووطّدت أمسية فلورنتين استقامته، ومنحته قسوة الحياة العسكرية الخبرة بالتسلسل الاجتماعي وعلمته

الإذعان المقدر، فغدا عاقلاً وقادراً وهذا ما جعله سعيداً. وقد حصل له الكونت دي سريزي قبل موته على مكتب تحصيل الضرائب في بونتواز. وأمّنت له حماية السيد مورو دي لواز، والكونتة دي سريزي، والسيد البارون دي كاناليس، الذي سيعود، عاجلاً أو آجلاً، وزيراً[1]، تحصيلاً عاماً مربحاً بحيث اعترفت به عائلة كاموزو الآن نسيباً لهم.

إن أوسكار رجل عادي، لطيف، متواضع، وبسيط، وهو يتخذ دائماً كحكومته موقفاً وسطاً[2] تماماً لا يثير الحسد ولا الازدراء. إنه أخيراً البورجوازي الحديث.

تمت رواية «بداية في الحياة» باريس–شباط ١٨٤٢.

---

(١) تحققت هذه النبوءة في قصة «ممثلين غافلين».

(٢) كلمة جوهرية بعد العام ١٨٣٠ أطلقها الملك لويس فيليب نفسه عندما أجاب في ٢٩ كانون الثاني وفداً من مدينة غاياك «أما فيما يتعلّق بالسياسة الداخلية فنحن نسعى لنكون في الوسط تماماً».

رحلة في الكوكو

قصة للسيدة لور سورفيل

أخت بلزاك

هذا هو النص الكامل لقصة أخت بلزاك (رحلة في الكوكو) كما ظهرت عام ١٨٥٤ في مجلة (رفيق المنزل). وهي تبين إلى أية درجة كان بلزاك في القسم الأول من روايته قريباً من قصة أخته، ليس من حيث اختيار الشخصيات فحسب، وإنما أيضاً في تتابع الأحداث وأحياناً في تفصيلات التعبير كما يبدو من الملاحظات في هوامش قصة بلزاك.

من المفيد المقارنة بين النصين بحيث يتبين القارىء الفروق بينهما، لقد كتبت السيدة لور سورفيل في مقدمة قصتها: «إنه لشرف عظيم أن يتناول روائي فذ قصتي ويحولّها بحيث تغدو رواية من مقياس روايات بلزاك».

الرحلة في الكوكو

I - الكوكو

لور سورفيل

في صبيحة يوم جميل من شهر أيلول ١٨٢٥ ، وصل تييّري عرباتي قرية كلاي الواقعة على بعد ستة فراسخ من باريس، في نحو الساعة الحادية عشر، إلى فناء نُزُل سان- مارتن- الصغير، يقود عربة ذات ستة مقاعد يجرها حصانان أبيضان بحجمين غير متساويين. وكانت هذه العربة تجتاز كيفما اتفق جميع العثرات والصعاب في الطريق، وضجيج قرقعة الحديد فيها يسمع بشكل فريد، فيتميّز حتى وسط ضجّات باريس المختلفة، وبفضل هذه الخاصة كان يتُكّهن في النُزُل عن وصول تييري، كما يتكّهن الفلكي عن مرور مذنب قبل ظهوره ببعض الوقت.

كان تييري يدفع أتاوة لصاحب النزل لإيواء عربته وحصانيه في الفناء خلال الساعات الأربع التي يقضيها كلّ يوم في باريس، ولقاء الخدمات المكتبية في تسجيل أسماء المسافرين وحجز الأمكنة.

وتييّري هذا الشاب بدين أحمر الوجه بشوش المحيا لا تنقصه النباهة ولا الفلسفة. كان يقول للمسافر المذعور من مظهر عربته: «إنّها ليست سيّئة عندما تكون ممتلئة بالركاب والأحمال، ولو أنها أقلّ عتقاً، وأقلّ ثقلاً، لما أبدلتها بغيرها أبداً، لكنها تتعب الخيل، وتدبّ فيهم الهزال في وقت قليل جداً».

وبضع دورات من الدولاب توضح بسرعة للمسافر الجودة المزعومة للعربة، لكن تييري المحترس دائماً، مايزال هنا لتشجيعه:

«لو أنّها بكامل حمولتها لما شعرت بأيّة رجّة، ومع ذلك فإنّك ستصل» ما أهمية قطع سبعة فراسخ في أربع ساعات؟ إذ في تلك الفترة كانت تلزم أربع ساعات لقطع سبعة فراسخ.

وكان تييري يغيّر في وسائله وتعويضاته بحيث يؤمّن ما بين الإقبال والإعسار معيشته وعلَف حصانيه.

وفي هذا اليوم من أيلول، بعد أن أنزل حوائج آخر المسافرين، دخل إلى المكتب ليستفهم عن حظّه من الركاب هذا المساء، وخرج فجأة وهو يصرخ للورو، فتى الإسطبل الذي كان يحلّ الحصانين: «انظر أي سوء حظ يلازمني! إن الكونت موريس حجز مكاناً لهذا اليوم، لو يسافر غداً لدشّن عربتي الكبرى...

رد لورو بهيئة سخرية تدفع إلى التفكير بأن مدة طويلة قد انقضت على عرض هذه العربة الكبرى على مخيلة المسافرين. إذن سيكون ذلك غداً؟

- نعم غداً يلزمنا خمسة عشر مسافراً بدلاً من تسعة، يا بني.

- عقب لورو: ياه! إنّ عربة بأربع عجلات ستثير إعجاب المسافرين. أيكون الكونت موريس إذاً بورجوازي كلاي الكبير؟.

- أتعتبر الكونت بورجوازياً؟ أيّها الأحمق! تريد أن تكون سائقاً، ولا تعرف من اللباقة غير هذا؟ يجب تمييز الناس فهذا ما يؤمن لك البخشيش.

- لكن دون الاستخفاف بك يا سيد تييري، لماذا يريد هذا الكونت السفر في عربتك؟

أجاب تييري وهو يجد عذراً للكونت لعدم السفر في عربته الخاصة: «لعله يريد مفاجأة وكيله، أرجعت البارحة المزارع، وهو في طريقه إلى تجديد الإيجار، ويبدو أن ذلك يحتاج إلى رشوة معتبرة للسيد رينو. من المؤكد أن هذا سيتم على حساب الكونت! كم هو متعجرف هذا الوكيل رينو على الأشخاص المساكين، وهو

لا شيء اطلاقاً! إذ ما شأنه لو لا معلمه؟ لكن بعد كل حساب، لاعلاقة لي بهذا الأمر».

بعد أربع ساعات من هذه المداولة، كان تييري ولورو يقرنان الحصانين بالعربة، ويرتّبان الحوائج في مؤخرتها، وهي تهتزّ باختلاج عند أيّ ثقل.

«هل الحمولة كاملة اليوم؟».

- «آه! تقريباً، ليسوا إلا خمسة بمن فيهم الكونت، والراكب إلى جانب الحوذي».

وعند هذه اللاحظة، ذهب تييري يدخن غليونه بكآبة على باب النزُل، سواء ليرقب ركابه أو ليتصيّد غيرهم.

ما كاد يجلس على الحافة حتى اقتربت منه سيّدة يتبعها فتى يافع يحمل حقيبة صغيرة. كانت المرأة ترتدي ثوباً من الحرير الأسود، وشالاً من المرعز شديد النعومة، وقبعة من الحرير بلون زبيب كورنتة؛ وتحمل مظلّة زرقاء وسلة من القشّ. وتحدثت مطولاً مع تييري: كانت توصيه دون شك بالمسافر الصغير، وهي تشرح له المكان الذي يجب أن ينزله فيه. وكان تييّري يهزّ رأسه مراراً إشارة للإمتثال، وبشكل يبدو فيه بديهياً للسيدة بأنه فهم ما تريد ولا حاجة لمزيد من الشرح؛ وتقدّمت عند ذاك في فناء النزُل نحو العربة، وتعرفت على رقم المقعد الذي حجزته، وجعلت الفتى يضع حقيبته تحته، وبدأت سلسلة من التوصيات من محاذيرها أنها تطرح أمام الغرباء قضايا تتعلّق بالأم وابنها، وكان لورو يبتسم بين وقت وآخر وهو يستمع إليهما، ويرى ارتباك الفتى الكبير، وهو يجد نفسه مستخزياًسواء من ابتسامات لورو، أو من كلمات أمه.

«لا تتناول شيئاً في الطريق يا جوزيف، ليس لديك إلا الدراهم الضرورية لعودتك، ولخادمة السيد رينو. تصرف بلباقة لدى عرّابك، لا تأكل كثيراً، انتبه إلى

أمتعتك العتيقة، إذ لا يمكنني أن أوفر لك الثياب دائماً، وتجنب الثرثرة خاصة، ولا تبقى أكثر من خمسة عشر يوماً.

- ولكن إن ألحُّوا علي بالبقاء، يا أمي؟

- «عُد مع ذلك، يجب عدم إرهاق حُماتنا».

ارتعش الفتى، الذي كانت ابتسامة لورو تزعجه، عندما رأى شابين وسيمين مقبلين، لكنهما لحسن الحظ توقفا يتحادثان مع تييري.

فكر في نفسه: «إن استمعا إلى أقوال أمي سأتضايق جداً إذ أن سخرياتهما ستلاحقني حتى فيلباريسيس».

لجأ عند ذاك إلى وسيلة بطولية لترحيل أمه بمهارة لا تشير اليها هيئته الخرقاء ولا سحنة وجهه البليدة قال: «إنك هنا في مجرى تيارات هوائية، يا ماما، وستعاودك النزلة الصدرية إن بقيت طويلاً. هوذا ساعة الانطلاق، سأودعك وأصعد إلى العربة». وقبّل أمه وصعد ليستقر في مكانه.

تقدّم الوافدان الجديدان في الفناء بهيئة منشرحة، ودفع كل منهما مرفق الآخر عند رؤية والدة جوزيف، وبدت نظراتهما كأنها تقول: «ألا ترى هذا القوام؟ ...»

فكّر جوزيف في نفسه: «ماذا كان سيحدث لو سمعاها!» وتابع خطوات أمه بقلق، وهو يخشى عودتها لإسداء نصائح أخرى نسيتها، وتنهد بارتياح عندما رآها تتجاوز الباب وتختفي.

قال أحد الشابين وهو يشير إلى الكوكو: أفي هذا الطُنُبر ستُشَحن يا ألفريد؟.

قال ألفريد وهو ينظر إلى جوزيف: إنه طنبر رائع سأُقلّب داخلة كبقول السلطة، خاصة وأن أداة التحريك متوفرة.

ردّ الآخر: إنه من الصغر بحيث لم ألاحظ وجوده.

- باه! إنني لا أكره رفقة الأولاد في السفر، إذ أنهم يفسحون لك المكان.

كان جوزيف منشغلاً بمظهره وبمظهر رفيق طريقه المقبل، فلم يسمع أو لم يرد سماع هذه الدعابات السمجة. وكان قد انطلق مغتبطاً من شارع نونا نديير حيث يقيم حتى شارع مارتن دون أن يصادف ما يزعج. لكن مقارنة واحدة مع أشخاص على الطراز الحديث جعلته يدرك كم يبدو لهم مثيراً للسخرية. تذكّر وجهه الأحمر المستدير، وقد زادته حلاقة الشعر، دون رحمة، قصيراً كالفرشاة، تفلطحاً؛ وقارنه لا إرادياً بالوجه الشاحب المحاط بخصلات شعر داكنة مجعّدة لرفيق طريقه. كان ألفريد في عداد أولئك الذين يُعجَب بهم العوام والأولاد، ويعتبرونهم نموذجاً للوسامة، بينما لا يثيرون اهتمام علماء الفراسة: كان مكتسياً وفقاً للطراز الأكثر حداثة من قبل ستوب حيّه، وهو يستمدّ من هذا الظرف ثقة بالنفس لا تتزعزع، بينما كان جوزيف المسلّم إلى يدين تنقصهما الخبرة رغم معزتهما يتنابه الشعور الآن بنقص أناقته، فكل شيء عليه من الجورب حتى الصدار حتى السترة تفضح المواريث الأبوية المعدلّة بإرادة طيبة أكثر منها بنجاح. هؤلاء الشباب وصلوا إلى عمر يُفَضل فيه دون تردّد تحمّل مصيبة على الظهور بهندام يثير السخرية، وحيث أقل الأشياء تسبّب الفرح العارم أو الشقاء الكبير.

فكَّر جوزيف: أيَّة فكّرة موفَّقة خطرت لي بأن أتكورّ في آخر العربة، دون أن أضطر للسير أمامهما في وضح الشمس وسط هذا الفناء... كم أرجو أن يغادر ألفريد العربة قبل نزولي.

إن بضع ثوانٍ تكفي لهذه اللمحات التي يطول بها الوصف.

استمر الصديقان يتجولان وهما يتهامسان ويضحكان بهزء على حساب جوزيف، لكن هذا استعاد أخيراً بعض برودة أعصابه، وانتقم من سفاهتهما بدندنة

أغنيّة كانت سائدة في تلك الفترة ومطلعها: «هذا خطأ فولتير، هذا خطأ روسو» دون إظهار اهتمام بهما. حضر مسافر ثالث يتبعه فتى أعلن تييري عن جلوسه قرب الحوذي، بينما اجتاز المسافر الفناء بعد أن همس بكلمة للسائق، وصعد بسرعة إلى العربة حيث جلس قرب جوزيف بعد أن حيّاه، بينما تسلّق الفتى كهرّ على ظهر العربة ووضع فوقه دلوين مليئين بزجاجات أحضرهما.

هتف الفتى الصغير للوافد الجديد: «إنّك في وضع مريح تماماً هناك، يا سيّد دوبوا».

كان السيد دوبوا شاباً أشقر، طويل القامة ممشوقاً، بقسمات ناعمة، وعينين برّاقتين، وهيئة متميّزة، وهندام كثير البساطة (فهو يرتدي بزّةً من قماش رمادي وقبعة واقية) مما يتباين بشكل فريد مع مزاياه الطبيعية التي يخال منها إنّه فنان يبدأ تجواله. بعد وصوله بقليل، استأذن زميل ألفريد الباقي في باريس صديقه في الإنصراف، والتفت ألفريد عندها إلى تييري يؤنّبه على تأخّره ويطلب منه الإنطلاق.

قال: «يا للشيطان! يا صاحب، من يملك مثل هذا السُنُبك، يجب أن يتمتع على الأقل بجدارة التقّيد بالمواعيد؟ فليس هذان الاصهبان قادرين على تدارك الزمن الضائع!» لم يحر تييري جواباً، وتظاهر بأنَّ هذا الخطاب غير موجّه إليه، ونادى الفتى الصغير المنتصب دائماً في أعلى العربة قائلاً: هيه! يا صغيري، خذ سوطي واطرد تلك الذبابة التي تقرص الحصان الكبير؛ هناك، هكذا، هذا حسن.».

بدا الصغير فخوراً بأدائه خدمة، وشرع في الحديث مع المعترف بفضله الذي راح يستمع إليه ويسايره ازدراء بالشاب المتبرم.

قرَّر ألفريد، سواء عن اعتقاد أن السكوت أجدى، أو عن يقين أن اشتباكاً مع

جسور كتييري لن يكون لمصلحته، أن يصعد، دون تعليقات أخرى إلى هذا السنبك، كما سمّى العربة، واكتفى بالتمتمة بينه وبين نفسه بكلمات «فظّ، وغليظ» وجلس على المقعد الأمامي، بعد أن وضع بهيئة متعالية حقيبة يد كبيرة في أحد جيوب العربة.

قال لورو لتييري هامساً: لست مهذّباً مع السادة الوسيمين.

- ياه! «ألا ترى غرٌّ، تافه؟»

استقبل الشابان في العربة ألفريد بابتسامة، وكان جوزيف سعيداً لنيله الانتقام بسرعة وشكره بمظهر ساخر لأنه عجّل لهم بالانطلاق.

أضاف جول دوبوا مدركاً قصد جوزيف: «منَ المزعج الانتظار فعلاً».

بدا رجل طويل وجاف، بوجه شاحب عبوس، فألهاهم عن الحديث. وحياه تييري باحترام، وساعده على الصعود إلى العربة بعناية لاحظها الشباب بدهشة، إذ ما من شيء في مظهر الغريب يشير أمام عدم خبرتهم، لمرتبته: كانت قبعته المدلاة على عينيه تخفي جبيناً مدهشاً، والقفازات تحول دون رؤية يديه البيضاوين النظيفتين، ومعطفه المزرّر يغطي قميصه الرائع الجمال.

جلس هذا الوافد الأخير على المقعد الأمامي إلى جانب ألفريد. ولم يعرض عليه جوزيف أو الشاب الأشقر مقعده في صدر العربة، متناسيين دون شك أن أفضل براهين حسن التربية يقوم على مراعاة الشيوخ.

قال تييري: إذا أراد سيدي الكونت فإن أحد هذين الشابين يجلس مكانه على المقعد الأمامي.

قال جوزيف بحدّة: لماذا تسمح لنفسك بعرض المحل الذي يخصّني.

لكن السيّد دوبوا قدم محله.

أجاب الكونت: شكراً أيّها السيّد، آمل ألا أكون قد أزعجت أحداً.

كان تييري، بداهة، ينتظر هذا المسافر، إذ ما أن جلس على مقعده، حتى أمسك بأعنة جواديه ووجّه سوطه وانطلق.

قال ألفريد، وهو ينظر إلى رفيقيه الشابين، لينتقم من المخاتلة التي سببَها له هذا المتأخر: «من يرد السفر في الوقت الذي يحلو له يأخذ عربة خاصة، فهذا أفضل من أن يدع مسافري العربة العامة قيد الإنتظار.

وأضاف جوزيف مقرّراً أن يبّز من أثار غيرته بتعليقاته: «أو يحجز جميع الأمكنة» دفع مظهر جوزيف، أو فكرة التأرجح وحيداً في الكوكو، الكونت إلى الابتسام، لكنه لم يردّ بكلمة. وكان هذا فشلاً ثانياً لألفريد.

كان الحصانان يجريان خبباً؛ ووصلا إلى ضاحية سان مارتن، وصعداه بأفضل مما كان يؤمّل، والواقع أن تييري دفعهما إلى العزيمة المفترضة وهو يناوشهما بسوطه دون انقطاع من الرأس حتى الذنب. وكان الفتى الصغير جالساً إلى جانبه، ينظر بإعجاب إلى حركة هذا السوط الذي يصل بكل مهارة إلى هدفه.

كان الصمت يسود داخل الكوكو، والكونت يدرس ملامح رفاقه الثلاثة كرجل يحاول حل مشكلة ما، وجوزيف يتأمّل منازل الضاحية بنهم السائح المستغرق في انطباعات الرحلة، وجول دوبوا يبدو غارقاً في أحلام يقظة عميقة، وألفريد يترصّد الفرصة لانطلاقة برآقة.

II- الطريق

كان الحصانان يسيران بهدوء وسط أمواج من الغبار المصّفر، والصمت يسود دائماً في داخل الكوكو؛ والفتى الصغير يهذر من على مقعده مع تيبري المتسلّي بمرحه، واتساع ذهنه، وبدرت من جوزيف صيحة دهشة أمام تلّي شومون ورومنفيل دفعت ألفريدالشاب، بسرور كبير، إلى أخذ مبادرة الحديث.

قال جوزيف: «يا للمنظر الجميل!»

رد سريعاً ألفريد بلهجة الموجّه الراعي: أيها التلميذ الشاب، عندما يتسنى لك أن تجوب العالم مثلي، فلن تبدي الإعجاب أبداً أمام تلال بائسة أنبتت النجيل فوق أكوام تراب رفعتها قوارض الخُلْد المنقبة...

عقَّب جوزيف مستاءً من لهجة ألفريد المتعالية: من المفترض عند وصولي إلى عمرك أن أكون بمثل التقدّم الذي حزت عليه، فوالدي يفكر بإجراء جولة لي في أنحاء أوروبة، بمجرّد إنهاء دراستي.

تابع ألفريد ضاحكاً: تبدو لي هذه الجولة الأوروبية لن تتعدّى رحلة قصيرة لمسافر، يا صاح، لكن لا تهتم كثيراً فنحن نحبط غالباً مشاريع أهلنا!... فوالدي أراد أن يحتفظ بي إلى جانبه، ويدرّبني على وضع الملاّك الكبير الذي يمارسه ببعض النجاح، لكن فورة الشباب وطيشي جعلاه يقسو علي بشدة على الأرجح، ويدفعني إلى أن انخرط في الجنديّة.

هتف جوزيف وجول دوبوا معاً: أنت عسكري؟

– وصلت إلى رتبة نقيب ووجّهت بعض ضربات الحسام وتلقيت بعضها الآخر.

سأل الكونت: لكن في أي حرب أيها السيّد؟

- في تطوّعٍ لمهمات خاصة أولاً يا سيّدي، لأنني غير صبور بطبيعتي، ثم في حرب اسبانية، وأنا عائد منها.

هتف جول: أنت عائد من اسبانية؟ إنّ الطبيعة رائعة في تلك البلاد، أليس كذلك؟

- إن النباتات تنمو فيها كما في أساطير الجنيّات، فقد رأيت نبتات ألوة تشبّ وتعلو وتزهر خلال بضع ساعات على جنبات الطريق...

سأل جوزيف وقد احمرّ خجلاً حتى جذور شعره: والنساء فيها فاتنات؟

- إن أعينهن أكبر من أقدامهن، وهي تطلق شرراً يجعل الغليان يدبُّ في البرونز!... كدت مرتين أقتل من أجلهن!...

سأل جول متنهداً: وهل أسعدنك.

- للغاية، «حتى أن إحداهن دفعتني بعد كل حساب إلى مبارزة مثيرة!...»

وعندما لاحظ النقيب سرعة تصديق مستمعيه الشباب جازف بوصف معركة بالخناجر جعلتهم يشحبون هلعاً.

سأل الكونت عندما أخذ المبارز يستعيد التقاط أنفاسه: «إن السيد دون شك من الجنوب، أليس كذلك؟

ردّ ألفريد باعتزاز: إنني من بلادٍ، يستعد المرءُ فيها دائماً لدعم ما يقوله.

عقب الكونت: لكن من يجسر على الشك بأقوالك يا سيدي؟.

قال جوزيف الذي أراد بكل وسيلة هذه المحادثة: هل مضت عليك مدة في الخدمة، حضرة النقيب؟

- المدة الكافية لاكتساب الخبرة الضرورية في فن الحرب، هذا على الأقل رأي عقيدي.

سأل جول: ما عمرك إذاً؟.

أجاب ألفريد بثقة بالنفس: سأكون في الثلاثين من العمر في التاسع والعشرين من هذا الشهر.

قال الكونت: إن الحياة العسكرية تصون جيّداً الشباب، إذ تبدو وكأنّك لا تتجاوز العشرين.

- لا شيء يدهش في هذه الصيانة، فلولا هذه الحرب البائسة في اسبانية لما عرفت إلا حياة الحامية في ثكنات المدن، والعروض العسكرية التي لا تتعب الضباط.

- إن شمس اسبانية لم تؤثّر على بياض بشرتك.

- هذا لون بشرة عائلي لا يمكن لشيء أن يؤثر به.

- هذه المزيّة تنقلب ضدك كعسكري، إنني أراهن على أنك كنت تحسد رفاقك على وجوههم الحربية المسمّرة.

أجاب ألفريد بطبيعة متصنعة: لا تذكر لي هذا، فهذه البشرة النضرة جعلت الفوج يلقبني الآنسة ألفريد، وألعب في الثكنة أدوار الممثلة الأولى، وكنت بالمناسبة أوفّق فيها.

قال الكونت برصانة: لن أشك في ذلك، فمن يوفّق في مبارزة بالخناجر، يوفّق بكل شيء.

سأل جول: لكن بما أنك عائد من اسبانية، فلا شك أنك شهدت الاستيلاء على التروكادرو[1].

ردّ ألفريد وهو يهزّ كتفيه: قضية تافهة، مع أنني أصبت فيها بجرح، نلت على أثره صليب جوقة الشرف.

هتف جوزيف: أصبت بجرح! يجب أن تكون قد عانيت الألم!

(١) قلعة محصنة على خليج قادس في اسبانية اقتحمها الجيش الفرنسي واستولى عليها في العام ١٨٢٣.

وتابع جول: وأين جرحت؟

- في رجلي اليسرى، فالتروكادرو كلّفتني السلامية الأولى من الإصبع الصغرى.

سأل الكونت وقد بدا متسلياً بتنفجّات النقيب: لكن لماذا لا تزين صدرك بشارة هذا الوسام الذي يدعوك إلى الفخر؟

أجاب ألفريد بتكتّم: إنني ذاهب إلى قصر يحترس صاحبه من العسكريين، لذلك لم أُرد الظهور به...

قال الكونت: إنني أقدر ذلك، ولا أريد أن أكون مكان هذا الرجل! فعدا عن أنه قد يكون مغفلاً، فإنّك بدورك محافظ على تنكّر تام.

- أصحيحٌ؟... ألا يبدو مظهري العسكري رغم ثيابي المدنية؟ سأل ألفريد وقد بدا عليه الحبور.

أكّد جوزيف: «أبداً» ثم أضاف بمزيد من الفضول: «وأنا على يقين أن بإمكانك أن تقصّ علينا كثيراً من المغامرات الممتعة.

- وماذا تقول أمّك يا صغيري، إن نسيت ما توجب البراءة من احتراس؟.

قال جوزيف وقد تخضّب وجهه بالاحمرار: أمي؟ إن أمي متوفاة، يا حضرة النقيب، أما براءتي...

- كيف؟ أليست أمّك هي السيّدة التي رافقتك إلى العربة؟.

أجاب جوزيف بوقاحة: تلك المرأة هي خادمة منزلنا.

بسماعهم الفتى يدّعي باعتزاز انه ابن إحدى العائلات الكبرى، انطلق المستمعون الثلاثة في قهقهات عالية وهم يتبادلون فيما بينهم نظرات تقول: «إن هذا النذل الصغير يكذب!...» ينكر أمه، يا للجريمة!...

قال ألفريد بعد أن استعاد مظهره الجاد: «إنّك متخلٍّ بسهولة عن براءتك

بحيث يمكنني أن أتكلم دون أي محذور» ثم انطلق في قصص عسكرية وقصص مغامرات تبزّ كل ما ورد على لسان أبطال أريوست(١).

كان جول وجوزيف يلتهمان بشره هذه الأكاذيب، أما الكونت فقد كشف، من الكلمة الأولى لألفريد، المتنفج، لكنه حرص على عدم مقاطعته، وانتابه الفضول لمعرفة المدى الذي سيصل إليه النقيب؛ وكان هذا مسروراً جداً للأمر الذي أحدثه بحيث أنه عند الوصول إلى بوندي حيث توقّف تيبري لإراحة حصانيه، تقدّم بسرعة من السائق وربّت على كتفه قائلاً:

«كلمة حق تقال، أيّها المقدام، يجب الإشارة بما حقّقه حصاناك من سرعة سير».

أجاب تيبري وقد زال حنقه السابق وتوقّع كأس النبيذ الذي سيقدّمه له ألفريد: «ألا ترى تعرقهما من شدّة العدو» وتناول الكأس وهو يفكر: «إنه فتى طيّب هذا الغرّ» ثم مسح فمه بطرف كمّه.

خرج ألفريد من النزُل، وفي فمه سيكار وتقدّم يعرض بعض الحلوى على جوزيف منادياً إياه باليتيم مما أغضبه وجعله يرفض ضيافته، وهو يفكر بما يمكن أن يقوله ليتغلّب على شكوك رفاقه.

كانت وقفة تيبري لفترة قصيرة جداً في بوندي، استأنف بعدها السير متحرّضاً دون شكّ بوعود بخشيش سمحة، مما دفع بألفريد لإلقاء سيكاره مستهلكاً نصفه فقط.

فكّر جوزيف وهو يرى هذا التبذير: «كم هوِ غني هذا الجسور!».

درَجت العربة من جديد متوجّهة نحو ليفري، وانعقدت المحادثة من جديد

---

(١) أريوست: (١٤٧٤-١٥٣٣) شاعر إيطالي مؤلف «رولان الغضوب» وهي قصائد ممتلئة بالايحاء والتنوّع في النغم تعكس كل بريق عصر النهضة.

بسرعة . واستأنف ألفريد حكاياته المختلفة وبعد أن انتهى منها توجّه إلى جول دوبوا قـائلاً : « إنك فنّان ، أليس كـذلك؟ فنحن- العـسكريين- يمكننا أن نعـرف وضع الشخص من مظهره .

- أصبت أيّها النقيب فأنا رسّام .

- «إنّها مهنة جميلة أيضاً ، وهي تعجب النساء خاصة» .

هنا بدا على الكونت ، الذي كان قد خمّن وضع جوزيف وألفريد ، الإرتياح بعد أن زالت شكوكه حول وضع جول .

أضاف جول محمّراً وهو يتطلع نحو مرافقه الفتى خشية أن يسمعه : « إنني آت من مشاركتي في مباراة جائزة روما الكبرى .

قال ألفريد وهو يمدّ للرسام يده : إنَّ لك جبيناً يبدو مؤَّهلاً لتضفر عليه أكاليل المجد ، فتهيّأ لها . إننا أخوان . فالفرشاة تضارع السيف وكلاهما ينعقد له الغار ! ثم التفت إلى جوزيف وقال : وأنت أيّها اليتيم المثير للإهتمام ، ماذا يود والدك أن يجعل منك بعد جولتك في أوروبة؟ هل سيقدّر لنا يوماً أن نجتمع على دروب المجد ، كاجتماعنا اليوم في هذه الكوكو؟ ، أو أنني على خطأ ، والسيد والدك يوجهك إلى تجارةما؟ !

أجاب جوزيف وقد شحب لونه من الغيظ : «إن علم فراستك وقع في الخطأ هذه المرّة فأبي يهيئني للدبلوماسية» .

عند القهقهات العالية التي أعقبت هذا التصريح ، جفل الحصانان الأبيضان ، وراحا يعدوان خبباً ، وتطلّع تيري قلقاً إلى مقرنيهما في العربة خشية وجود ما ينفرهما ، وانتاب جوزيف غضب يعادل ارتباكه وأقسم على أن يتغلب على رفيقيه .

بعد أن عاد الهدوء إلى العربة، عبر الكونت عن سعادته بمثل هذا اللقاء قائلاً: «إنني أهنىء نفسي على سفري بصحبة ثلاثة مشاهير لجيل المستقبل.

وقال ألفريد وهو ينحني أمام جوزيف الصغير: «سأكون مديناً بترفيعي لرتبة لواء لرعاية السيد السفير المقبل، إذ لا شك أنَّ معارفه ستكون ذات شأن!

قال جوزيف ساخطاً: من المؤكد أن صلاتي لن تكون في اسبانية كصلاتك، وأنني أستطيع تسمية القصور التي أؤمّها، والأصدقاء الذين سأراهم فيها.

أجاب ألفريد: كم يستبدّ بي الفضول لأعرف هذه الأسماء، أيّها اليتيم الهام.

- ليس من الصعب تسميتهم فأنا ذاهب إلى قصر الكونت موريس، صديق والدي الحميم.

قال ألفريد مندهشاً، رغم ثقته بنفسه: أنت ذاهب إلى الكونت موريس؟

واستأنف جول مرتعباً: أنت ذاهب لزيارة الكونت موريس.

وسأل الكونت بدوره: هل أنت متأكّد يا صديقي الصغير، مما تصرّح به.

- مثل تأكّدي برؤيتكم في هذه اللحظة، سأتمّ عطلتي الصيفيّة مع ولديه: بول وسوستين اللذين نشأت وإياهما.

- فكّر يا بني، هل السيّد والدك صديق الكونت حقيقةً؟.

بدليل أنني أستطيع إعطاءك جميع ما ترغب به من معلومات.

- أنني فعلاً بحاجة إلى حمايته، ولن أكون متكدّراً إذا عرفت كيف يمكنني مقابلته بنجاح.

- قال جوزيف مستأنفاً كلامه بثقة: ضع جميع ألقابه في عبارتك الأولى، فتكون قد ضمنت نصف النجاح: إنه نائب، وأكاديمي، ومستشار دولة.

استأنف الكونت : هذا يعني أنّه كثير الغرور .

قال ألفريد : إن محدثي النعَمة هم دائماً كذلك .

تابع جوزيف : هذا صحيح ، إذ أنه بالرغم من بخله ، يتمنى لو نقصت ثروته ربعها ولم تكن واردة له عن طريق عمل أهله في التجارة .

- قال النقيب ضاحكاً : ربما كان يحسد السيّد والدك على نبله؟

تابع الكونت : إن كانت هذه المعلومات صحيحة ، فسيحكم عليه والدك الصديق له حكماً قاسياً .

سأل جول : لكن كيف لرجل عرف الوصول إلى مثل هذه المرتبة العليا في المجتمع دون الاعتماد على عائلة كبيرة ، أن يكون بمثل هذا الأفق الضيّق .

عقب النقيب : إن لبعض الأشخاص حظوظاً كبرى .

استأنف جول : إن الحظّ لا يفسّر أبداً إلا نصف النجاح ، ويجب التمتّع بمواهب كبرى لدعمه .

تابع الكونت باسماً : إن مواهب الكونت هي ، على الأرجح ، بعيدة عن متناول دبلوماسينا المقبل؟

أضاف جول : رغم ما تعيبون عليه من شحّ ، فأنا أعلم أنّه يشغّل كثيراً من العمّال .

قال النقيب : إنني أؤيد الفتى ، إنّه يمتلك الجرأة ، وسيذهب بعيداً . لكن هل تنكشف بورجوازية الكونت تحت ألقابه العديدة؟ أي مظهر له؟ .

- المظهر الأكثر شيوعاً بين الناس .

ردّ ألفريد بسرعة وهو مسرور لتلاعبه الخبيث بالكلمات : أيّها السادة لا سبيل إلى الشكّ فاليتيم بارع بهذه الأنغام!

استأنف جول مغتاظاً وهو يوجّه كلامه إلى جوزيف الصغير : لكن، ألا تبرهن لنا بهذا الكلام أن والدك ليس صديقاً للكونت؟ .

قال الكونت موريس : ألا تستنتجون أن هذا الولد يردّد أقاويل الخدم؟

قال جوزيف محتدّاً : الخدم! أيها السيد؟

ردّ الكونت بسرعة : « لم يعد ينقصك إلا أن تكذب كهلاً متقدّماً في العمر »

ثم توجّه إلى تييري : «أنزلني هنا»

قال تييري مندهشاً : «هنا؟» وضع الكونت اصبعه على شفته

تمتم تييري وهو يساعد الكونت على النزول : «مفهوم» وقال له هذا هامساً وهو يمنحه بخشيشاً مجزياً : «سر متمهّلاً حتى القرية» ودلف الكونت في شِعْب ضيّق يوصل إلى أحد أبواب القصر الصغيرة .

صعد تييري مجدّداً إلى مقعده، وتوقّف على حافة الطريق وتمتم : «من المؤكّد وجود أمر غير سويّ هناك» وراح يصفر لحن «أنا منطلق إلى سورية»[1] مما يشير إلى أن أمراً يشغل باله .

راح الحصانان اللذان تُركا على طبعهما الهادىء يجرّان العربة بتثاقل على الرمل، وكأنهما في إغفاءة حالمة بقرب موعد الاستراحة اللذيذة في الإسطبل .

سأل جول : «أيّها النقيب، وأنت العالم بالفراسة، هل خمّنت مهنة المسافر الذي غادرنا منذ لحظة؟ .

يجب أن يكون قاضي صلح الناحية، أو كاتب عدل . لكنني أرجح المهنة الأولى إذ أنني لاحظت لديه وقاراً يتوافق مع هذه الدرجة من القضاء .

من السهل معرفة ذلك، إذ يبدو أن السائق يعرفه .

---

(١) لحن يرجح أنه من أيام الحملات الصليبيّة .

قال ألفريد مخاطباً تييري: ماذا يعمل هذا السيّد لكومت الذي نزل الآن؟

- إنّه عمدة البلدة التي هناك.

تابع ألفريد: ألم أقل لكم إنه يمارس سلطة ما؟.

قال الرسّام جول: إن قسمات وجهه جميلة، ويبدو أن نظراته تكشف الأفكار.

قال جوزيف: «لابأس بتعبيره كعمدة قرية»، وبدا وكأنه يريد دائماً أن تكون الكلمة الأخيرة له، ثم التفت إلى تييري وسأله: «لمن هذا القصر الذي نراه؟»

- أنّه قصر الكونت موريس.

قال جول وألفريد في وقت واحد وكانّ همّاً أزيح عنهما: كيف؟ ألا تعرف قصر صديق السيد والدك؟.

- «إن لذلك أسباباً معقولة، فهذه هي المرّة الأولى التي آتي إليه فيها».

وصل تييري إلى الجادة المواجهة للقصر فحوّل عربته متجّهاً إليه.

قال الشباب الثلاثة في آن: «لماذا تأخذ هذا الطريق؟»

ردّ تييري: «بما أنكم ستنزلون ثلاثتكم هنا، فأنا أوصلكم حتى البوابة، وطبيعي ألا أقوم بهذه المراعاة من أجل مسافر واحد».

تحوّلت وجوه الشباب الثلاثة ومرّت بكل درجات الذهول، فقال تييري وهو يلاحظ ذلك: أتكون مراعاتي لكم قد كدّرتكم، مثلاً؟ ألم تكونوا تعرفون أنكم آتون إلى وجهة واحدة؟ ما الذي يروّعكم هكذا؟ ما الضرر في ذهابكم إلى مكان واحد جميعكم، مادمتم قد تعارفتم في الطريق؟.

قال الفتى الصغير: إنني مسرور جداً لأنني لن أحمل دلويّ على طول الجادّة.

صاح به جول : سنذهب حتى كِلي claye يا فتى .

هتف الفتى : آه! حسن، هل تفكّر فعلاً في ذلك يا سيّد دوبوا؟ وماذا سيقول البورجوازي، والكونت موريس الذي ينتظر خلف رخام قاعة الطعام، وهل لدينا الأسباب التي نتذرّع بها من أجل هذا الهرب؟

كان جول يسعى ، وهو خجلٌ، لتلتقي عيناه بعيني الصغير ليفرض عليه الصمت .

قال ألفريد : «ما الذي يعذّبَك يا سيد دوبوا، إنني أرى أن لكل منا قناعاً يجب أن يتخلى عنه أمام هذه البوآبة، أليس من المسموح به القيام ببعض التسلية أثناء الرحلة؟ ... »

أطل الوكيل السيد رينو من القصر وسأل تييري : «ألم تأتني بفليوني، ابن بوريكه الصغير؟

- سأسلّمه لك، يداً بيد، هو وحقيبته الصغيرة، إذ أن أمّه أوصتني جيداٍ بأن أفعل ذلك .

قال ألفريد : «هوذا اسم سيرنّ عالياً في سماء الدبلوماسية، هوذا قناع آخر يسقط»

لم يردّ جوزيف بكلمة وتلاشى خجلاً .

ابتعد جول عفوياً عن جوزيف بعد أن تأكّد أنه أنكر أمه، وبدرت منه حركة مشبعة بالازدراء كأنه يقول : أتنكر أمّك أيّها السيّد، أليس لك قلب إذاً؟!

قال ألفريد : قد لا تكون الأمّ دائماً في مظهر يسرّ العين، هذا صحيح، ومع ذلك فليس حسناً إبداء الجرأة في الاعتراف بذلك .

أضاف جول : إن أمي ترتدي أثواب هندية، وطاقية، وأنا فخور بها أينما وجدت .

- لماذا تهزؤون مني إذاً؟

أجاب جول: لأن ذنبك لا يغتفر، فيجب ألا يصل الغرور إلى المسّ بمثل هذه العاطفة. بالوصول إلى حاجز البوّابة، قفز تييري بخفة إلى الأرض، وقرع الجرس كملك، وقال للبوّابة التي هرعت حانقة: «إنني أقرع من أجل ثلاثة يا سيدة هنري» أسرع جوزيف في القفز إلى الأرض، وتأرجّح رأسه إلى الأمام حتى كاد يسقط؛ فقال له ألفريد: «مهلاً، مهلاً، بوريكه الصغير، فلا داعي لتكسر عنقك من أجل بعض مَزَحات خاطئة، وبعد كلّ حساب، فهناك من كان أكثر مكراً منك في هزله». والتفت إلى جول قائلاً: «إنّك ترسم على الحجر بدلاً من الرسم على القماش يا سيد دوبوا؟ ليس في ذلك ما يخجل؛ ولكن أرجو الصفح عن ادعائي فما أنا إلا مستخدم في مكتب موثق عقود، وهوذا السفر المشير إلى مهنتي»وأشار إلى حقيبة الأوراق التي رفعها من جيب العربة.

استعاد ألفريد كلّ جسارته، ودخل القصر وهو يسرّح شعره بيديه، بينما كان جول دوبوا يعين مساعده على إنزال الدلوين من العربة.

خلال هذه المداولة همست السيّدة هنري في أذن تييري: «هذا حسن!، هذا حسن! غداً في الساعة السابعة، في نهاية الجادّة».

لم ينتبه الشباب المسافرون، المضطربون تقريباً، لهذه الكلمات، بالرغم من أنّهاتتعلق بهم دون أن يدروا. وتابع تييري رحلته مسرعاً.

III- القصر

قالت السيّدة هنري، بعد أن تحادثت مع تييري، مخاطبة السيّد رينو: «إن السيّد الكونت ينتظرك كما ينتظر ربيبك.

ردّ الوكيل منذهلاً: الكونت موريس هنا؟ منذ متى؟ وهل أتى بعربته الخاصة؟وكيف عرف أنني أنتظر هذا الصغير؟.

- «انك تسألني أسئلة متعددة لا أعرف جواباً لها. لم أره إلا داخلاً من الباب الجانبي الصغير مع السيّد كلودن».

جالت الأفكار سريعة كالبرق في رأس الوكيل وملأته اضطراباً: «أيكون قد أتى بعربة تييري؟ ألم يوقع عقد إيجار المزرعة؟» ثم التفت إلى جوزيف وسأله: «هل كان معكم في العربة عجوز طويل القامة شاحب الوجه، نحيل الجسم؟ -نعم» ردّ جوزيف وهو يرتعش من رأسه حتى قدميه، إذ أنه أدرك أن العجوز الطويل القامة، الشاحب والنحيل هو الكونت موريس، وصعد الدم إلى رأسه وهو يتذكر كل ما قاله، ورنّت في أذنيه أصوات جلاجل تقرع مدويّة.

خلال حديث العرّاب وفليونه، كانت زوجة البستاني تستقبل ألفريد والرسّامين كامرأة تلقت تعليمات محدّده بخصوصهم.

قالت للرسّامين: ادخلا إلى منزلي يا ولديَّ، تلقيت أمراً بإعداد عشاء وتجهيز مبيت لكما، ولن ينقصكما شيء أبداً، إنّها توجيهات السيد الكونت. ثم التفتت إلى ألفريد وقالت: «إنّ السيد هو موفد موثق العقود، أليس كذلك؟ إنّ السيد الكونت ينتظرك، وسأرافقك لأرشدك إلى مكان وجوده».

دخل جول مع مساعده إلى رواق البوّابة، وهو سعيد لأنه تخلّص حتى نهاية السهرة من سخريات الكاتب، وصمّم على أن يخلد إلى النوم بعد العشاء مباشرة، وهو يفكّر بأسى بأنه سيرسم في اليوم التالي جدران قاعة الطعام تحت أنظار ألفريد الذي سيكون جالساً، دون شكّ، إلى المائدة، جانب الكونت موريس.

دخل ألفريد، والبوّابة، والوكيل وجوزيف معاً إلى مكتب السيد الكونت، وكان هذا يدير ظهره إلى الباب ويتحدّث باهتمام مع السيد كلودن.

قالت البوّابة لسيّدها: «هوذا موفد موثق العقود يا سيدي الكونت.

أجاب الكونت دون أن يلتفت، أو يلاحظ جوزيف والوكيل: «حسنٌ»

أشار الوكيل لفليونه ألا يبدي حركة، وأن يبقى صامتاً، إذ أراد دون شك أن يلتقط ما يدور من كلام بين سيّده والمزارع.

كان النقيب السابق يهيّء نفسه للتحية عندما عرف في سيّد القصر المسافر الذي عامله دون احترام أثناء الطريق، وبلبله هذا الإكتشاف.

قال في نفسه: «إنه يعرف من أنا، وقد كنت المخدوع، لا الخادع!».

هذه الفكرة شوّشت النفّاج الذي تلقّى الفشل الوحيد الذي يمكن أن يتأثّر منه.

قال صاحب القصر: «هدّىء من روعك أيّها السيّد، فالنقيب ألفريد لا يمكن أن يسبّب أي ضرر للكونت موريس، فهو أرمل، وليس له إلا الأبناء، ما اسمك، أيّها السيّد؟.

- «لست هنا إلا كاتب موثق العقود السيد ن ...». واستأنف بعد أن استعاد رباطة جأشه: «ولم أتلفظ بأي أسرار تسبّب الضرر لمعلمي أو لزبونه».

ردّ الكونت بتعال: هذا صحيح أيّها السيّد، فإنّك لم تسىء إلا لنفسك اليوم، إنّما مع عاداتك، لن تكون دائماً سعيداً؟!

ردّ ألفريد وقد رفع صوته قليلاً: سيدي؟!

- «لا تتبجّح أيّها السيّد، لا وجود للنقيب هنا، ولم تكن أكثر استهواء مني في أن أحمل كلامك على محمل الجدّ، أعطني عقد الإيجار واجلس».

لو قيلت هذه الكلمات لرجل أبيٍّ لأحسّ بالمهانة، لكن ألفريد المستخزي تصاغر أمام هيبة الكونت وأطاعه دون أن ينبس بكلمة، وفتح محفظة أوراقه، وقدّم العقد إلى زبون معلمه.

قال الكونت: «أكّرر لك يا سيد كلودن أن هذا العقد لا يتضمن جميع الشروط التي طلبتها للموافقة على عدم زيادة الإتاوة السنوية، ولن أوقعه، وسنناقشه معاً، وسيكتبه هذا السيد مجدّداً وفق إملائي. لكن قبل البدء، لي حديث مع وكيلي» وأوشك أن يدّق الجرس عندما التفت ولاحظ وجود الوكيل وجوزيف؛ وكان هذا، الذي رأى الخفّة التي تمّ بها إذلال النقيب، ينتظر برعب دوره.

سأل الكونت بقسوة وكيله: «لماذا لم تعلن عن نفسك عند دخولك أيّها السيد؟» ودون أن ينتظر جواباً منه أضاف: «منذ متى تعرف هذا الشاب؟».

أحسّ السيد رينو بالارتباك عندما فوجىء بالسؤال الأول، وتنفّس الصعداء عند السؤال الثاني، ولم يشتبه بأيّة إساءة من هذه الناحية فأجاب: «هذا الفتى هو فليوني، يا سيدي الكونت، ووالده صديقي.

- إذا فإنه استمدّ منك كل الافتراءات التي تلفظ بها طول الطريق على الكونت موريس؟ حضّر هذه الليلة حسابات إدارتك، أيّها السيد، وأنا انتظرك غداً صباحاً في الساعة الخامسة، لمناقشتها وتوقيعها. تم حجز مقعد في عربة السيد تييري غداً.

ردّ الوكيل بجرأة معتقداً أن الكونت، ككثير من المعلّمين، يتراجع أمام

النتائج الخطيرة التي يمكن أن يجرها اتهام مستخدم بسوء الإئتمان: «سيدي الكونت، إنك لاتصرف رجلاً خدمك عقاباً له على عبارات ولَدٍ.

نظر الكونت إلى الوكيل بطريقة جعلته يرتعش وقال:

«يجب أن ينبئك ضميرك، أيها السيّد، أن المرؤة دفعتني إلى إسناد تسريحك إلى غير سببه الحقيقي، ويجب أن تشكر هذا الفتى الذي هيّأ لي ذريعة ذلك؛ فضلاً عن أن عقوق الرجل خطيئة كبرى تطغى على الأخطاء الأخرى».

أراد الوكيل الكلام، لكن الكونت أسكته بقوله:

«إن قراري لارجعة عنه، فهذا العقد الذي أردت أن تعجّل بتوقيعي عليه؛ وهذه المسوّدة المكتوبة بخطّ يدك تبيّن مدى الإساءة التي تلحقها بمصالحي، وتبرهن على أن مصالحك مؤمنة على حساب الإضرار بي. هذه المسوّدة يمكن أن تُوضَع، إن احتاجِ الأمر، بيد القضاء. هيّا، تهيّأ للرحيل، ليس لدي قول آخر لك».

صرخ رينو في وجه جوزيف بعد أن ابتعد عن سيّده: «أيّها البائس، أي ثرثرة بدرت منك؟

ردّ جوزيف بوقاحة: يبدو أنها أسدت خدمة لك، يا عرّابي، ألم تسمع الكونت يصرّح بذلك؟.

- «ستكلّفك غالياً هذه الخدمة، سأعهد بك لأبيك وأمك أيّها الثرثار! ... كيف تتجرأ أن تكرّر أمام الملأ ما يقال بين المتوادّين؟! ... كيف تخون الثقة؟ ...» ما كاد الوكيل يتلفظ بهذه العبارات حتى ندم عليها. وردّ الولد الجريء بمظهر من أحسّ بحراجة الموقف: «انني أدرك جيّداً أن هذا التصرف لم يكن طيّباً، يا عرّابي البائس».

هذا الظَرْف الرئيس في حياة جوزيف كان بدايةً مباشرةً لما يمتلك من موهبة في المكر ربما لم يكن يدري بها. ودون أن يخمّن مدى أهمية كلمات الكونت التي

ستتفسّر في وقت متأخر فقد فهم منها ما يكفي ليستغل هذا السر ّكسلاح يجعل عرّابه يمتثل لإرادته».

رد الوكيل مخمناً ما بنفس جوزيف: «أيّها الثعبان الأرقط!»

إن ّللأخطاء دائماً نتائجها المشؤومة، وتلك المصادفة جعلت الراعي يحمّر خجلاً أمام من يرعاه، والرجل يستخزي أمام الولد؛ وهكذا فإن السيّد رينو بدلاً من أن يستنطق جوزيف طلب منه السكوت.

بينما كان الفتى يوريكه يقلّب وضعه بمكر سيكون في يوم شؤماً عليه، ذهب ألفريد بعد أن سلم عقد الإيجار ليتناول عشاءه، وقال في نفسه وهو يستمرىء لحم حجل: «إن كلمات الصغير ستكلّفه غالياً، لكن يجب الاعتراف بأنه يستحق جيّداً العقوبات التي سينزلها به والديه. كان ادعاؤه التهيوء للعمل الدبلوماسي طريفاً؛ أما ما تبقى فتافهٌ. التعرّض للأحياء مدعاة للتأفّف! ... انه طيش تلميذ في الصف السابع. يمكن الاختلاق، أو يمكن التحدّث عن لسان الموتى، هوذّا المبادىء في الفن! هذا الفتى قوياً. إنه بحاجة إلى بعض النصائح، وسأسديها له باعتبار أننا سنعود غداً معاً. أما الكونت الشيخ فإنه قوي جداً، وإذا أراد أن يمازح فتلك مناسبة طيّبة! ...

هؤلاء الشباب الثلاثة الذين جمعتهم المصادفة في عربة واحدة، وتحت سقف واحد؛ سيتذكّرون دائماً تلك الساعات التي قضوها معاً إذ أنها ستقرّر مصيرهم! ... وخلافاً للعادات السائدة في عمرهم، لم يستطيعوا النوم إلا قليلاً؛ فجوزيف كان يفكر بالمفاجأة «السارة» التي ستحدثها عودته لأهله صباح غد، وبالإستقبال الذي ينتظره إن تكلّم عرّابه عمّا أذاعه من أسرار، وهكذا راح يبحث عميقاً وبمكر مكياڤلي عما سيقوله لعرّابه لإقناعه بتبرير عودته دون إلقاء لوم عليه.

أما ألفريد، فبمراجعة أعماله الباهرة في العشية، اعترف بخطئه في بعض النقاط؛ وفكّر: «إن لمبتكرات الخيال عقباتها، والأفضل أن تطلق في الأوقيانوس

الباريسي بدلاً من المستنقع القروي، فالأوقيانوس يبتلع كل شيء؛ أما المستنقع فلا يغرق قشرة بيضة! إذا فالهزل حلو في الكوكو المتوجّه إلى باريس، لكنه مرٌّ إن كان الكوكو المذكور عائداً إلى عشه! ... صحيح أن ليس من العادة أن يتوقف كل المسافرين أما بوابة قصر واحدة، لكن يجب توقّع هذه المصادفة بحيث يتحرّى بعناية عن أمكنة إقامة رفاق الطريق قبل اطلاق المزحات المختلقة». هذه هي الأخطاء التي لام النفّاج عليها نفسه، والعبرة التي استنتجها منها.

راح دوبوا الشاب، المستاء من نفسه، الخَجِل لانقياده لغرور أحمق، يقلّب الأفكار عن وسيلة لإصلاح كذبة، ضخّمت رهافة روحه أثرها السّيء؛ وبدأ بتصميم مع الفجر عمله، بينما كان مساعده يصفر بسرور لحنه المفّضل وهو يحضرّ له الألوان؛ كان جول يلقي من وقت إلى آخر نظرات قلقة على النوافذ معتقداً أنه سيشهد منها إطلالة وجه كاتب الموثق، أو وجه جوزيف، وقد عزم مع ذلك أن يصحح بنبل غلطته. لكنه لم يشهد إلا عائلة البوآب. كان الكبار والصغار يروحون ويجيئون كأشخاص منهمكين في أعمال هامة. وعبر البوآب الفناء وهو يجر عربة صغيرة ملأى بالصناديق والرزم، وجوزيف يدفع العربة من الخلف، سواء ليبدو برباطة جأش، أو ليمتثل إلى أوامر عرآبه. وألفريد يمشي إلى جانبه، مرفوع الرأس، ومحفظة أوراقه تحت إبطه، ولعله بدأ منذ ذلك الوقت الدروس التي اقترح اعطاءها لجوزيف. ولم يكن الوكيل في هذ الموكب؛ فهو لم يجرؤ على الأرجح أن يمر من بوآبة القصر الكبرى، مفضلاً أن يلتحق برفيقيه في الجادة.

كان جول يتابعهم بعينيه بفرح كرجل تخلّص من همّ كبير.

قالت البوآبة وهي تضع الصحون على المائدة: «أنت تشهد رحيل وكيلنا؟ هوّذا شخص ارتكب حماقات! فسبّب لنفسه الطرد من العمل لدى سيّد كان كثير الطيبة معه! كان السيد الكونت يعلّمه كل ما يعرفه، ولا يتركه أبداً يعاني أي ضيق. هذا ما هو مؤكّد.

- وما سبب طرده؟ .

- سيكشف المزارع الأمر، وكذلك السيّد الكونت على ما اعتقد، لكن العدل أخذ مجراه، وأوصانا معلمنا بالكتمان.

سأل الفتى الصغير: لكن أيّ رجل معلمكم؟ .

- رجل طيب وعادل، لكن لا أريد أن أبيع زهرة واحدة من دفيئته دون علمه، إذ لا أستطيع عندها مواجهته؛ فهو يعطي كل ذي حق حقه، ويحاسبه على عمله.

سألت ابنة البوّابة من النافذة: أمي، إن طعام الغداء جاهز، فهل اذهب لإعلام السيّد الكونت؟

أجابت الأم: «اذهبي».

بعد فترة وجيزة سمع جول خطوات الكونت وهو ينزل السلّم، ورفع عينيه عند دخوله، وانتابه ما حلّ بألفريد وجوزيف من ذهول عند رؤيته.

لم يستطع الكونت حبس ابتسامة لكنها كانت ابتسامة رضا؛ مما دفع الشاب إلى أن يترك ريشته ولوح ألوانه ويتقدّم منه قائلاً:

«من حقك أن تكوّن رأياً سيّئاً عني يا سيّدي الكونت؟ وهذه الفكرة تعذبني. إنني أرسم وألون علي الرخام لأعيل والدتي الأرملة الفقيرة. فموت أبي حدّ من انطلاقتي، وأنا لم أشارك في المباراة على جائزة روما الكبرى. لكنني أعتقد أنّ بي من الكفاءة ما يدفعني إلى أفضل من ذلك، وآمل أن أتمكن من تحقيقه، وسأعمل من أجل أمي ومن أجل مستقبلي، وإذا سمعت يوماً من يتحدث عن أعمال جول دوبوا، ففكّر أنه رجل طيبة وشجاعة، وأسمى من الدور الذي لعبه البارحة، لأنني تألّمت من ادعائي وسأعمل لأصل إلى ما يجعل الناس يتحدّثون عني.

قال الكونت: « منذ البارحة، لم أخلط بينك وبين رفيقي طريقك يا صديقي الشاب. أجلس إلى جانبي، لنتغدى معاً ونتحدَّث».

في نهاية الوجبة، وبعد المعلومات التي طلبها الكونت موريس منْ الشاب، وتمكّن من خلالها أن يعطي حكمه على من يريد رعايته، قال لجول:

«أريد أن أعجّل بوصولك إلى النجاح والشهرة، وأمد لك يد المساعدة، وذلك بتجنيبك الصراع من أجل لقمة العيش الذي يستنفد الطاقة، وحتى الموهبة أحياناً.

ردّ جول وقد بدا عليه التأثر حتى ترقرقت الدموع في عينيه: سيدي الكونت، هل أنا على قدر من الثقة بنفسي لأقبل عروضك الكريمة؟ هل أعرف إن كان باستطاعتي أن أرد ديونك؟ إن تكوين رسّام يحتاج إلى سنوات، حتى وإن وهبني الله العبقرية.

أجاب الكونت: «يمكنني الانتظار، فهّدىء من وساوسك، إن لوحة واحدة من لوحاتك ستسدّد يوماً كل ديونك لي، وقد أكون أنا المدين لك عندئذ».

تجاوز فرح الشاب، والاتفاقات التي أعقبت ذلك، حدود هذه القصّة.

IV- خاتمة

بعد ست سنوات من الرحلة التي تحدثّنا عنها، حقّق جول دوبوا تنبؤات الكونت موريس. ودشن هذا بأبّهة في هذا القصر بالذات، حيث تغدّى وتحدّث مع رسّام المستقبل اللوحة التي تفي بما تعهد به الشاب نحو الكونت.

اختار الكونت لهذه المناسبة يوم عيد القرية، وقدّم الشاب لجميع أصدقائه، وجميعهم من نخبة المجتمع، وبإعجابهم برائعة الفنان تسجّلوا من أجل الحصول على لوحات من إبداعه. وهكذا رأى جول دوبوا بفضل رعاية الكونت المتواصلة، وصداقته، الثروة والشهرة تبسمان له في بداية حياته الفنّية؛ فكان أسعد حظّاً من كثير من أصحاب المواهب الذين لا تساعدهم الظروف، ويموتون فقراء دون أن يسعدوا بمجدهم.

كان يحتفل بعيد القرية، كل سنة تحت الأشجار الكبرى لجادة القصر يوم خميس الصعود. توجه الكونت موريس، كعادته في كل سنة، يتبعه جميع أصدقائه، لزيارة مِكان الاحتفال، وكان يمسك بذراع الرسّام الشاب الذي أعجب جميع الحاضرين بمظهره الأنيق ووسامته التي تذكر ّبڤان ديك .

بوصول الموكب إلى المكان الذي توزّع فيه الجوائز التي أسسّها الكونت، توقّف الجميع للحظة ليستعرضوا المتبارين الذين يتنافسون على جائزة الرمي؛ وعرف جول من بينهم نقيب الكوكو المزهوّ الذي لم يسمع عنه، ولم يره بعد تلك الرحلة برفقته، الرحلة المأثورة بالنسبة إليه.

كان السيد ألفريد، وقبضة يده على كشحه، وقبعته الرمادية مائلة على أذنه، يتميّز عن كل منافسيه بعقدة غريبة لربطة عنق شديدة الزرقة تلفت النظر، وبقميص ملوّن اعتاد الرجال والسيّدات لبسه في حفلات رقص الڤالس الصاخبة. وصدار

تبرق عليه كلّ أنواع الألوان؛ ومعطف على الطراز المستحدث وجدت له ربّة الأناقة التفصيلة الملائمة لإخفاء البدانة المبكرة لأليف بيت المتعة؛ هكذا كان هندام نقيب النفّاجين هذا.

عندما وصل الدور إليه، تقدّم بظرف لوڤلاس[1] المحلة، وهو يلقي بقبعته إلى الخلف ويضبط جيّداً تصويبه؛ مما يدفع لإعطاء فكرة عن وقفته المتباهية إلى القول إنّه يتشبه بتمثال أبولون بلفيدير.

قال أحد المتبارين لجاره، وقد ثبطت همته، دون أن يرى نتيجة الطلقة: «خسرنا!».

- أنت تعرف إذاً هذا البدين؟.

- لكثرة ما أراه في جميع أعياد الضواحي ينتزع بفوهة بندقيته جوائز الرمي من الأشخاص المساكين. إنه يقضي كل وقته دون شك في التمرين.

- «ربحت!» بدرت الصرخة من جميع الجهات.

قال ألفريد: بالصدفة، أيّها الأصدقاء.

تابع الرجل القانط: « يا للمهذار!»

لاحظ ألفريد عندئذ وجود جول وعرفه، وتقّدم نحوه وهو يتخذ موقف معلم الرقص في وضع الحركة الأولى: «إيه! وبعد، بماذا تنبأت؟ ... إن الغار ينبت تحت ريشاتنا؟ لقد أنجزنا عملاً فنياً رائعاً، هذه اللوحة تشعر بالرخام، وما من شكّ في أن تمثالك النصفي سيبرز في المعرض القادم.

أجاب جول ببرود: وأنت أيّها النقيب، ماذا فعلت منذ فراقنا بعد تلك الرحلة؟

---

(١) لوفلاس: البطل الغاوي في رواية كلاريس هارلو (١٧٤٧) للكاتب الانكليزي ريكاردسون.

- تركت الحياة العسكرية بنزولي من الكوكو كما تعلم؛ لكن الجولة الشهيرة في أوروبة وفق مخطط الفتى بوريكه أغرتني، فهجرت محترف كاتب العدل لأعمل وكيلاً تجارياً متجولاً، وأنا أبيع في لحظة لسويسرة وألمانية وأماكن أخرى الأعمال الأدبية بالجملة والمفرق، فإذا أمكن للرسّامين أن يستفيدوا منا كفائدة الناشرين فإنني في خدمتك يا سيد دوبوا.

«فبانصرافي إلى الفنون الجميلة، أعرف جميع خفاياها».

رغم حماسته وهو يقول هذه الكلمات فترت همّة النقيب السابق، والكاتب السابق، ببرودة صديقه فاستأذن منه؛ محيياً الكونت الذي عاد ليتأبط ذراع الشاب.

قال ألفريد: «لعلّ سيدي الكونت موريس لم يعد يتذكرني؟

قال الكونت وهو يردّ له تحيته برصانة ويسير مع جول: إنّ من لا يتغيرون لا يُنسون أبداً.

تمتم المستاؤون من خسارة الجوائز: إن هذا الرجل يفعل ما يشاء بأطرافه، فهو أيضاً من أمهر لاعبي البليار.

قال الكونت موريس لجول وهو يسمع هذه الكلمات: «هوذا مصيره المتوقّع، سيغدو متبجح أحد المقاهي الصغيرة حيث يقامر لمصلحة أصحاب المقهى ويتقاسم معهم رهانات الزبائن».

على بعد خطوتين من المكان الذي وقف فيه الكونت والرسام للحظة، اختبأ رجلان خلف الأشجار، الوكيل السابق وجوزيف بوريكه وقد غدا شريكه والمتواطىء معه في كل صفقة مريبة، وكانا يقومان علانية بتجارة الحبوب، وجاءا يستمهلان المزارع كلودن في تسديد ثمن آخر توريد علف من قبله؛ هل تورّطا في صفقات خاسرة؟ هل فقدا ثقة زبائنهما؟ ما سبب بقائهما فقيرين يضطران للإختباء في هذا المكان وربما عند التوجه إلى أمكنة أخرى؟

هذه الكلمات الإلهية : «لكل إنسان حسب أعماله» هي كلمات تنطبق على هذا العالم، الذي يحمِل فيه كل واحد بشكل دائم تقريباً وزر النتائج المشؤومة لأخطائه. أيّها النفاجون المولودون أو من سيولدون، إن كانت أكاذيبكم تثير الضحك وتُغفَر لكم في شبابكم، فإنها تفقدكم كل اعتبار إن تأصّلت فيكم وتحولّت إلى طبع. وبالعكس فكل انسان يحترم كلمته يستحق تقدير الجميع، أياً كان المستوى الذي خلقه الله فيه.

تمت قصة الرحلة في الكوكو

دراسة حول القصة والمؤلّف

اعداد: بيير باربريس

مجلة «**متحف العائلات** كتاب لجميع الناس؛ فبالعناية والاحتشام
المبذولين في تحريرها، يمكن وضعها في أيدي الشابات، بينما
يجد فيها الرجال الرصينون التسليات التي يتوخّونها في الأدب.
إنّها مجلة، ولكنها مجلّة دون خطر، وهي مجلّة مسلّية خاصة[1]»

في شهر أيلول ١٨٤١، طلبت مجلة متحف العائلات من بلزاك قصّة، وكان منشغلاً بارتباطات أخرى، إنما هو بحاجة إلى دراهم؛ وأشارت عليه أخته، لور سورڤيل بموضوع، ووفقاً لكل احتمال قدّمت إليه مخطوطة. كانت لور قد نشرت سابقاً في **مجلة الأولاد**، تحت الاسم المستعار ليليو، قصصاً أخلاقية متنوعة، جمعتها في العام ١٨٥٤[2] في **رفيق العائلة**، وأعلنت في مقدمتها أن قصة **رحلة الكوكو** (وقد نشرناها في هذا الكتاب بعد «**بداية في الحياة**») قد أوحت إلى أخيها الشهير **بروايته** المذكورة؛ ولا نعلم أين نشرت **رحلة الكوكو**، وما إذا كانت قد

(١) متحف العائلة: مجموعة مصوّرة: نصٌّ مستخلص بتاريخ تشرين أول ١٨٤٠.

(٢) بعد وفاة بلزاك بأربع سنوات.

نشرت قبل ذلك التاريخ . إنّما الشيء الهام هو أن رواية بلزاك استمدت موضوعها من نصّ آخر .

فكّر بلزاك بإمكان الاستفادة من السيناريو التالي المتخيّل من قبل أخته لور : شاب غير منطقي لم يشأ أن يكون هامشياً بالقياس إلى رفاق رحلته النفّاجين، يتفاخر بدوره بالإدعاء بأنه يتهيّأ للعمل في السلك الدبلوماسي، وينكر أمه التي يخجل من بساطتها، ويوجّه كلاماً غير مستساغ لأحد رفاق الرحلة وهو يجهل هويّته . مما يسبّب له الإرباك والخزي في النهاية . ورغم بعض العناصر الواقعية (صعوبات مَلاّك أراضي مع وكيله، تبّجحات كاتب موثق يدّعي بأنه شارك في حرب اسبانية، ورسّام مبتدىء يصرّح بإنه ينافس على جائزة روما) فإن الشخصيات ليست مميّزة في الواقع : فتصوُّرهم متعلّق كليّاً بالعبرة التي يُقصَد استخلاصها من لقائهم . وهذا هو نموذج القصّة الموجّهةأخلاقياًبالذات ؛ التي لا تتعدّى صياغتها الأدبية **مكامن** أصحابها . هكذا كانت قصص برِكَن، وجان نيكولابويي ؛ وهكذا ستكون قُصَص زنابيد فلوريو ودلّي . والحال أن بلزاك يعرف جيّداً هذا النوع من الأدب، الذي اشتهرت به في عهد الملكية الثانية بولين غيزو، مؤلّفة كتاب الطالب، الذي طبعه بلزاك في العام ١٨٢٧، ومن إحدى قصص هذا الكتاب، استمد بالذات فكرة رواية **طبيب الريف** : عن العمل الواقعي الذي قام به القسّ أوبرلن(١) . ونحن نعلم من جهة أخرى أن القصص الأولى من **مشاهد من الحياة الخاصة في** ١٨٢٩-١٨٣٠، تعتبر قصصاً مُهذِّبة، الهدف منها تحذير الشباب من الكوارث التي تعقب الجموح العاطفي .

يمكن لقصة لور ، بترتيب قليل، أن تندرح جيّداً تحت هذا التقليد الإرشادي ؛ ويبقى معرفة ما يراد فعلاً إثباته، وخاصة إن كان ما أُثبِت يتوافق مع المقاصد

---

(١)انظر مقدمة رواية «طبيب الريف» ص : ٨ : (روايات بلزاك ١٤) ترجمة ميشيل خوري . منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٤ .

المعلنة. إن دروس لور المتلاطفة التي لا ترى الشرّ إلا في الفرد لا يمكن أن تتوافق كلياً مع رأي أخيها. لكن بلزاك مع تفتيشه عن الأسباب الاجتماعية للشرّ يعتقد بالمسؤولية الشخصية؛ فشباب **بداية في الحياة**، هم في آن معاً، كما لوسيان دي روبمبره، نواتج عصرهم والطبائع: وهذان سببان للتحدّث عن مغامرتهم حتى وإن لم تظهر هذا القدر من المصادر المأساوية، والخاصة الدالّة كتلك المتوفّرة في بطل **أوهام ضائعة**. والرسم **المُجمل** الموضّح يَظهر تكراراً في النصّ: فطيش أوسكار هوسون ناتج عن ثورته ضد أم مسيطرة، وشروط حياة مذلّة؛ ومن جهة أخرى فالحكمة التي تحلّى بها أخيراً. ترتكز بعد كلّ حساب، على تمثّل التقيّد بالعرف الاجتماعي. وهكذا فقد تمّ تجاوز مقاصد نصّ لور المثالي؛ وعمد بلزاك، وهو أبعد من أن يقتصر على الإفاضة في العناصر الروائية، إلى تعميق، تجميل المغزى؛ لكن كانت له مقاصد أخرى من المناسب الإشارة إليها أولاً.

هناك مسألة السفر في العربة العامة (العَرباتي، التأخرات، الصخب، حوادث السير، التوقّفات في النُزُل، الضجر والرغبة في قضاء الوقت، مجاورة شاب بورجوازي وممثلين عن مختلف الطبقات أو الأوضاع الاجتماعية، الرغبة في الكلام سخرية أو نقداً والقدرة على الاستماع، التخفي والتنكّر؛ الأنباء التي توضع على لسان إحدى الشخصيات وتعطي فرصة للروائي لوضع قصة) كلّ هذه المادة الروائية ترد من تجارب واقعية؛ إنّما أيضاً أدبية تتقاطع معها وتجعل منها **مواضيع**؛ وعدّة أفراد من عائلة بلزاك سافروا غالباً في العربات العامة بين باريس وفيلباريسيس، وبين باريس وتور، ولكن هل هذا كل شيء؟ لنتذكر التفاهات الخارجة من معمل فيلّراغله[1]: فموضوع السفر وتبادل الأحاديث في العربة ماثل في قصة **شارل بوانتل** (١٨٢١)، وفي مقدمة**وريثة بيراغ**. ونقرأ في رواية **آنيت**

(١) اسم مستعار نشر تحته بلزاك بعض القصص والروايات في العام ١٨٢٢.

والمجرم وصف للهجوم على عربة؛ وفي آخر **الثائرين الملكيين** (١٨٢٩) يظهر قطاع الطرق التقليديون تحت مظاهر أخرى مع الاعتماد على التاريخ؛ إنما في اللحظة التي اعتمد فيها الروائي مهمة الوصف بدقة لعصر لم يعد فيه هؤلاء اللصوص محتملين، يواجه بورجوازيوه في السفر كمائن من طبيعة أخرى.

في الواقع أن بلزاك يستخدم فكرة عامة: ورواية لأوغوست ريكار هي: **الديليجنس أو العربة المقفلة، والداخل والمقصورة، والمقعد،** التي ظهرت في العام ١٨٣٣ لدى لكوانت وكورتل وبيغورو برهان من براهين عديدة. ومنذ الصفحات الأولى تُمثَّل ديليجنس جديدة باسم **المتفضّلة**؛ يشكل ركّابها وقصة كلّ منهم المادة الرئيسة للكتاب، وتتم عدّة ارتدادات للخلف، وتظهر عدة أدراج أن الرحلة في العربة ليست إلا ذريعة، وتصادَف شخصيتان بلزاكيتان: شاب على الطراز الحديث (بثيابه، وسيكاره)، وبورجوازي تاجر أبقار من النورماندي اسمه شابير. تحدّث البورجوازي عن عجوله التي تتألم لقلّة العشب. وصاح الشاب بسخرية «آه! العجول تتألّم» (III -٣٥)، وأظهر البورجوازي بعض القطع الذهبية. « فخطرت الفكرة لغوستاف في خداع الرجل الطيب» وفي أن يبدو«كثائر اسباني، أو متمرد من نابولي(III، ٣٩-٤٠) لكنه اكتفى بأن يقصّ حكاية مغامرة إيطالية بطلتها فتاة اسمها أوتافيا. وياللدهشة: فالسيدة المجاورة هي أوتافيا بالذات. وهنا تتجلّى الحقيقة، ويعود الشاب إلى واقعة كإنسان عادي (I-٦٢) بعد تخلّيه عن أوهامه التحرَريّة».

لكن الانتقال في النصّ البلزاكي، لشيء آخر يتجلّى بتجذّر القصة وإبراز القوى الموجّهة لها؛ فالبداية شاملة: إذ ينطلق بلزاك في اعتبارات تاريخية حول المواصلات العامة. وهذه طريقة متميّزة: فهو يشرف غالباً من علٍ قبل أن يهبط إلى التفاصيل، مع احتمال أن يصعد بعد ذلك بفضل توسُّعات أخرى، وارتداد إلى الخلف أو إلى التعبير عن السمةَ النهائية.

كانت لور قد وصفت حركة النقل بين فيلباريسيس، وكلاي وباريس: معتمدة على تذكّر دقيق للمنطقة التي عاش فيها آل بلزاك من ١٨١٩ إلى ١٨٢٣. وفي **فالثورن** وهي قصة غير تامة للروائي المبتدىء كُتِبَت في العام ١٨٢٠، فإن كلاي هي الموطن الصغير للمدرّس ماتريكانت. أكانت هذه هي الشرارة؟ على كلّ حال، وباعتبار الأمر يتعلق بالعربات، والخيول، والطرق والأماكن المعروفة، فبلزاك يلجأ أيضاً إلى الذكريات، إنّما في إطار جغرافي آخر هو الرحلات التي كانت تقوده بين ١٨١٧ و١٨٢١ من باريس إلى ليل آدم لدى فيلر - لافاي، صديق والده القديم. وسرعان ما تتوالى الحقائق: الخروج من باريس، فالمرور على قرية لاشابل بعد الحاجز، فسهل سان دنيس، فبييرفيت، فإكوان. وبعد بييرفيت وبسلوك طريق شانتيي يترك على اليسار طريق بوڤيه الذي يستمر حتى غروسلي، وسان بريس، ودومون، ونوازيل ونرفيل وبرسل. وهناك شاخصات عديدة على اليسار تشير إلى مسالك هذه القرى، التي إن لم تتّبع حتى ليل آدم، تقوده إلى بومون- سور- واز، وإلى شامبلي، ورونكرول، وفوسوز. وإلى الغرب ومن ليل آدم توجد قرية هروڤيل. هوذّا طبوغرافية بلزاكية شاملة استخدمت إمّا لتحديد عقُد في رواياته أو لتسمية شخصيات. كما يوجد أيضاً هنا الشواخص الأولى لطريق الفلاندر حيث أظهر أراغون في رواية **أسبوع الآلام** جريكو الشاب، كفارس أحمر؛ يتبع شرذمة لويس الثامن عشر التي تدعو إلى الرثاء في بداية حكم المئة يوم، وقد بدأ يسائل نفسه عن «بدايته في الحياة».

هذا الريف الذي يُكتّشَف بسرعة، وهذه المقاطعة القريبة يعرفهما بلزاك جيّداً. ففي بومون- سور- واز أجرى ماتريكانت دراساته. كما استخدمت شامبلي كإطاره منذ ١٨٢٢ لحبكة رواية **وان كلور** (حيث يوجد وصف لوادي مونمورونسي)، وفي منتزه كاسان حاولت السيّدة آرنوز أن تغرق ابنتها أوجيني، إحدى بطلتي أولى روايات **مشاهد من الحياة الخاصة**. كما تظهر كاسان من جديد

في **فيزيولوجية الزواج** (١٨٢٩) وفي **قصة وداعاً** (١٨٣٠). وفي العام ١٨٤٢ فإن هذا الزخرف **لرحلة الكوكو** ما هو إلا زخرف بلزاكي قديم، لكن أضيف إليه: هذه العربات الشواهد على حقبة في طريقها إلى الزوال؛ وطبيعي أن الشخصيات لا تتسجّل هنا ضمن مناظر طبيعية حقيقية فقط، إنما هي في أوساط يعرفها الروائي وتعود إلى حقائق تاريخية؛ وإلى ديناميكية اجتماعية كليّة تعطي للقصة حركة. ومعنى **فبداية في الحياة** ستكون رواية حلقة الواز، لكن أيّ واز؟.

ما من زخارف لدى بلزاك، ولا مناطق دون قضايا؛ خصومة النبيل مع وكيله. قلق الأعيان المحليين من فكرة مجيء المعلم للسكن في قصره وحسدهم له، النزاع بين مكر الفلاحين وسلطة المعلم، شبكات التأثير والمصالح. كل هذه الموضوعية التي ستكون فيما بعد في مركز رواية **الفلاحين** والتي بدت في تحرير قسمها الأولّ المتوقّف **(من له الأرض، عليه الحرب)** قد أثيرت بشكل واسع وبدقة في **بداية في الحياة** ومن المحتمل أن قضية برسل بين سيّد قصر ذي قلب كبير ووكيله الخائن تستمدّ عناصرها من ذكريات من رواية الواز؛ اضافة إلى أن بلزاك في رواية **الفلاحين** يذكر أمثلة عديدة مأخوذة من منطقة ليل آدم عن نهب الأراضي: وترد عدة أسماء لقرى أو لقصور (رونكرول، برسل، كاسان)، وإعادة جليّة إلى **بداية في الحياة** تأتي لتعاضد هذه الفكرة، حيث تكمن وتلعب تحت جاذبية المشهد الطبيعي للرواية قوى عميقة. هذه القوى التي أشير لها الآن مؤقتاً فقط، إذ أن الأمر يتعلّق قبل كل شيء بسرد حكاية هؤلاء الشباب؛ لكنها ستجد بعد ذلك كل تعبيرها الأدبي، إنمّا تبقى مشكلة العلاقات بين سيد القصر والوكيل بحاجة للمعالجة. وفي **بداية في الحياة** بدا سيد القصر معارضاً للمحدودين «والقائلين بالمحدوديّة» ولكن بعد سنتين من ذلك وتحت إملاء التطورّ الاجتماعي ستغدو الأشياء معقدة ومأساوية بشكل آخر: وعند ذاك فقط سيأخذ الموضوع مداه في رواية **الفلاحين**.

كل هذه الخلفية التاريخية لها وزنها في القصة: فنهاية النظام الملكي القديم،

والثورة الكبرى، والامبراطورية، والملكية الثانية، والثروات ومجالات العمل المتكوّنة والمنقرضة، والخدمات الجارية والأمانات المعقودة والمصالح الجديدة التي تنمو وتتطوّر، اعتباراً من مصلحة الكونت دي سريزي وزير الدولة حتى تلك العائدة للمستخدم كلابار، مروراً بمصالح الوكيل الذي أنقذ ثروة معلم، ونظّم ملكية قصر كبير جُمّل بأعمال الرسّام الشهير شينر. بينما كان الإطار الواهي للحياة الخاصة في طريقه للتمزق، والمغامرة الخفيفة تقريباً لتدرّب شاب ضعيف الشخصية تتهاوى تحت حقيقة مختلفة في تعبيرها، خاصة وأن تاريخاً قيد التكوّن سيضاف الى التاريخ المتكوّن.

استمرت المؤسسات الصغرى صامدة إلى جانب الكبرى منها، بفضل قدرتها على التكيّف مع الأوضاع المتعدّدة الفرديّة منها والمحليّة، وفي مواجهة الاحتكار الذي يعرّفه بلزاك على الوجه الأكمل بامتلاك رؤوس أموال هامّة، «وبتمركز قوي»؛ ودافعت عن نفسها بتشغيل أكثر مرونة. وبلزاك لا يحكم: إنّه يسجّل، ونصّه لا يندرج ضمن مدح مهلّل للمستقبل والتطوّر، ولا ضمن استحضار متأسّف على الماضي. هناك وجه لفرنسة يغيب، وآخر يولد، لكن يوجد بين- بين يستمر ويتكيف وينمو، ويشكّل كينونة. فييروتن يريد أن يشتري عربة جديدة، وهو لا يتنحّى بعكس سيشار العجوز في **أوهام ضائعة** الذي يتخلّى عن الصراع ويسلّم أعماله لابنه، لكن الأحداث تظهر له أن القوى لم تعد متكافئة في المطبعة التي تتطلّب رؤوس أموال أكثر أهمية، وتكيّفا أكثر تلاؤماً مع حاجات السوق الجديدة، وحَشْداً من المزايا التقنية يتجاوز إمكانات حرفيٍّ واحد. والآن، بالمقابل، فإن قانون المال لا يرحَم: فبيروتن إن تأخّر عن تسديد ألف فرنك، مهدّد بخسارة الألفي فرنك التي دفعها سلفة، إضافة إلى ثمانمئة فرنك دفعها ثمناً لحصان جديد وعدّته، والحل بالنسبة إليه في قرض شخصي، وليس في البنوك التي لا تقرض إلا

الأغنيـاء (وبيـروتو خـاض تلك التـجـربة)، وهنا كـمـا يقـول بلزاك توجـد «مـادة اجتماعية»، تعطي للنصّ إضافة إلى قيمته «الأثرية» قيمة ماليّة.

ومنذ العبارة الأولى في الرواية يهيأ مفتاح: « فالخطوط الحديدية في مستقبل يبدو حاليّاً غير بعيد ستسبّب زوال بعض الصناعات، وتعدّل صناعات أخرى، وخاصة تلك المتعلّقة بمختلف وسائل النقل المستعملة في المناطق المجاورة لباريس»؛ وكتورغـوتينات الثائرين الملكيين ستكون كوكو بيـيروتن أثراً مـاضيـاً لكن العَربة ستتحسّن، والإنسان سيتميز في التاريخ باستخدامه للدولاب، وتحت ضغط التقدّم التـقني ستـأخذ «الصناعـة» أشكالاً جـديدة مع كل المراحل الانتـقـاليـة والمخلّفـات الماضية التي يمكن استمرارها وفق المواقع، والحاجات، والإمكانات. هذه هي كل ماديّة بلزاك التاريخية الذي يسجّل في **رسائل عن باريس**، منذ العام ١٨٣٠، أنّ الماكنة البخارية قد قوّضت التنظيمات القديمة، وعملت على إظهار تنظيمات جديدة. والوصف موضوعي، والتنويه به ليس أخلاقياً كما في **منزل الراعي**، لكنه علميّ، فبلزاك يصف فرنسة التي بدأت الثورة الصناعية تشكلها بقالب جديد، لكن هذا التشكيل ما يزال متفاوتاً وبطيئاً: فالأبطال في نهاية الرواية لا يلتقون في مقطورة سكة حديد، إنما في عربة خيل هي ببساطة أكثر حداثة، وأكثر جمالاً. وبالرغم من الإشارة إلى الخطوط الحديدية فإنها لم تدخل في القصة؛ كما أن ما من أحد من أبطال بلزاك سيسافر في القطار؛ فبييـروتن لاحظ جيّداً، مع الروائي، «الحركة العامة التي تقلب الأوضاع في وطنه منذ حلول السلام». وكذلك أيضاً «نجاح التنوير» وهو أولاً نجاح مادي، جرّب أن يتمشّى معه. لكن هذه الفرنسة المتجدّدة بالذات، كما تظهر مع أمثال مورو وشركائه، ما هي؟ ومن هم هؤلاء الأشخاص؟ لا يوجد بينهم أي صناعي بالمعنى الحديث، أو أي «رأسمالي» إلا إن أعطينا للكلمة المعنى الذي كان لها في العام ١٨٢٠: وهو من يمتلك سيولة مالية نقديّة. إنمّا هم ملاّكون عقاريون، وأغنياء حديثو نعمة يستثمرون أموالهم في

الأرض؛ ورجال خدمات وإدارة. رأسمالية عائلية وفرديّة: وعلى هذا الأساس من «تمام الوسط» الاقتصادي، تلعب هذه الطفرات من إرادة- العيش التي أخفقت باندماجها بنجاح مزعوم ملتبس مع النظام. ولور بالطبع، لم تر هذا، ولم تقله، كذلك أيضاً؛ ، لأسباب سندركها، هذه المأساة الأخرى من الحياة الخاصة التي تجري ضمن الحياة السياسية.

بداية في الحياة هي أولاً «مشهد من الحياة الخاصة» بحكاية السيدة كلابار وابنها، المرتبطة مباشرة بالحقائق البلزاكية؛ وقد بيّنت آن- ماري منينجه[1] أن بلزاك استطاع كتابة روايته تحت إملاء ذكريات مستمّده من أسرار عائلة سورڤيل فكاترين آلن المسماة سورڤيل، كان لها من أوغوست ميدي دي لاغرنري ولد هو أوجين سورڤيل، زوج لور مستقبلاً، وهو ابن زنا ساخط وقليل الذكاء، استغرق بلزاك مدة لإرشاده. كما كان لها أيضاً من أب آخر (شخص باسم لاسال) ابنة، اسمها تيودور: فتاة بائسة حرصت العائلة دائماً على أن تتكتّم على وجودها وتزوّجت تيودور في العام ١٨٢٣، بعد أن كان لها ثلاثة أولاد، من عمانوئيل- أدولف ميدي ، وهو أحد أنسباء أوغوست ميدي، وكان رسّاماً وقد عارضت أم الشاب هذا الزواج مما أوجب اللجوء إلى اثبات التقدير، الذي ورد ذكره في **قصة الثأر**[2] حيث الرسّام والرسم يلعبان دورهما. كما أن انبثاقات أخرى تتشخّص في الإبداع البلزاكي حتى العام ١٨٤٢. ففي **بداية في الحياة**، تأتي قرابات الزواج الأول

---

(١)آ. م. مينينجه: «تيودور، بعض مشاهد من الحياة الخاصة» في السنة البلزاكية ١٩٦٤ صفحات: ٦٧-٨١.

اثبات التقدير: هو اثبات عرفي يقدّمه ابن أو ابنة، وصلا إلى سن الرشد، إلى ذويهم، بطلب النصيحة وإبداء الرأي حول زواجهما في حال عدم اعطاء الأهل مسبقاً الموافقة.

(انظر قصة الثأر- ص ١٠٨ ومقدمة آ. م. ومنينيجه لهذه القصة- روايات بلزاك رقم ٤- منشورات وزارة الثقافة السورية- العام ١٩٩٢).

والزواج الثاني من مصدر واحد. والسيّدة كلابار «أسبازي عهد حكومة الإدارة» وابنها أوسكار إبن الزنا، يوفّران عناصر أخرى تقرّب، مع جميع التغييرات الضرورية، مشهد الحياة الواقعية. وعلى سبيل المثال، انتحار هوسون الأب المزعوم لأوسكار، ومموّن الأرزاق، يذكّر بالشائعة التي سرت في روان عن انتحار أوغوست ميدي، إذ تزامن موته مع فضيحة في تموينات القمح. لكن تيودور اغتمت خاصة بشكل شديد حتى أنّها أتلفت صحتها، من مشكلة حدثت لابنها الثاني شارل: فهذا الشاب ارتكب تهوّراً ما، معرّضاً لاتهامات اضطرته للسفر إلى الجزائر كجندي بسيط. وفي العام ١٨٤٣، فكّر بلزاك في برنامج أرملة شابة أن يقصّ حكاية الابن الثاني «لتيودور» دي سومرڤيو (رسّام **مجد وشقاء**) الذي اضطر، بعد أن مثل أمام محكمة الجنح بتهمة اختلاس، للتطوّع في فرقة خيالة أفريقية، حيث وجب أن يوجد كأوسكار تحت إمرة الجنرال جيرودو. إنّه استرجاع واضح إنمّا في اتجاه آخر: فروبير سومرڤيو لم يستطع أن يتحمل عاره وسعى إلى الانتحار؛ بينما وجد أوسكار فرصة لردّ اعتباره، ولنسيان «بدايته» المؤسفة.

أمكن لبلزاك أن ينزح بشكل أكثر مباشرة، وأكثر حرّية، من ذكرياته الشخصية لمرحلة التدرّب المكتبي التي تشكّل القسم الثاني من الرواية الذي يذكّر بموضوعية استخدمها بصورة خاصة في قصة **الكولونيل شابير**. فتدرّب أونوره القاسي في مكتب غويونه- مرڤيل في ١٨١٨ - ١٨١٩، والنظام الصارم الذي فرض عليه، والتوقيت الدقيق لتحركّاته، ونقص الدراهم بين يديه، والأمثلة عن فرص النجاح المتوقعة للشاب المنوي ترهيبه؛ والفكاهات في المكتب وفي مناسبات التسلية. جميع هذه العناصر تظهر مجدّداً في قصته الجديدة. غير أن بلزاك يسجل في نقطة بعده عن الواقع المعاش: فأوسكار يسكن لدى معلمه، بينما كان هو بالذات يسكن لدى أهله؛ فالشاب في الرواية ينتمي إلى عالم أصبحت العبودية فيه

أكثر قسوة. وهو على كلّ حال ليست له مؤهّلات الطبع الضرورية للتحرّر. وإذا كانت معاركه، ومحاولاته، ومواقف ضعفه (مقامرته بدراهم المكتب، كمقامرة بطل **جلد الحبب** بدراهم أبيه) تذكّر كلُّها بالشباب المتألّم والمكبوت في الملهاة الانسانية، فإن بلزاك قد سجّل جيّداً بخصوصه أن إرادة الوجود، والطموح، والرغبة في الظهور دون «جذور في الروح» تنقل من «الهفوة إلى الغلط». وأوسكار ليس موهوباً، ولن يتجاوز النزاع الزائف الذي أريد أن يحتجز فيه: النجاح وفقاً للبورجوازية أو البقاء ككائن خائب؛ فليس فيه تلك الحمِّية المميّزة لراستينياك أو حتى لروبمبره، فغياب الأصالة فيه كرّسه لدور محدّد مسبقاً في مجموعة برهن بقسوة عن تعبيرها الساخر.

لهذه الحلقة الباريسية معنى آخر وفائدة أخرى لدى بلزاك، وهما يسيران في الاتجاه ذاته، ويتيحان له أن يعود إنمّا بطريقة خاصة تقريباً، إلى موضوع آخر مألوف لديه وعزيز عليه: وهو حياة التَوسط المتجري في الماريّة، بلا أخلاقيته، وعلاقاته مع دنيا المسرح؛ وهو ليس أبداً عالم بيلرو وبيروتو الساذج، وكاردو لا يمّثل أيّة نقاوة، فهو فاسق فاسد؛ بالرغم من طيبته وتقيّده بالأصول (فالمجتمع يجب أن يتابع سيره!)، وهو يعتبر مرحلة وسطى في الاتجاه الموصل إلى الكلبي كرفيل في رواية **النسيبه بت**. والبورجوازية التي فقدت إشعاعاتها وأولادها لم تعد أبداً موجودة هنا لتعطيه درساً. إنّه القرن التاسع عشر الذي يموت أخلاقياً.

وهنا برهان آخر على الموضوع السياسي الشرقي؛ هذا الموضوع المعالج بسخرية يرجع أولاً إلى الذكريات القديمة من الطراز المصادق لليونان في عهد الملكية الثانية. ونصوص عديدة من العصر، وخاصة في **مسلسل الصحف السياسية**، تبيّن أن بلزاك يرفض أن ينقاد للاندفاع؛ فهو معجب بمحمد علي، ويأمل في أن تقيم فرنسة، ذات المصالح في البحر المتوسط، علاقات طيّبة مع الدول الإسلامية، بدلاً من الإنصراف إلى الإغراب والعاطفة والمبتذلات البيرونية. ومع ذلك من لم يكتب

في ذلك العصر قصائد مشابهة لعشّاق ميسولونغي، وأغاني الإغريق[1] مثل فليكس داڤن[2] الذي غدا ناطقاً رسمياً باسم بلزاك! والحال أن اللورد النبيل، «المزاح الشيطاني» قد خُدِش في بداية في الحياة. وبقي بلزاك على مواقفه في آخر الثوار الملكيين وأوائل قصص وروايات مشاهد من الحياة الخاصة، وهو بابتعاده عن الشباب الرومنسي يرفض قبول كل بريق خدّاع يخفي المشاكل الحقيقية. وفي رجل كبير من المقاطعات في باريس، العام ١٨٣٩، يعاود هجماته ضد الإتجار الإستشراقي: وفي تلك السنوات دون شك التي يعد فيها عهد جياور[3] والشرقيات[4]، فإن أدلّة جديدة كاملة قد ظهرت لتدعم هذا الإنكار، ويعود موضوع الشرق إلى واجهة الأحداث الملتهبة، مع الأزمة الكبرى، العام ١٨٤٠، التي وضعت فرنسة على حافة الحرب نتيجة الدعم الممنوح من تيير لمحمد علي ضد الأتراك والانكليز؛ لكن فرنسة في النهاية تخلّت عن حليفها. ما نفع كلّ هذه الخطابات المفّخمة لتنتهي إلى تراجع؟ من المؤكّد أن مواضيع ١٨٢٢- ١٨٣٠ بطابعها السطحي قد وضعت من الآن فصاعداً تحته إضاءة جديدة. لكن بطريقة أكثر عمقاً، فإنّ جميع حماسات الليبرالية قبل العام ١٨٣٠ توجد الآن منحاة، وقد اختزلت إلى «كلمات على الموضة». فجورج مارست أحمق ليبرالي صغير (أو يتظاهر بالليبرالية)، وبلزاك يستخدمه ليستخفّ مرّة أخرى بموقف يشجبه، وهو

---

(١) تذكرة باللورد بيرون (١٧٨٨- ١٨٢٤) الشاعر الانكليزي الذي توجّه إلى الشرق اثناء الثورة اليونانية على الاتراك وتوفي بالحمى في بلدة ميسولونغي اليونانية على البحر الإيوني.

(٢) فليكس داڤن: (١٨٠٧ - ١٨٣٦) شاعر رثائي ولد في سان- كوانتن، أسس جريدة في بلدته وهو في الثالثة والعشرين من العمر، ثم غدا **الرجل الكبير من المقاطعات** في باريس، كتب دراسات عن مشاهد الملهاة الانسانية.

(٣) Giaour جياور (قصيدة لبيرون في العام ١٨١٣).

(٤) orientales الشرقيات: مجموعة ٤١ قصيدة لفيكتور هوغو نظمت خاصة في العام ١٨٢٨ وهي تمجّد تحرّر اليونان من سلطة الأتراك.

ينتقص على طول رواياته طابعه الغوغائي، موقف انتهى جميع المنادين به في عهد الملكية الثانية إلى وظائف براتب دون عمل. إلى ما انتهى فيكتور كوزين[1] في ١٨٤٠؟ إن معبود الشباب في العام ١٨٢٠ غدا شخصية رسمية في نظام «تمام الوسط». والشرق يعاني من كلّ ذلك، وهو إلى حدّ ما كبولونية يدخل في أوّل مجموعة حماقات تكتب عن العصر، «افترض وجود كثير من المصريين» هذه الكلمة المعبّرة عن السذاجة المزيّفة لتلميذ الرسّام ميستيغري تجسّد مسبقاً القول المأثور الشهير لأوبو ubu: «إن لم توجد بولونية، فلا وجود للبولونيين». وبلزاك يسدّد حساباً قديماً ينتقم فيه من هذا اليسار العاجز، الثرثار، الطمّاع الذي ولّد البورجوازية الفرنسية. «جميع المسافرين متساوون أمام الكوكو، كتساوي الفرنسيين أمام الدستور». هذه العبارة المصوّبة إلى دستور ١٨٣٠ المعدّل بقدر تصويبها إلى دستور ١٨١٤ تستعيد السخريات القاسية الواردة في **جلد الحبب**؛ وتشير جيّداً إلى القضية الأكثر سعة التي يندرج فيها، بالنسبة لبلزاك الاستشراق الرومنسي، واللون المحلي الذي «يطلقه» ميستيغري بجرأة. إنّها ايديولوجية كاملة يصفيها بلزاك هنا بواسطة سفسطة لفظية، ومجموعة صور متناسقة. ومن بين عناصر لوحته يمكن استخلاص بعض الدالاّت بسهولة: فهناك أولاً رجلا القضية الشرقية الكبيران: علي باشا جانينا، ومحمد علي، ولكن توجد أيضاً القضية الصربية التي ترتبط بذكريات أخرى تعود إلى **جان سبوغار** لشارل نوديه[2] الموظف القديم في إيليرية (كما الكونت دي سريزي)، وإلى **غوزلا** الشهيرة لمريميه وهي مجموعة ترجمات مزعومة لقصائد شعبيّة إيليرية. وزرنْي جورج الذي ورد اسمه

---

(١)فيكتور كوزين (١٧٩٢ - ١٨٦٧) فيلسوف فرنسي، لعب دوراً سياسياً هاماً في عهد لويس فيليب.

(٢) جان سبوغار: كتاب صدر في العام ١٨١٨ للكاتب شارل نوديه (١٧٨٠ - ١٨٤٤) وهو بين الكابوس والقصص الخرافية.

عـدة مـرات في النصّ، يعـقـد رابطة بين الموضـوع الايليـري والموضـوع المُصـادِق لليونان؛ إنمّا دائماً في جو لطيف من «الأدب» وكذلك الأمر بالنسبة للاعتبارات عن ايطاليـة (وحق باخـوس! يا لـلأشـرار، الخ. رغم بُعـد ستندال) وهي تسـدّد بدورها حسابات عن أماكن عامة رومنسية بأسلوب ينبيء «المبتذل، إيه؟ ايطالية» في **التربية العاطفية**[1].

ألـم تكن القضـية الشرقـية، الملتبسة في عهـد الملكية الثانية، مع قضيـة الحرية، تحمل في ذاتهـا عناصـر تقهـقـرها الخـاص الـليبـرالي والبـورجوازي، مـع المغـامـرة الجزائرية الملحقـة بهـا؟ في العـام ١٨٣٠، وفي **مسلسل الصحف السياسية**، كتب بلزاك أن المشروع الجزائري لا معنى له إن لم يكن عمـلاً تنظيمياً، وإن اقتصر فقط على الإندراج في إطار سياسة القوّة. وفي شـهر تشرين الأولّ من السنة نفسـهـا، حيّا، من أجل تضليل مملكة المال، في **نظرة على العالم الكبير** نزاهة اللواء برتزين، «النموذج العـفـيف، للجنود الجمـهـورين في العـام ١٧٩٤[2]» الذي رفض نـهب الـقـصبـة؛ كالرجل الشريف هولو في **آخر الثائرين الملكيين**، وكان برتزين رجلاً مستقيماً ضلّل في مغامرة تجّارية. وفي رواية **النسيبة بت** غـدت الجزائر إحدى مواقع عـمل هولو الآخـر، المخلّ بالوظيفة الذي أرسل إليـهـا ابن عـمه فيـشر لجمع المال بابتزاز السكان المحليين، وتهريب المؤن. والمرحلة الجزائرية في بداية في الحياة تتسـجّل بين هـذين القطبين. ومن جهـة أخرى، فأوسكار، ضـابط الملكيـة الثانية، والمحمي من قبل زوجة ولي العـهد، ينتقل إلى جانب الشعب في تموز ١٨٣٠ : ومن البيّن أن تحـرريّته آنئـذ لا تسـتند إلى أيّة قـاعـدة نظرية رصـينة، ولا ترتبط إلا بغـروره، وانتـهـازيتـه،

(٣) التربية العاطفية (١٨٦٩) رواية لفلوبير. وقد كتبت على مراحل تحت أسماء مختلفة وكانت صيغتها الأولى في (١٨٤٣-١٨٤٥).

(١) كرّاس «الكاريكاتور». تشرين أولّ ١٨٣٠.

وغيرته الخفية. ومن مرافق للافاييت، ينضم إلى الحملة الأولى المتوجّهة إلى أفريقية التي عُهِدَ بها إلى الأمير الملكي. وهنا ملاحظة أخرى ذات مغزى: هذا الجيش مُرسل إلى أفريقية لمساعدة وريث الأسرة الملكية الهجينه على اكتساب شهرة. فلا أوسكار ولا الروائي، تساءلا أو سألا عن الجزائر، وعن هدف إرسال الفرنسيين إلى هناك. هو مجال عمل في الجيش الجديد، دون مثال أعلى، ودون أيّة فكرة عن رسالة ما، مجال تُبدَى فيه البسالة، كما فعل أوسكار في المقطع؛ لكنها شجاعة سيّاف فقط، فتى ضائع في خدمة قضية لا تعود أبداً إلى فرنسة الفتيّة. وبلزاك الذي تعثّرت لديه مشاهده عن **الحياة العسكرية** يبيّن على الأقل هنا كما في مواضيع أخرى الصورة التي يكونّها عن الموضع العسكري في ظلّ نظام تموز. فالألوية يغدون بورجوازيين ملائكين (كما في **رواية الفلاحين**)، والضباط حرّاس أفظاظ في خدمة البورجوازيين، بينما الجند من غير رتب ينتهون إلى الحقد والشقاء، وعزاؤهم الوحيد أسطورة الامبراطور تصاغ كالسير الملحمية (كما ورد في رواية **طبيب الريف**) وهكذا تعرض قضية الجزائر دون حيوية، إنّها هذه الصحراء التي يعود منها الضابط مسمّراً، حاملاً وسام جوقة الشرف، ليغدو جابياً في بومون، «بانتظار مكتب تحصيل الضرائب في بونتواز» أي فرق مع الآفاق المشرفة الرائعة المُنشدة في قصيدة الحرية التي جذبت سابقاً أوكتاف ستندال! لكن قساوة الحياة العسكرية علمت أوسكار - كما قيل لنا - «التسلسل الاجتماعي والإذعان إلى القدر»، وهو من الآن وصاعداً السيد هوسون المعترف به كنسيب للناجحين في الحياة آل كاموزو، ومن المؤكد أنه لا يقرأ برَنجه[1]. فخلف وجه السيد هوسون ترتسم الآن صورة الجنرال أوبيك، وسان آرنو[2].

---

(١) شاعر وزجّال (١٧٨٠-١٨٥٧) اشتهر بأغانيه المعادية للحكومة.

(٢) من قادة حملة الجزائر.

وهكـذا في ظـلّ الـدولـة البورجـوازيـة، تتـمّ العـودة من بـلاد الشمـس والأحـلام.

وبداية في الحياة التي كان يمكن أن توصف بالستندالية، تغدو أقرب إلى المذهب الطبيعي، فهناك من وجدوا في واترلو، ومن صنعوا ثورة ١٨٣٠. لكن «هل شهدت واترلو؟» في الرواية، لا يدفع إلى التفكير بفابريس[1] إلا في الدرك الأسفل، وهي تساهم كعبارة «هل صنعت ثورة ١٨٣٠؟» في تكوين ملفّ الحماقات. وبداية في الحياة لا تترك بعد قراءتها، لا انبهاراً ولا وعداً، إنمّا شيء ما أعيدت تحميته؛ والترابط الدال في المجموع قائم نتيجة غياب المقتضيات الحقيقية، عند الانطلاق؛ وعلى حساب الأم، ودي سريزي، الكائنين اللذين يستحقان «العبادة» في نظر بطل ستندالي، يجرب أوسكار أن يكون نفسه؛ لكن الأم امرأة مسكينة ورجل الدولة يخرج من الدنيا حتى دون ابتسامة. أوه! موسكا؛ ماذا كانت تفكّر روحك الكبيرة؟ أما هؤلاء «الفتيان» فإنّهم يعطون صورة معكوسة تماماً عن شباب أي تجمّع أدبي. متأنّقون مزّيفون، متبجّجون صغار يُحطّون من مقامهم، وبلزاك لا يعارضهم حتى في إعطاء أوسكار هوسون شيئاً من بقايا رفاييل[2] (بل يجعله في سيرة حياته يعود إلى ذات أصولهم)، كما أنه لم يَشقَ في سقيفة شاعرية، ولم يحلم فلسفياً، بل إن بلزاك يختزله إلى وضع كاتب لن يصل أبداً إلى مرتبة المحامي المرخص كدرڤيل. وكل هؤلاء الشباب، وما من أحد يتمنى رؤية نفسه منهم، لا يعرفون إلا أن يتهكموا على البورجوازية، الصورة، مع ذلك، لما هو مؤمّل في أن يكونوا. ويُدرك هنا مغزى الفكرة: فازدراء السيد برودوم[3] ليس

---

(١) شخصية رواية «شارتروز بازم» لستندال. رمز الشجاعة والحركة في منظور من السعادة والوسامة.

(٢) بطل رواية «جلد الحبب».

(٣) السيد برودوم: شخصية خلقها هنري مونيه (١٨٩٩ - ١٨٧٧) بالكاريكاتور والرواية لتمثيل البورجوازي الأحمق.

لدى هؤلاء الصنّاع إلا عذراً مؤقتاً. والدرس واضح، ولا ينبغي البحث عن معناه في «سيكولوجية» الأشخاص (وهي هنا مختصرة)، وإنمّا في ترتيب مختلف عناصر النصّ.

ويتجلّى المعنى في العلاقة الساخرة التي تقوم بين العنوان والخاتمة. **فبداية في الحياة** عنوان يظهر وكأنه أولاً، وفي الواقع، يعود إلى فكرة رئيسة في التربية: فكرة اكتشاف العالم، ومسارّة، وتلقين لإحدى الحقائق الكبرى. لكن العبارة الأخيرة: «هذا أخيراً هو البورجوازي الحديث» تُسقطُ كل شيء. فالعالم الحديث لم يَعُد مشوّقاً؛ إنّه من الآن فصاعداً بورجوازي فقط ودون شفقة. فكلّ بعد حماسي قد اختفى، ومغامرة أوسكار هوسون تشكّل انتقالاً، ويوطوبيات ومقدمات كبرى لروايات فلوبير ولقصة كرة الودَك[٢] فبداية في الحياة، بأفكارها وتقنيتها (الوسط المغلق، العربة) هي، بين جميع مؤلفات بلزاك، الوحيدة، على الأرجح، التي لا ترتقي ببطلها، فالفكر فيها منسحب كترضية قاسية ومسطحة لهذا الوسط المعتدل الذي ينتصب في وجه أمثال كاموزو والمتواطئين معه في النسيب بونس، ولا مثيل لهذه الصورة من الهرب والانتقام المتجلّية بكنز ماغوس الذي يُفلت من البورجوازيين كما أفلتت دلالة ذلك الذي نشلوه من نسيبهم الفقيد التعس. وأوسكار هوسون هو أحد الضعفاء النادرين في **الملهاة الانسانية** الذين يكُملون في وسط الخمول الوحيد المنتصر، على خلفيّة من نجاحات لا بريق لها مستقبلاً؛ بينما جميع الناس قد صعدوا تقريباً في المرتبة. وتمّ لهم الترصّن والاستقرار؛ فكان النجاح نصيب مورو وكناليس وليجه، وحتى وسام جوقة الشرف لجوزيف بريدو، وغياب الكونت دي سريزي الذي اعتزل عن الناس، وحيوية زوجته المستهترة،

---

(١) كرة الودك (أو الشحم): هي القصة التي سببت الشهرة لغي دي موباسان.

وترفيع جيرودو إلى لواء، أمّا نصيب أوسكار هوسون فكان تَعلُّمَ الصمت واعتراف آل كاموزو بقرابته لهم، بينما غدا ريبر السيّد دي ريبر أنّه توزيع كبير للجوائز ليس نيّراً و«فلسفياً» كما في نهاية زاديك[1] إنّما هو ساخر يحدّد عالماً في طريقه إلى التسطّح. والحلقة قد أغلقت، ولا انطلاق نحو أيّ هدف. عندما أراد بلزاك في العام ١٨٣٠، أن يُعطي نصائح للشابات في الاعتدال؛ كانت شطحة قلم تُرَدُّ لتناقض الدرس الظاهري، ولتطلق النصّ في اتجاه مقتضيات مقبولة رغماً عن كل شيء. أمّا هذه المرّة فهي أخلاقيّة دون أفق، على طريقة لافونتين في نصيحته «لا تسرف أبداً في الكلام» بداية في الحياة هي إضافة «واقعية» للرواية المتقدة بالأوهام الضائعة، وهي على الأقلّ، تحدّد حقاً. فرفاييل ولوسيان روحان كبيرتان جداً، تكتشفان تضيّق العالم الحديث. وأوسكار روح ضعيفة دون مستقبل روائي ممكن، يأخذ مكانه، رغم بعض الحماقات في البدء، في عالم شبيه به. إن الجنود السابقين قد هزّوا أوروبة القديمة، ودخلوا إلى ميلانو في العام ١٧٩٦، وكانوا حملة فكرة كبيرة جديدة. أما أوسكار في معركة «المقطع» فمرتزق. والملازم جيرار في الثائرين الملكيين يمثّل شبيبة كاملة من العالم، أما أوسكار بطل حملات لويس فيليب فهو الآن من سلالة الأبطال المماثلين لمن ذكرتهم الكونتة دي سيغور، التي اعتبرت أن الجزائر قد استخدمت لاستعادة أولئك الذين أساؤوا البداية. (عبقرية سيّئة) وبلزاك لا يحتفظ هنا من مشاهد من الحياة العسكرية إلا بالاسقاطات غير المجيدة. والوحيد المعتبر نقياً هو الكونت دي سريزي، المجدُّ الكبير، المجسّد لصورة إيجابية تتسلّط على الروائي: صورة الإداري. لكنّ سريزي عاجز. وهذه المأساة الخفيّة لها دلالة أخرى غير دلالتها الخاصة أو السريرية. وهي كعجز دي مورسوف، وكعجز

---

(٢) زاديك (١٧٤٨) قصة لفولتير.

أوكتاف بطل رواية ستندال. أنّها تعيد إلى عجز تاريخي. وكان بإمكان سريزي، كغرانفيل في **عائلة مضاعفة** أن يكون في العام ١٨٣٠، بطل أحد **مشاهد الحياة الخاصة**: إنه ممر ممكن يفتح هنا، لكن بلزاك، حرصاً منه على الوحدة، يرفض أن يدلف إليه، أو أنه لم يدخله في حينه. ولكن يمكن قراءة الشاخصة عند المرور: «المؤثّرون، من الآن فصاعداً، وحدهم؛ هم أولئك الذين يرتضون عالماً فقد انسانيته.».

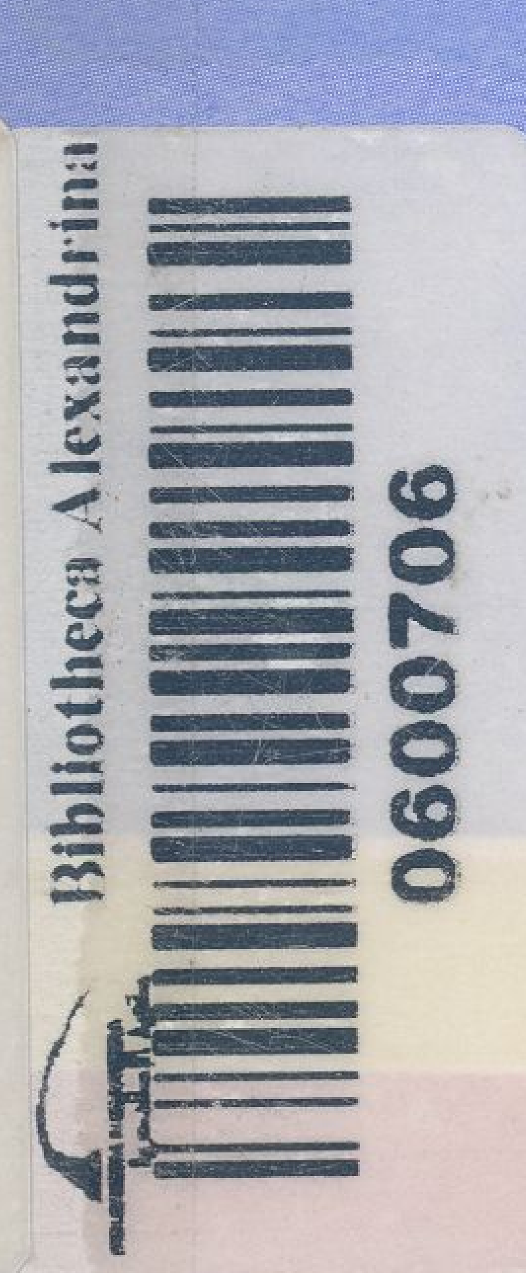
الفهرس

١٥٠٠ ط١ / ١٠ / ٢٠٠٠

بداية في الحياة هي إحدى روايات «مشاهد من الحياة الخاصة» التي أراد منها بلزاك أن تظهر المشاكل التي تطرحها الحياة في ممارساتها الأولى التي تشمل انفعالات الفتوة والشباب وأخطاءهما وبداياتهما في العالم الاجتماعي. ويبدو أن أخت بلزاك لور أوحت لأخيها بموضوع الرواية وهو الادعاءات الكاذبة وما تجره على أصحابها النفّاجين من متاعب قد تضيع مستقبلهم وتسيء لمن حولهم؛ فبطل الرواية، طالب الكلية أوسكار هوسون ينكر أمه التي يخجل من بساطتها ويوجّه كلاماً جارحاً لرجل كبير القدر يسافر متنكراً في العربة العامة التي تضمّ الشباب المتبجحين.

يستغل الروائي أحاديث العربة ليتعرض للمسألة الشرقية وغزو فرنسة للجزائر كما تنقله سيرة حياة النفّاج أوسكار إلى التدرّب المكتبي لدى المحامين والموثقين والتوسط المتجري وعلاقاته مع المسرح ونزاع الفلاحين مع النبلاء على ملكية الأراضي.

ألحقت دار النشر بالرواية قصة لور المخطوطة وهي بعنوان «رحلة الكوكو» ولعل العبرة من هذا المؤلّف ما جاء في خاتمة تلك القصة: «أيّها النفّاجون المولودون أو من سيولدون، إن كانت أكاذيبكم تثير الضحك، وتُغفر لكم في شبابكم فإنّها تفقدكم كل اعتبار.. فاحترام الكلمة هو الذي يكسب الإنسان التقدير، أيّاً كان المستوى الذي خلقه الله فيه».



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر

١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٠٠ ل.س